صبيٌّ في الشفق

من قصص الصين الخفيّة

تصميم الغلاف
عبد الله القصير

صبيٌّ في الشفق
من قصص الصين الخفيّة

تأليف : يو هوا

ترجمة : فاديا جادو العوام

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

العنوان الأصلي للكاتب:

暮色中的男孩
中国的隐藏故事
Boy in the Twilight
Stories of the Hidden China

الكاتب: 余華 **ترجمها إلى الإنكليزية:** **Allan H. Barr**

الناشر: **Pantheon Books, New York, 2014**

المترجم: فاديا العوام

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(**بالضرورةِ**)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها**.**

تقديم

نقرأ في كتاب (صبيّ في الشفق) ثلاث عشرة قصة جريئة يتردد صداها بالجمال والشجاعة والسخرية الرائعة من الحياة اليومية في الصين. كتبها يو هوا، المتميز بعطائه السردي، وصوته الشعبي، وذكائه الفريد الذي جعله أحد أشهر الكتّاب وجعل كتبه الأكثر مبيعاً في الصين.

يعود تاريخ هذه القصص إلى منتصف التسعينيات من القرن العشرين، وتصوّر حياة الصينيين المعاصرين من منظور السخرية والعنف، إذ يظهر العنف في كثيرٍ من القصص، ومنها قصة العنوان، يواجه فيها صاحب عربة فواكه طفلاً لصاً ويعاقبه بلا رحمة. وتدور في القصة الأخيرة (أصحاب) معارك درامية بالأيدي مسموح فيها كل شيء خارج حمام معمل المصفاة. وفي قصة (لا اسم لي) تتنمّر مجموعة من القرويين على يتيم القرية. كما ويتناول الكاتب القصص المتعلّقة بالعلاقات بين الأزواج والزوجات التي يصعب فهمها، ففي قصة (لِمَ لا توجد موسيقا) يصوّر الكاتب علاقة زوج ديوث مع صديقه حين شاهده في فيلم إباحي مع زوجته. وتكشف قصة (انتصار) امرأة وصلت إلى حافة الطلاق بسبب اكتشافها مفتاحاً مخفياً، في حين أننا نجد في (لماذا ينبغي لي أن أتزوج؟) شاباً يحاول العمل على أنه مستشار زواج لزوجين يتقاتلان بوحشية. أما قصة (صيف حار) فتركّز على شاب أخرق يستخدم بذكاء امتيازات منصبه الحكومي ليتملّق امرأتين في

وقت واحد. وتُظهِرُ حكاية أخرى زوجين فقيرين يعملان في مصنع يفسدان بالدلال ابنهما الوحيد.

شكّلت هذه القصص مجتمعةً صورة خاطفة لأمة تتألّق بالشعور العميق والفكاهة الجاهزة التي تميز شعبها. وباستخدامه لغة حادة وعيناً ثاقبة، يستكشف يو هوا الخط الفاصل بين القسوة والدفء، الذي تتوازن فيه الصين الحديثة في عالم غير مستقر ومرح في آنٍ معاً.

المترجمة

ملاحظة المترجم عن الصينية

نشر يو هوا أول قصة قصيرة له عام ١٩٨٣، حين كان في الثالثة والعشرين من عمره. إذ عاش في مدّ وجزر في حياته المهنية الكتابية، ثم برزت لديه مرحلة منتجة على نحو خاص في أوائل ومنتصف التسعينيات. في غضون بضع سنوات قصيرة، أكمل ثلاث روايات (صرخات في الرذاذ، أن تعيش، وتاريخ تاجر الدم)، عرَّفته شخصيةً قوية رئيسة في المشهد الأدبي الصيني. إنّ شهرة هذه الكتب، ولا سيّما كتاب ("To Live" أن تعيش)، الذي سرعان ما قُدِّم للشاشة بوساطة المخرج زانغ ييمو، طغت على الرواية القصيرة التي نشرها يو هوا في أثناء الفترة نفسها. غير أنّ القصص التي جُمِعت هنا في هذا الكتاب، والمكتوبة جميعها بين عامي ١٩٩٣ و ١٩٩٨، تمثّل مجموعة مميزة من أعماله بأسلوبه الخاص، إذ كتبها بأسلوب مبسّط وقاصد، ورسم مقتطفات من الحياة اليومية في الصين المعاصرة، تماشياً مع "الواقعية الشعبية" التي تميّز كتابيّ (أن تعيش، وتاريخ تاجر الدم). إذا كان ثمة موضوع متكرر في مجموعته القصصية (صبي في الشفق)، فهو الانقسامات والتقلّبات في العلاقات الإنسانية في أثناء حقبة الإصلاح في الصين: زيجات في حالة انهيار أو تعافٍ، وترسيخ الصداقات أو خيانتها في عالم غير مستقر، إذ تصل الأحداث إلى منعطف غير متوقع في أيّ وقت. ومع ذلك، لم يتخلَّ يو هوا تماماً عن الموقف غير التقليدي لأدبه الخيالي السابق، والعبث الهزلي المرتبط بالمأساة كما تكشف هذه القصص.

لا اسم لي

ذات يوم، حين عبرت الجسر وأنا أحمل سلَّتين معلّقتين بعصا على كتفيَّ كميزان، سمعت أحدهم يقول: إن باغنو تشو أسان قد مات، لذلك وضعت سلتيَّ وأخذت المنشفة التي أضعها على رقبتي، ومسحت العرق عن وجهي، واستمعت إليهم وهم يتحدثون عن طريقة موته، إذ اختنق باغنو تشو أسان وهو يأكل كعكة العام الجديد ثم مات. لقد سمعت عن شخص مات خنقاً جراء تناوله فول سودانيّ، إنما الموت خنقاً بكعكة رأس السنة الجديدة فهذه أسمعها أول مرّة حسب علمي. بعد ذلك نادوني: "تشو أسان... مهلاً، باغنو..."

حين نظرت إلى الأرض وأجبت: "إمم". انفجروا ضحكاً.

"ماذا تحمل في يدك؟" سألوا.

نظرت إلى يدي وقلت: "منشفة".

انفجرت نوبة أخرى من الضحك. "ماذا تفعل المنشفة على وجهك؟" سأل أحدهم.

"أمسح العرق". أجبت

لا أعرف لماذا كانوا سعداء للغاية. ضحكوا بشدة إلى درجة أنهم تأرجحوا إلى الأمام وإلى الخلف مثل عود قصب في مهب الريح.

"رائع، بإمكانه أن يقول عرق!" غمغم أحدهم ويده على بطنه.

صرخ رجل آخر كان يتكئ على الدرابزين: "تشو أسان! باغنو أسان!"

كرر ذلك مرتين، لذلك أجبت "إمم" مرتين أيضاً.

"من هو تشو أسان؟" سأل ضاحكاً وهو يمسك معدته.

نظرت إليه، ثم نظرت إلى الأشخاص الآخرين إلى جانبه، ففتحوا أفواههم وعيونهم معاً وسألوا:

"نعم، من هو باغنو تشو أسان؟"

أجبت: "تشو أسان مات".

أُغمضت عيونهم من شدّة الضحك، لكن أفواههم مفتوحة على أوسعها. كم ضحكوا بصوت عالٍ! فأصوات ضحكاتهم أعلى من رنين الحديد في محل الحدادة. لقد جلس اثنان منهم على الأرض، وبعد أن ضحكا كثيراً فترة من الزمن سألني أحدهما وهو يلهث: "تشو أسان مات، إذنْ من أنت؟"

من أنا؟ شاهدتهم يضحكون إلى درجة الإنفجار، ولم أكن متأكداً من كيفيّة الإجابة. فأنا لا أملك اسماً، لكن، ما إن أسير في الشارع، ينادونني بأسماء أكثر من أيّ شخص آخر. أياً كان ما يريدون أن يسموني، فهذا ما أنا عليه. إذا عطسوا حين يلتقون بي مصادفة، فإنهم يدعونني بـ (العطاس)، وإذا كانوا يخرجون من المرحاض، فإنهم يدعونني (منديل مسح المؤخرة)، وحينما يريدون لفت انتباهي، ينادونني (تعال هنا)، وحينما يشيرون إليّ بالابتعاد ينادونني (انصرف)... وثمّة أسماء أخرى ينادونني بها كـ (الكلب العجوز) و(الخنزير النحيف)، وما إلى ذلك، وأجيب عن أي

اسم ينادونني به. ولأنه ليس لدي اسم خاص بي، فليس عليهم سوى التقدم بضع خطوات تجاهي، والنظر إليّ، ليحيّوني، وسأجيب على الفور.

فكّرت فيما أقول. ما ينادونني به الناس، في أغلب الأحيان، هو (يا هذا)! لذلك، وعلى أمل أن تكون هذه إجابة صحيحة، قلت: "أنا... يا هذا!"

اتسعت عيونهم وسألوا: "من أنت؟"

ربما قلت شيئاً مغلوطاً. نظرت إليهم ولم أجرؤ على قول المزيد.

سأل أحدهم من جديد: "إيه، ما ذلك الاسم؟ من قلت إنك أنت؟"

هززت رأسي: "أنا... يا هذا."

نظر بعضهم إلى بعض وضحكوا، ها ها ها. فوقفت مكاني وشاهدتهم يضحكون، وبدأت أضحك في نفسي. رأى الناس الذين كانوا يعبرون الجسر أننا نضحك جميعاً بصوت عالٍ، وشاركونا الضحك. ناداني شخص يرتدي قميصاً ملوناً: "يا هذا"!

أجبت: "إمم".

أشار الرجل ذو القميص اللامع إلى شخص آخر وسألني: "هل ضاجعت زوجته؟"

أومأت: "إمم".

بدأ الرجل الآخر يشتم: "يا بن العاهرة!"

ثم أشار إلى الرجل الذي يرتدي القميص اللامع قائلاً: "لقد قضيتَ وقتاً ممتعاً في السرير مع زوجته، أليس كذلك؟"

أومأت: "إمم".

ضحك الجميع بشدة. غالباً، يسألونني هذا النوع من الأسئلة، أو يسألونني ما إذا كنت أنام مع والدة شخص ما. منذ سنوات عدّة، حين كان السيد تشين لا يزال في قيد الحياة - لقد مات السيد تشين مثل باغنو تشو أسان - وقف تحت الإفريز وأشار بإصبعه نحوي قائلاً: "ألا تدرك أنّ الطريقة التي تتصرف بها تجاه شخص ما، تريحه في نهاية المطاف؟ في حال كنت مُصَدِّقاً، فإن الأمر سيحتاج إلى حمولة شاحنات عدّة لنقل جميع النساء اللواتي ضاجعهن في الفراش".

لمّا شاهدتهما يضحكان، تذكرت ما قاله السيد تشين. فقلت لهما: "لقد ضاجعت زوجتيكما".

لمّا سمعا ذلك، اختفت ابتساماتيهما على الفور وحدقوا في وجهي. في لحظة جاء الرجل ذو القميص اللامع ورفع قبضته وضربني بشدة حتى إن أذني طنّت دقائق بعد ذلك.

حينما كان السيد تشين لا يزال في قيد الحياة، كان يجلس غالباً خلف طاولة الصيدلية، وثمة مجموعة كبيرة من الأدراج الصغيرة المفتوحة أو غير المفتوحة خلف رأسه، ويحمل مجموعة صغيرة من المقاييس في يديه الطويلتين النحيفتين. في بعض الأحيان، كان السيد تشين يمشي إلى باب الصيدلية، وينوي قول شيء حين يراني أجيب عن أي اسم أُنادى به. كان يقول: "إن ما تفعلونه، وما تتلفظون به إثم، ولا بدّ أن تدفعوا ثمنه عاجلاً أم آجلاً. كل شخص لديه اسم، وهو لديه اسم أيضاً، اسمه ليفا".

حين ذكر السيد تشين اسمي، وقال اسمي "ليفا"، خفق قلبي بشدة. تذكّرت والدي وهو في قيد الحياة، كيف كان يجلس على العتبة ويحدّثني

أموراً. كان يقول: "يا ليفا، أحضر إبريق الشاي إلى هنا". "ليفا، أنت الآن في الخامسة..."، "ليفا، هذه الحقيبة لك". "يا ليفا، أنت بالفعل بلغت من العمر عشرَ سنوات، لكنك لا زلت في الصف الأول، اللعنة عليك". "ليفا، انسَ أمر المدرسة، ساعد والدك في حمل الفحم". "ليفا، تحتاج إلى بضع سنوات أخرى فقط، وستصبح قوياً مثلي". "ليفا، والدك ليس لديه وقت طويل يعيشه، ليس طويلاً بعد الآن، يقول الطبيب إنني أُصِبت بورم في رئتي". "ليفا، لا تبكِ. ليفا، حينما أرحل لن يكون معك والدتك ولا والدك أيضاً".

"ليفا، ليـ - فا، ليـ ـ، ليـ - فا، ليفا والدك يُحتضر...، جسّني هنا، والدك تيبس... يا ليفا، انظر، والدك ينظر إليك..."

بعد وفاة والدي، قمت بجولاتي ومشيت في الشوارع، وأوصلت الفحم إلى الناس في أنحاء المدينة جميعها. سألوني: "ليفا، أين والدك؟"

- أجبت: "لقد مات".

- كانوا يضحكون: "ليفا، وماذا عن والدتك؟"

- قلت: "لقد ماتت".

- "ليفا، هل أنت أحمق؟"

- أومأت: "أنا أحمق."

لما كان والدي في قيد الحياة، قال لي: "يا ليفا، أنت غبي. لقد درست في المدرسة ثلاث سنوات، لكن لا تزال لا تستطيع تعلُّم حرف واحد. يا ليفا، هذا ليس خطأَك، إنه خطأ والدتك. حينما ولدتك، ضغطت على

رأسك بشدة. يا ليفا، إنه ليس خطأ والدتك أيضاً، فقد كان رأسك كبيراً جداً، وتسببت في موتها..."

"ليفا، كيف ماتت أمك؟" سألوا.

أجبتهم: "ماتت في أثناء الولادة".

"من كان ذلك الطفل؟" سألوا.

قلت: "أنا".

"كيف ولدتك؟" سألوا مرة أخرى.

-"ولدتني وقدمها في القبر".

حين سماعهم هذا، ضحكوا وقتاً طويلاً: "وماذا عن القدم الأخرى؟"

لم أكن متأكداً من مصير القدم الأخرى. لم يخبرني السيد تشين، فكل ما قاله هو أنه حين تلد امرأة تكون قدمها في القبر، ولم يقل أين تضع الأخرى.

"يا هذا، من والدك؟" صرخوا.

أجبت: "أبي مات".

قالوا: "هراء، والدك في قيد الحياة وبصحة جيدة".

نظرت إليهم، بعينين واسعتين، ثم اقتربوا مني وهمسوا في أذني. "نحن والدك."

نظرت إلى الأسفل وفكّرتُ للحظة: "إمم".

"هل نحن والدك؟" سألوا.

أومأت: "إمم."

سمعتهم يضحكون. جاء السيد تشين وقال: "لا تلتفت إليهم. لديك أب واحد فقط. كل شخص لديه أب واحد فقط. لو كان لدى الناس آباء كثيرون مختلفون، فكيف ستتمكن أمهاتهم من فعل ذلك؟"

بعد وفاة والدي، أخبرني الناس جميعهم تقريباً في المدينة _أعني الرجال_ بغضّ النظر عن أعمارهم، أنهم والدي. مع وجود كثير من الآباء، بدأت أحصل على كثير من الأسماء، ولم يكن لدي ما يكفي من الأصابع في المساء كي أحصي الأسماء الجديدة جميعها، التي قدموها لي في أثناء النهار.

لا يزال السيد تشين وحده من يناديني بـ "ليفا". في كل مرة أرى السيد تشين وأسمعه ينادي اسمي، يخفق قلبي بشدة. كان السيد تشين يقف عند باب الصيدلية، يراقبني ويداه داخل أكمامه، وأنا أقف مكاني وأنظر إليه أيضاً. في بعض الأحيان، يجعلني أضحك ضحكة مكتومة. بعد فترة، أشار إليّ السيد تشين لأبتعد، قائلاً: "هيا اذهب. انظر، لا يزال لديك حمولة من الفحم على ظهرك".

ذات مرة، لم أذهب، ووقفت مكاني، وناديت: "يا سيد تشين".

خرجت يدا السيد تشين من أكمامه وحدق في وجهي. "بماذا نعتني؟"

خفق قلبي، حين جاء السيد تشين. "ماذا قلت الآن؟"

"يا سيد تشين،" أجبت.

ابتسم وقال: "أنتَ لست غبياً، على الرغم من كل شيء. أنت تعرف أن تناديني السيد تشين، يا ليفا."

نادى اسمي مرة أخرى وابتسمت مثلما فعل السيد تشين.

سألني: "هل تعرف أن اسمك هو ليفا؟"

"نعم". أجبت.

"دعني أسمعك تلفظ اسمك."

قلت بهدوء: "ليفا".

أضحك ذلك السيد تشين بشدة، وفتحت فمي وشاركته الضحك. وبعد مزيد من الضحك، قال السيد تشين: "ليفا، من الآن فصاعداً، ما لم ينادِك الناس يا ليفا، لا ترد عليهم، هل تفهم؟"

ابتسمت وقلت: "أفهم".

أومأ السيّد تشين، ثم نظر إليّ ونادى: "يا سيد تشين".

"إمم". أجبت

"حينما أنادي اسمي، لماذا تجيب؟"

لم أكن أعرف أن السيّد تشين كان ينادي اسمه. فكرت أَنّ الأمر مضحكٌ، فابتسمت.

هزّ رأسه قائلاً: "ما زلت غبياً، على ما يبدو."

مات السيد تشين منذ وقت طويل، وتوفي باغنو تشو أسان قبل بضعة أيام فقط، وتوفي كثير من الناس بين وفاتيهما. الناس في عمر تشو أسان نفسه

لديهم شعر أبيض ولحى بيضاء، وهذه الأيام كثيراً ما أسمعهم يقولون إنهم سيموتون قريباً، لذلك أعتقد أنني سأموت قريباً أيضاً. يقولون لي إنني أكبر من باغنو تشو أسان. يقولون، "يا هذا، أيها الأحمق، من الذي سيدفن جثتك حين موتك؟"

هززت رأسي. أنا حقاً لا أعرف من سيدفنني حين وفاتي. أسألهم من سيدفنهم حينما يموتون، فيجيبون: "لدينا أبناء وأحفاد وزوجات أيضاً. زوجاتنا لم تمت بعد. ماذا عنك؟ هل لديك أبناء، هل لديك أحفاد؟ ليس لديك حتى زوجة!"

لم أقل شيئاً. لا أملك أي من هؤلاء الأشخاص، لذا وضعت حمولتي على ظهري، وذهبت في طريقي. غير أن تشو أسان كان لديه كل هؤلاء الأقرباء. في اليوم الذي حُرِقت فيه جثته، رأيت ابنه وحفيده وجميع النساء يبكون وينوحون في أثناء سيرهم في الشارع. تبعتهم إلى محرقة الجثث، وكانت حمولتي فارغة على ظهري. لقد كان مشهداً مفعماً بالحيوية طوال الطريق، وفكرت كم سيكون رائعاً لو لدي ابناً وحفيداً وأقرباء آخرين. مشيت إلى جانب حفيد تشو أسان. كان الطفل يبكي بصوت أعلى من أي شخص آخر، لكنه سألني وهو يبكي: "يا هذا، هل أنا والدك؟"

الأشخاص الذين هم في العمر نفسه سئموا من كونهم والدي الآن. اعتادوا مناداتي جميع أنواع الأسماء، لكن عاجلاً أم آجلاً طرحوا السؤال عليّ، وسألوني ما هو اسمي. يقولون: ما اسمك؟ حينما تموت، نريد أن نعرف من مات... فكّر في الأمر: حين مات تشو أسان، كل ما احتجنا لفعله هو أن نقول أن تشو أسان مات، وسيفهم الجميع الأمر، لكن ماذا نقول حينما تموت؟ ليس لديك اسم على الإطلاق".

أعرف ما هو اسمي. اسمي ليفا. كان السيد تشين هو الشخص الوحيد الذي تذكر اسمي، وبمجرد وفاته، لم يعرف أحد اسمي. الآن يريدون جميعاً معرفة اسمي، لكنني لن أخبرهم. يضحكون بصوت عالٍ ويقولون: الأحمق يبقى أحمقاً لا أكثر ولا أقل. إنه أحمق في الحياة وأحمق حينما يكون مسجّىً في نعشه.

أعلمُ أنني أحمق، وأنني أتقدم في العمر وسأموت قريباً. أفكر أحياناً أن ما يقولونه صحيح. ليس لدي ابن أو حفيد، وحينما أموت، لا أحد سيبكيني ويندب علي أو يودعني حين حرق جثتي. فليس لدي اسم خاص بي، وحين وفاتي لن يعرفوا من مات.

كثيراً ما أفكر هذه الأيام في ذلك الكلب الذي امتلكتُهُ؛ كلب صغير نحيل كَبُر فيما بعد ليصبح كبيراً وقوياً. واعتادوا أن يسموه دومي أيضاً. علمت أنهم كانوا يشتمونه حينما أطلقوا عليه اسم دومي **(غبي)**. لم أدعُه مثلهم، بل أسميته **(يا هذا)**.

في تلك الأيام، لم تكن الشوارع بالاتساع الذي هي عليه الآن، ولم تكن المنازل شاهقة. كان السيد تشين يقف في مدخل الصيدلية، إذ لا يزال شعره أسودَ حينئذ. حتى باغنو تشو أسان كان شاباً في تلك الأيام، ولم يتزوج بعد. كان يقول: "رجل مثلي، في العشرينيات من عمره...".

غير أن والدي مات، وكنت أُوصل الفحم بمفردي طيلة سنوات في ذلك الوقت. حينما كنت أسير على طول الشارع، غالباً ما أرى ذلك الكلب الصغير جداً والنحيف، فاتحاً فمه، ولسانه متدلٍّ، ويلعق هذا وذاك، ويبوّل في كل مكان. لقد رأيته كثيراً، لذلك حينما رفعه باغنو تشو أسان أراني إياه في

ذلك الوقت، تعرّفته على الفور. أوقفني تشو أسان في الشارع، إذ كان مع عدد قليل من الأشخاص الآخرين يقفون خارج منزله، فقال تشو أسان: "يا هذا، هل تريد أن تتزوج؟"

وقفت في الجانب الآخر من الشارع وشاهدتهم يضحكون، وضحكت على نفسي. قالوا: "دومي يريد امرأة". وابتسم.

"هل تريد الزواج أم لا؟" سأل شو أسان.

"لِمَ؟" أجبت.

"لِمَ؟! من أجل أن تعيشا معاً... وتناما معاً، وتتناولا وجبات الطعام معاً... هل ترغب في ذلك أم لا؟"

أومأت بنعم. حينئذٍ، أحضروا الكلب. التقطه تشو أسان من مؤخرة عنقه ودفعه نحوي. كانت أرجله الأربع تتدافع وينبح بجنون. قال: "يا هذا، أسرع وخذه، إنه لك".

وقفوا هناك وهم يضحكون: "تعال يا غبي! تعال والتقط رفيقتك".

هززت رأسي. "هذه ليست امرأة."

صرخ تشو أسان في وجهي: "إذا لم تكن امرأة، فما هي؟"

قلت: "إنه كلب، إنه جرو".

قهقهوا بشدّة: "هذا الغبي يعرف شيئاً عن الكلاب... إنه يعرف عن الجراء".

حدق تشو أسان في وجهي: "هراء، هذه أنثى، انظر هنا..."

رفع تشو أسان رجلي الكلب الخلفيتين وأبعد إحداهما عن الأخرى ليريني.

"هل ألقيت نظرة جيدة؟" سأل.

أومأت بنعم. فقال: "أنثى، أليس كذلك؟"

هززت رأسي مرة أخرى. قلت: "إنها ليست امرأة. إنها كلبة".

انغمسوا في نوبة من الضحك، وضحك تشو أسان بشدة إلى درجة أنه اضطر إلى جلوس القرفصاء. كانت الرجلان الخلفيتان للكلب لا تزال مثبتتين بين يديه، ونبح بشدة حينما احتك رأسه بالأرض. لقد وقفت مكاني وابتسامة في وجهي. بعد لحظة، وقف تشو أسان مرة أخرى، وأشار إليّ، وقال للآخرين: "استطاع أن يقول إن هذا الكلب كلبة". ثم جلس القرفصاء وضحك بصوت عالٍ يشبه أزيز حشرة الزيز. مجرد أن خفف قبضته، انطلق الكلب.

من ذلك اليوم فصاعداً، كلما رآني تشو أسان والآخرون، قالوا، "يا هذا، صديقتك... يا هذا، سقطت صديقتك في البالوعة... يا هذا، صديقتك بوّلت... يا هذا، سرقت صديقتك قطعة لحم من منزلي... يا هذا، يبدو أن صديقتك حامل..."

كانوا يضحكون مطوّلاً دون توقف. حينما رأيت أنهم يستمتعون بوقتهم، ضحكت معهم. علمت أنهم يتحدثون عن الكلب. كانوا يتطلعون إلى اليوم الذي سآخذ فيه هذه الكلبة إلى منزلي وكأنها امرأة وأقضي حياتي معها.

يوماً بعد يوم كانوا يتحدثون بهذه الطريقة، وفي كل مرة نظروا فيها إليّ، يضحكون ويسخرون. لذلك في المرة الثانية التي رأيت فيها الكلب،

شعرت بنوع من المرح. كان الكلب صغيراً ونحيفاً كحاله دائماً، ولسانه يتدلى دائماً ويلعق هذا وذاك في الشارع. كنت أمشي مع حمولتي المعلقة على ظهري، وحينما اقتربت مني لم أستطع إلّا التوقف والنظر. ذات يوم، ناديتها بهدوء، وقلت: "يا هذا".

حينما سمعتني، نبحت، لذلك عرضت عليها نصف كعكة متبقية من الغداء. أمسكت الكعكة بين أسنانها وركضت.

بعد أن أطعمتها نصف كعكة، صارت تتذكرني، وكل مرة تراني فيها كانت تنبح لأعطيها كعكة. وبعد حدوث ذلك مرات عدّة، تذكرت أن أحشو جيبي أشياء تأكل، حتى أتمكن من إسعادها حينما التقيها في الشارع. وما إن تراني أضع يدي في جيبي، تعرف ما سيأتي وترفع ساقيها الأماميتين وتنبح وتقفز علي.

لاحقاً، رافقني الكلب كل يوم. كنت أمشي في المقدمة وأنا أحمل حمولتي، التي تهرهر في الخلف. في نهاية مبنى نظرت إلى الوراء فظهرت خلفي، تنبح وتهزّ ذيلها. وبعد أن أقطع مبنى آخر، لا أرى أي علامة لمعرفة مكانها، ولا أعرف إلى أين ذهبت. كنت أنتظر بعض الوقت، وفجأة تظهر وتبدأ في متابعتي مرة أخرى. في بعض الأحيان كانت تهرب ولا تعود إلا بعد حلول الظلام. حين أكون في سريري بالفعل، تعود إلى الوراء، وتجلس خارج باب منزلي وتنبح. ينبغي لي أن أفتح الباب وأظهر نفسي، وبعد ذلك ستتوقف عن النباح، وتهزّ ذيلها، وتبتعد مرة أخرى.

حين أسير على طول الشارع والكلب خلفي، كان باغنو تشو أسان والآخرون يضحكون. "يا هذا، أنت في نزهة مع زوجتك، أليس كذلك؟"

وسيقولون. "يا هذا، هل كلاكما ذاهبان إلى المنزل الآن؟ هيه، حينما تكونان في السرير معاً، من يحتضن من؟"

كنت أقول لهم: "نحن لا نقضي الليل معاً".

"هراء"، قال تشو أسان. "الزوج والزوجة دائماً معاً في الليل".

قلت: "لسنا كذلك".

- "أنت غبي. هذا هو بيت القصيد من كونكما زوجين".

عمل تشو أسان حركة كأنه يطفئ الضوء وقال: "أَطفئ النور! وحينما ينطفئ الضوء، عندئذ تبدأ المتعة".

أراد باغنو تشو أسان والآخرون أن ننام أنا والكلب معاً في الليل، وفكرت في ذلك، لكن الأمر لم ينجح قط. ما إن يحل الظلام، يخرج الكلب ولا أعرف إلى أين يذهب. كان يعود في الفجر، ويخدش الباب، وينتظرني حتى أفتحه.

غير أننا سنكون معاً في أثناء النهار، أحمل الفحم وهي تمشي إلى جانبي. كانت تتجول في أنحاء الحي جميعها حينما أقوم بالتوصيل، ولمّا أخرج، سرعان ما تلحق بي.

بعد أيام قليلة، نما الكلب وأصبح أكثر استدارة وسمّنة، وعلا ارتفاعه أيضاً. حينما تركض إلى جانبي، رأيت بطنها تتأرجح ذهاباً وإياباً. لاحظ تشو أسان والآخرون هذا أيضاً. "هذه الكلبة، انظروا إلى هذه الكلبة الصغيرة الممتلئة." يقولون.

في أحد الأيام أوقفوني في الشارع وأظهر تشو أسان وجهاً مكفهرّاً: "يا هذا، لماذا لم نحصل على الحلوى بعد؟" سأل.

نبح الكلب حينما سدّوا طريقي، وأشاروا إلى المحل المقابل للشارع. قالوا: "هل ترى ذلك المحل؟". "الجرة الزجاجية على المنضدة، تلك التي بها كل الحلوى؟ ترى ذلك؟ اذهب."

- "لِمَ؟"

قالوا: "لشراء الحلوى".

- "لماذا أشتري الحلوى؟"

- "لنا، كي نأكل".

قال تشو أسان: "اللعنة، لم تعطنا حلوى الزفاف بعد! حلوى الزفاف! ألا تفهمها؟ نحن من خطبها لك، أليس كذلك؟"

هكذا يقولون، وضعوا أيديهم في جيبيّ وتلمّسوها من أجل أخذ بعض النقود. أدى هذا إلى إثارة غضب الكلبة؛ كانت تهمهم وتندفع إلى الأمام. حينئذ، ركلها تشو أسان ، فركضت بضع خطوات إلى الخلف، نبحت مبتعدةً، وحينما اقترب منها خطوتين، هربت مطلقةً ساقيها للريح. لقد وجدوا بعض النقود في جيب الصدر، وأخذوا ورقتين من فئة العشرين فين (من العملات الصينية)، وأعادوا الباقي. رفعوا نقودي عالياً، واحتشدوا في المتجر المقابل. ركضت الكلبة عائدةً حالما رحلوا، وابتعدت ثانية ما إن خرجوا. وضع تشو أسان والآخرون القليل من الحلوى في يدي، وقالوا: "هذا للزوجين السعيدين".

ذهبوا وهم يضحكون ويمضغون الحلوى. بحلول ذلك الوقت، كان قد حلَّ الظلام تقريباً، وتوجّهتُ إلى المنزل ممسكاً بالحلوى التي قدموها لي. ركضت الكلبة جيئةً وذهاباً، ومرة أمامي ومرة خلفي، وهي تنبح بجنون وتحدث كثيراً من الضوضاء. نبحت طوال الطريق إلى المنزل، ولم تتوقف حتى وصلنا إلى الباب. وقفت مكانها ولا تبدو أنها تريد المغادرة، رفعت رأسها، ونظرت إليّ. قلت: "يا هذا، توقف عن هذا النباح"، لكنها استمرت. "لماذا لا تدخلين؟" سألت.

لم تتحرك واستمرت في العواء. إنما حينما لوّحت بيدي، أوقفت ضجيجها كله وهرولت إلى الداخل.

منذ ذلك الحين، عاش الكلب في منزلي. ذهبت وأحضرت كومة من القش، ووضعتها في زاوية الغرفة: كان ذلك سريره. فكرت في الأمر في ذلك المساء، وشعرت أن انتقال كلب إلى منزلٍ كان حقاً أشبه بوجود زوجة. في المستقبل سيكون لدي رفيقة، كما قال السيد تشين. اعتاد أن يقول "الزواج، هو أن تعثر على رفيق".

قلت: "يقولون إننا زوج وزوجة، لكن الرجل والكلبة لا يمكن أن يكونا زوجاً وزوجة. أكثر ما يمكن أن يكونا رفيقين".

جلست على فرشة القش إلى جانب كلبي. نبحت مرتين. ابتسمت وضحكت، ولدى سماعها ضحكي نبحت أكثر من ذلك بقليل. ابتسمت وضحكت مرة أخرى، ونبحت مرة أخرى. لذا استمرينا في هذا المنوال مدّةً من الوقت، أضحك، وهي تنبح، حتى تذكرت أنه لا يزال لدي حلوى في جيبي، لذا أخرجتها وقشرتها: "هذه حلوى، حلوى الزفاف، هذا ما قالوه..."

حينما سمعت نفسي أقول إنها حلوى الزفاف، لم يسعني إلا الابتسام. لقد نزعت أغلفة عدّة عن الحلوى، ووضعت واحدة في فم الكلب وأخرى في فمي. "كيف طعمها؟" سألتها.

كان بإمكاني سماع صوت مضغها الصاخب، وكذلك صوت مضغ قطعتي، حتى إنها بصوت أعلى. واستمرينا بالمضغ وضحكت. ما إن فعلت ذلك، بدأ النباح مرة أخرى.

مرَّ عامان ونحن معاً، ذهب الكلب معي إلى كل مكان. حينما أرفع حمولتي إلى كتفي، كان يركض إلى الأمام وينبح، وحينما تفرغ سلّتي، يهرول من فوره خطوة أو خطوتين إلى الخلف. حين رؤيتنا معاً، كان الناس في المدينة يضحكون. ويشيرون ويقولون: "يا هذا، هل أنتما زوج وزوجة؟"

أجبت: "إمم". مشيت قدماً ورأسي إلى أسفل.

"يا هذا، هل أنت كلب؟"

حينما أجبت "إمم"، بدؤُوا بالصراخ: "يا غبي! كلب مغفل! يا هذا، يا وجه الكلب! يا هذا، هل تضاجع الكلب! أم الكلب هو يضاجعك؟ يا هذا، متى ستكون أباً لكلب؟"

أجبت فقط "إمم" إلى كل ما قالوه. "أنت رجل، أليس كذلك؟" سأل السيد تشين. "ما كل هذا عن كونك أنت والكلب زوجاً وزوجة؟"

هززت رأسي. قلت: "لا يمكن أن يكون الرجل والكلب زوجاً وزوجة".

أجاب السيد تشين: "ما دمت متأكداً بشأن ذلك. في المستقبل، إذا ناداك أي شخص بهذا الاسم، فلا ترد (إمم، إمم).

أومأت. وأجبت "إمم".

قال: "لا تستمر في الكلام، فقط تذكر ما قلته لك".

أومأت برأسي وأجبت "إمم" مرة أخرى. لوّح لي لأبتعد قائلاً: "حسناً، حسناً، اذهب".

انطلقت وأنا أحمل حمولتي، وراح الكلب يتنقل أمامي. يبدو أنه يكتسب قليلاً من الوزن كل يوم. سرعان ما نما وأصبح كبيراً وقوياً، وبدأ في تكوين الأفكار. في بعض الأحيان لا أراه طوال اليوم في كل مرة، ولا أعرف إلى أين ذهب. لن يعود إلا بعد حلول الظلام. سوف يخربش على الباب، وسأفتح، وسينزلق ويستلقي فوق فرشة القش في الزاوية. كان يضع رأسه على الأرض وينظر إليّ من زاويتي عينيه، وأقول لها: "أول أمس، حينما وصلت إلى محل الأرز، استدرت وذهبت، وبالأمس حينما وصلت إلى متجر الأثاث، استدرت وذهبت، واليوم حينما وصلت إلى الصيدلية، أدرت رأسك وذهبت..."

قبل أن أنتهي من الكلام، كانت عينا الكلب مغلقتين. فكرت أن أغمض عيني أيضاً...

مع ازدياد نمو كلبي وارتفاعه، أصبح لطيفاً وممتلئاً، وحينما رآني باغنو تشو أسان والآخرون قالوا، "يا هذا، يا غبي، متى سنذبح الكلب؟"

يسيل لعابهم من أفواههم ويقولون: "حين تتساقط الثلوج، سنذبحها ونضيف الماء وصلصة الصويا والقرفة والتوابل الخمسة... نطهوها ببطء يوماً كاملاً. سيكون طعمها جيداً للغاية".

حينما علمت أنهم يريدون التهام كلبي، التقطت حمولتي بسرعة وذهبت في طريقي، وكان الكلب يجري بجانبي. تذكرت ما قالوه، كيف سيأكلون كلبي حينما يتساقط الثلج. "متى ستثلج؟" سألت السيد تشين.

قال السيد تشين: "بعد مدّة طويلة من الآن. ما زلت ترتدي قميصاً، وعليك الانتظار حتى ترتدي سترة مبطنة".

لمّا قال السيد تشين ذلك، لم أشعر بالقلق الشديد. ولكن ما حدث كان قبل أن أبدأ في ارتداء سترة مبطنة، قبل أن يأتي الثلج، فقد أراد باغنو تشو أسان والآخرون أكل كلبي بالفعل. لقد أتوا بعظمة وخدعوه وقادوه إلى منزل تشو أسان، ثم أغلقوا الباب والنوافذ وبدؤوا في ضرب كلبي بالعصي، في محاولة لقتله، كي يتمكنوا من شوائه على الموقد مدة يوم.

عرف كلبي أنهم يريدون قتله وأكله، لذلك اختبأ تحت سرير تشو أسان ولم يخرج. قام تشو أسان والآخرون بوكزه بعصيهم، فنبح بصوت عالٍ سمعته حينما كنت أقوم بجولاتي.

في ذلك الصباح نظرت من فوق كتفي حينما وصلت إلى الجسر، ولم يكن الكلب في أي مكان أراه. بعد الظهر، سمعت صوت نباح غاضب بينما كنت أمشي بجوار منزل تشو أسان، لذلك وقفت إلى جانب الباب حين خرج تشو أسان والآخرون. قالوا: "يا هذا، يا غبي، كنا على وشك البحث عنك. يا هذا، يا غبي، أسرع وأخبر كلبك أن يخرج."

دفعوا حبلاً ملفوفاً إلى يدي. قالوا: "ضع هذا حول رقبة الكلب واخنقه".

هززت رأسي ودفعت الحبل بعيداً. قلت: "لم يتساقط الثلج بعد".

"ماذا يقول الأحمق؟" سأل بعضهم بعضاً.

"يقول إنه لم يتساقط الثلج بعد".

"ماذا يقصد أنه لم يتساقط الثلج بعد؟"

قالوا: "لا فكرة لدينا. أتعلم ذلك، لا بدّ أنك أحمق أيضاً".

كان بإمكاني سماع نباح الكلب في الداخل، فثمة أشخاص يكزونه بالعصي. ربت تشو أسان على كتفي. "يا هذا، يا صديقي، أسرع وأخبر الكلب أن يخرج".

جروني إلى مكان الكلب. سألت: "من تدعو يا صديقي؟" قالوا: "اترك التفاهات... خذ هذا الحبل... واشنق الكلب... ألن تنفذ؟ من الأفضل لك أن تفعل، أو سأشنقك بعد ذلك".

سد تشو أسان طريقهم قائلاً: "إنه رقيق. لا فائدة من محاولة إخافته، فهو لن يفهم. نحن في حاجة إلى خداعه..."

أجابوا: "خداعه لن ينجح. ما زال لا يفهم."

رأيت السيد تشين يمشي. كانت يداه في جيوبه ويمشي ببطء خطوة خطوة.

قالوا: "دعونا فقط نفك السرير. عندئذ لن يكون للكلب مكان للاختباء".

قال تشو أسان: "لا يمكننا تفكيك السرير. الكلب في حالة ذعر بالفعل. وإذا شعر بمزيد من التهديد، فسوف يعض".

قالوا لي: "أيها الكلب، أيها الكلب الحقير.... نعم، أنت الذي نتحدث إليه. لماذا لا تسرع وتجيب؟"

ثنيت رأسي وأجبت "مم" عدة مرات. تحدث السيد تشين إلى واحد جانباً، فقال: "إذا كنت تريد منه المساعدة، فعليك مناداته باسمه الحقيقي. إذا واصلت استخدام الكلمات البذيئة وشتمه، فلن يساعدك أبداً. أنت تقول إنه أحمق، لكنه ليس دائماً أحمق".

قال تشو أسان: "أنت محق، فلنسمِّه باسمه الحقيقي. من يعرف اسمه الحقيقي؟ ماذا يدعى؟ ما هو اسم هذا الأحمق؟"

"هل تعرف، يا سيد تشين؟" سألوا.

قال: "بالطبع أنا أعلم".

تشو أسان والآخرون أحاطوا به. "سيد تشين، ما هو اسم هذا الأحمق؟ " سألوا.

"اسمه ليفا".

حينما سمعت ذلك، خفق قلبي. جاء تشو أسان إلي ووضع ذراعه على كتفي. قال: "ليفا".

بدأ قلبي يخفق. مشى تشو أسان، وذراعه تحوطني، متجهاً بي نحو منزله. "ليفا، نحن صديقان قديمان... يا ليفا، اذهب وأخبر كلبك أن يخرج... يا ليفا، كل ما عليك فعله هو المشي إلى السرير... يا ليفا، فقط نادِها بلطف الآن... يا ليفا، فقط قل (يا هذا)... يا ليفا، أنا أعتمد عليك".

ذهبت إلى غرفة نوم تشو أسان، وجلست القرفصاء، ورأيت كلبي مستلقياً تحت السرير. وشاهدت ثمة دماء في كل مكان. ناديتها برفق. "يا هذا".

ما إن سمعت صوتي، انطلقت وألقت كفوفها عليّ، ونطحتني برأسها وصدرها، فأصبح وجهي ملطخاً بالدماء. لقد أحدثت ضجة كبيرة، ضجيجاً لم أسمع مثله من قبل، وأزعجني كثيراً. مدت يدها لأعانقها، وما إن أمسكت بها بالقرب مني حتى وضعوا الحبل حول رقبتها بشدّة وجرّوها من ذراعيّ. قبل أن أدرك ذلك، كانت يدي التي عانقت الكلب فارغة. سمعت أنه يعطي القليل من اللحمة، فقط القليل من اللحمة، هذا كل شيء، ورأيت كفوفها الأربع تخربش على الأرض قليلاً، ثم لم تتحرك بعد الآن. "لم يتساقط الثلج بعد**!**" قلت وهم يسحبونها بعيداً.

نظروا إلي وضحكوا.

في ذلك المساء جلست وحدي على فرشة القش حيث كان الكلب ينام. فكرت في كل شيء. كنت أعلم أن كلبي مات، وأعلم أنهم سكبوا الماء وصلصة الصويا والقرفة والتوابل الخمسة عليه، والآن يقومون بطهيها على النار مدة يوم وغداً سيأكلونها.

فكرت في هذا مدّة طويلة. علمت أن موت الكلب بسبب غلطتي. خُنقت لأنني أخرجتها من تحت سرير تشو أسان. خفق قلبي حينما نادوني **(**ليفا**)**، وكان هذا كل ما يتطلبه الأمر لجعلي فاعلاً ما قالوه. هززت رأسي عندما تذكرت ذلك، وبقيت أهزّه وقتاً طويلاً. قلت لنفسي**:** "في المرة القادمة حين يناديني أحدهم باسم "ليفا"، لن أرد عليه.

صبيٌ في الشفق

في منتصف يوم خريفيّ، جلس صن فو إلى جانب منضدة الفاكهة، وعيناه تتنقلان في ضوء الشمس الساطعة. انحنى إلى الأمام، ويده على ركبتيه، وبدا لون شعره الأشيب رمادياً في ضوء الشمس، يشبه لون الطريق الرماديّ الذي امتد أمامه، طريق واسع ممتد من مسافة بعيدة ويتابع امتداده في الاتجاه الآخر. لقد شغل صن فو هذا المكان مدة ثلاث سنوات حتى الآن، ويبيع الفاكهة قريباً من محطة توقف حافلات المسافات الطويلة. حينما مرت سيارة، غطته بالغبار الذي أحدثه مرورها، وأغرقته في ظلام بقي فيه لحظة قبل أن يُرى هو وفاكهته مرة أخرى، ويظهر كبزوغ فجر جديد.

بعد أن مرّت سحابة الغبار، رأى ولداً صغيراً يرتدي ملابس قذرة أمام الكشك، يراقبه بعينين داكنتين برّاقتين. وحينما بادله النظرة، همَّ الصبي ليضع يده ذات الأظافر السوداء الطويلة على الفاكهة. حينما رأى أظافره تمسّ تفاحة حمراء لامعة، رفع صن فو يده ليبعده، كما لو كان يكشّ بها ذبابة، وقال له: "انصرف".

سحب الصبي يده القذرة وتمايل قليلاً وهو يتحرك، وتدلّت ذراعاه إلى جانبيه. وبدا رأسه كبير الحجم مقارنة مع جسمه النحيل.

في هذه الأثناء، اقترب آخرون من طاولة الفاكهة، واستدار صن فو ليراقب. توقف الناس إلى الجانب الآخر من الكشك وألقوا عليه نظرة وسألوه: "كم ثمن التفاح؟" "كم ثمن الموز؟"

وقف صن فو، ووزن التفاح والموز على الميزان القبّاني، ودفعوا له ثمنها. ثم جلس ووضع يديه على ركبتيه. عاد الصبي. هذه المرة لم يكن يقف أمامه مباشرة، إنما إلى أحد جانبيه، يثبّت عينيه المتوهجتين إلى التفاح والموز، في حين كان صن فو يراقبه بالقدر نفسه من الاهتمام. بعد التحديق في الفاكهة مدّة، نظر الصبي إلى صن فو، وقال: "أنا جائع".

كان صن فو صامتاً. كرر الصبي: "أنا جائع". وقد تسللت نبرة ملحّة في صوته.

عبس صن فو: "انصرف".

بدا أن جسد الصبي يرتجف. قال صن فو مرة أخرى بصوت عالٍ: "انصرف".

تحرك الصبي على نحو مفاجئ وسريع، فتأرجح جسده متمايلاً قبل أن تبدأ رجلاه في التحرك. أشاح صن فو نظره عن الصبي، ووجه انتباهه إلى الطريق السريع. توقفت حافلة مسافات طويلة إلى الجانب الآخر من الطريق، ووقف الأشخاص داخلها. وعبر نوافذ الحافلة، رأى رتلاً من الأكتاف تتزاحم نحو الأبواب. بعد لحظة، تدفق الركاب من طرفي الحافلة. ثم، من زاوية عينه، رأى صن فو الصبي يندفع بأسرع ما يمكن أن تحمله ساقاه، فتساءل لماذا! ثم رأى الصبي يحرك يده، ويمسك بها شيئاً ما، شيئاً ما مستديراً. الآن أدرك ما فعل. قفز منتصباً على قدميه وانطلق في مطاردته. "أوقفوا اللص!" صرخ. "أوقفوا ذلك اللص هناك."

إنه وقت العصر الآن. علا الغبار حين فرّ الصبي على طول الطريق السريع. سمع صراخاً فنظر خلفه، ورأى صن فو يطارده مطاردة حثيثة.

تعثّر يائساً، وهو يلهث لالتقاط أنفاسه، وحينما بدأت ساقاه تضعف، عرف أنه لم يعد لديه موفور من الطاقة. نظر إلى الوراء مرة ثانية، ورأى صن فو لا يزال يلاحقه، وهو يصرخ ويلوح بذراعيه بشراسة. ذهب كل أمل لديه، فتوقف الصبي واستدار، وهو يلهث بشدة. راقب حتى أصبح صن فو قريباً من أعلى رأسه ثم رفع التفاحة إلى فمه وتناول قضمة كبيرة منها.

أرجح صن فو ذراعه وضرب الصبي، فلكمت يده التفاحة، وطرقت بقوة بذقن الصبي حتى انهار على الأرض. كان الصبي يحمي رأسه بيديه، ويمضغ بقوة طوال الوقت. غضب صن فو، أمسك الصبي من ياقته وشدَّ عليها. ضاق بلعوم الصبي للغاية بسبب تضيق ياقته حتى استحال عليه المضغ. جحظت عيناه وتورمت وجنتاه، ولا يزال بعض قطع التفاحة داخل فمه. أمسك صن فو الياقة بيد واحدة، وضغط على رقبة الصبي باليد الأخرى. "أبصقها، أبصقها!" صرخ.

تجمّع حشد من الناس فقال لهم صن فو: "لا يزال يحاول أكلها! لقد سرق تفاحتي، وتناول منها قضمة، والآن يحاول ابتلاعها!"

صفعه صن فو بقوة على وجهه: "هيا، ابصقها".

لكن الصبي ببساطة شد فمه بقوة أكبر. طوّق صن فو يده على بلعوم الصبي، وبدأ في خنقه مرة أخرى. "ابصقها، ابصقها!" صرخ.

لما فُتِح فم الصبي، استطاع صن فو رؤية قطع التفاح الممضوغة داخلاً. شدّ قبضته على بلعوم الصبي، حتى انتفخت عينيه. قال أحدهم: "صن فو، انظر، تخرج مقلتا عينيه من رأسه. سوف تخنقه".

قال صن فو: "استحقّ ذلك. إنه يستحق ذلك إذا اختنق".

أخيراً، خفف قبضته. قال مشيراً إلى السماء: "إذا كان ثمة شيء أكرهه، فهو اللص. ابصقها ابصقها!"

بدأ الصبي في بصق التفاحة قطعة قطعة. كانت الطريقة التي كان يبصق بها قطعاً صغيرة على مقدمة قميصه أشبه بعصر معجون أسنان من أنبوبة. بعد أن أغلق فمه، فتحه صن فو مرة أخرى بيده، وانحنى لينظر داخله. قال: "أنت لم تبصق كل شيء. لا يزال بقية منها".

بصق الصبي مرة أخرى _اللعاب كله عملياً هذه المرة، ولكن مع بضع فتات من التفاح هنا وهناك. بصق الولد وبصق حتى النهاية إذ لم يعد في فمه سوى صوت ضوضاء جافة، ولم يعد ثمة لعاب. قال صن فو: "هذا سيفي بالغرض".

رأى العديد من الوجوه المألوفة بين الناس الذين تجمعوا للمشاهدة. قال: "في الأيام الخوالي لم نغلق أبوابنا مطلقاً، أليس كذلك؟ لم تكن أي أسرة في البلدة كلها تغلق أبوابها، أليس كذلك؟"

رأى الناس يهزون برؤوسهم، وتابع: "أما الآن، بعد أن تقفل الباب بقفل واحد، عليك أن تستخدم قفلاً آخر أيضاً. لماذا؟ بسبب لصوص مثل هذا. إذا كان ثمة شيء أكرهه، فهو اللص".

نظر صن فو إلى الفتى ذي الوجه المتسخ، الذي كان يشاهد مفتوناً، كما لو كان مفتوناً بما كان يقوله. أثار تعبير الصبي الحماس فيه. قال: "إذا اتبعنا الطرائق القديمة، فينبغي لنا قطع إحدى يديه، أي قطع اليد التي سرقت..."

نظر صن فو إلى الصبي. "أي يد كانت؟" صرخ.

ارتجف الصبي ووضع يده اليمنى خلف ظهره على عجل. أمسك صن فو يد الصبي وأظهرها للجميع: "هذه هي اليد التي سرقت، وإلّا لماذا حاول إخفاءها بهذه السرعة؟"

"ليست هذه اليد!" بكى الصبي.

"إذاً، هذه اليد." أمسك صن فو بيد الصبي اليسرى.

"لا، ليست هي!"

حين قال هذا، حاول الصبي سحب يده. صفعه صن فو على وجهه صفعة جعلته يترنح. وبعد صفعة ثانية، وقف الصبي. أمسكه صن فو من شعره، وهو يهز رأسه. "أي يد كانت؟" صرخ محدقاً إلى وجهه.

اتسعت عينا الصبي حينما نظر إلى صن فو، وبعد لحظة مدّ يده اليمنى. أمسك صن فو بمعصم الصبي، وأمسك بيده الأخرى أصبع يد الصبي الأوسط. قال للمارة: "إذا اتبعنا الطرائق القديمة، يجب أن نكسر هذه اليد. لا يمكننا فعل ذلك هذه الأيام. الآن، نؤكد التعليم. وكيف نعلّم؟"

نظر صن فو إلى الصبي. "هذه هي الطريقة التي نتعلم بها."

ضغط بقوة بكلتا يديه. حدث ثمة صدع مفاجئ حيث كسر أصبع الصبي الأوسط. صرخ الولد صرخة حادة كالسكين. نظر إلى أسفل، ورأى التفاف أصبعه المكسور على ظهر يده، فسقط على الأرض في حالة صدمة.

قال صن فو: "هذه هي الطريقة للتعامل مع اللصوص. إذا لم تكسر أحد أذرعهم، فأنت في حاجة على الأقل إلى كسر أصبع".

قال هذا، وانحنى صن فو وأوقف الصبي على قدميه. لاحظ أن عيني الصبي كانتا مغلقتين من الألم. "افتح عينيك!" صرخ. "هيا، افتحهما."

فتح الصبي عينيه، لكنه كان لا يزال يتألم وفمه ملتوٍ على نحو غريب. ركله صن فو في رجليه. "تحرّك!"

أمسكه صن فو من ياقته، وبقي يدفعه على طول الشارع حتى وصلا أمام طاولة الفاكهة. بحث في صندوق كرتوني عن حبل وربطه بالكشك. قال للصبي حينما رأى الناس يراقبون: "اصرخ، اصرخ، أنا لص!"

نظر الصبي إلى صن فو. لما فشل في الامتثال لأوامره، أمسك صن فو يده اليسرى وقبض بإحكام على الإصبع الأوسط الأيسر. "أنا لص!" صرخ الصبي.

قال صن فو: "هذا ليس كافياً، اصرخ بصوت أعلى."

نظر الصبي إلى صن فو، ثم دفع رأسه إلى الأمام وصرخ بكل قوته، "أنا لص!"

رأى صن فو كيف تنفر الأوعية الدموية في رقبة الصبي. هز رأسه وقال: "هذا جيد. هذه هي الطريقة التي تحتاج إليها للصراخ."

كانت شمس الخريف، طوال مدّة الظهيرة، تغمر الصبي بالنور. قُيِّدَت يدا الصبي خلف ظهره ولُفَّ الحبل حول رقبته، لذلك كان من المستحيل عليه أن يخفض رأسه. لم يكن لديه خيار سوى الوقوف بثبات، وعيناه على الطريق السريع، وإلى جانبه الفاكهة التي كان يشتهيها، لكن مع تثبيت رقبته لم يستطع حتى إلقاء نظرة عليها من مكانه. لما يمر شخص

ما بجواره - أي أحد من المارة وتحت إصرار صن فو كان يصرخ الصبي: "أنا لص!".

جلس صن فو خلف طاولة الفاكهة على كرسيه، وهو يراقب الصبي برضا. لم يعد غاضباً جداً من فقدان تفاحة أخرى، وبدأ يشعر بالرضا عن العمل الجيد الذي قام به، لأنه أمسك سارق التفاح وعاقبه، ولم تنته العقوبة بعد. تأكد من أن الصبي يصرخ بأعلى صوته في كل مرة يمر فيها أحد ما. لقد لاحظ أن صرخات الصبي كانت تجذب حشداً مستمراً من الناس إلى كشك الفاكهة الخاص به.

نظر كثيرون بفضول إلى الصبي الذي يصرخ. لقد شعروا أنه من الغريب أن يصرخ الأسير المربوط بقوة (أنا لص). أخبرهم صن فو القصة، وشرح بلا كلل كيف سرق الصبي تفاحة، وكيف ألقى القبض عليه وعاقبه. وأضاف صن فو: "إن هذا لمصلحته".

وقد أوضح سبب تفكيره بذلك: "أريده أن يفهم أنه يجب ألّا يسرق مرة أخرى."

ثم استدار صن فو إلى الصبي وصرخ: "هل ستقدم على مزيدٍ من السرقات؟"

هز الصبي رأسه بشدة نافياً. ولأن رقبته كانت مشدودة جداً، فقد هزّ رأسه قليلاً، إنما بسرعة كبيرة.

"هل رأيتم ذلك؟" قال صن فو منتصراً.

طوال مدّة الظهيرة، صرخ الصبي وصرخ حتى جفت شفتيه وتشققتا في الشمس وأصبح صوته أجش. بحلول الغسق، لم يعد الصبي قادراً على

الصراخ بصوت عالٍ، وأمكنه إحداث صراخ جرش فقط، لكنه استمر في الصراخ، "أنا لص".

لم يعد بإمكان المارة معرفة ما كان يصرخ به، فقال صن فو: "إنه يصرخ (أنا لص)".

بعد ذلك، قام صن فو بفك الحبل. لقد حلَّ الظلام تقريباً الآن. نقل صن فو الفاكهة إلى عربته المسطحة، وحينما أنهى كل شيء على ما يرام، قام بفك قيود السجين. حين وضع صن فو الحبل الملفوف فوق العربة، سمع صوتاً خافتاً خلفه، فنظر حوله، ووجد الصبي قد انهار على الأرض. قال: "بعد هذا، أراهن أنك لن تجرؤ على السرقة مرة أخرى، أليس كذلك؟"

في أثناء حديثه، صعد صن فو الدرّاجة في مقدمة العربة، وانطلق على الطريق السريع الواسع، تاركاً الصبي ممدداً على الأرض، واهناً من الجوع والعطش، إذ انهار حين فكّ قيده. الآن بقي مستلقياً مكانه، وعيناه مفتوحتان قليلاً، كما لو كان ينظر إلى الطريق، أو كأنه لا ينظر إلى أي شيء على الإطلاق. استلقى بلا حراك بضع دقائق، ثم وقف ببطء على قدميه واستند إلى شجرة. أخيراً، بدأ في السير على الطريق باتجاه الغرب.

اتجه الصبي غرباً، وكان جسده الهزيل يتأرجح قليلاً في الشفق وهو يشق طريقه للخروج من المدينة خطوة خطوة. شهد بعض المارة رحيله، وعرفوا أنه اللص الذي أمسك به صن فو ذلك المساء، لكنهم لم يعرفوا اسمه أو من أين أتى، وأيضاً، لم تكن لديهم فكرة عن المكان الذي يتجه إليه. رأوا كيف أن أصبع يده اليمنى الأوسط متكئة على ظهر يده، وشاهدوه يمشي مبتعداً في الشفق ويختفي.

في ذلك المساء، كما هي العادة، ذهب صن فو إلى المتجر الصّغير المجاور لشراء نصف لتر من نبيذ الأرزّ، ثم طبخ لنفسه طبقين بسيطين، وجلس إلى طاولة الطعام المربّعة. في هذه الساعة من اليوم، غربت الشمس، وتخللت أشعتها النافذة، وبدت كأنها تدفئ الغرفة. جلس صن فو مكانه في الشفق، يحتسي نبيذه.

منذ سنوات عدّة، تقاسم هذه الغرفة مع امرأة جميلة وصبي يبلغ من العمر خمس سنوات. في تلك الأيام، كانت الغرفة تعج بالضجيج والنشاط باستمرار، ولم يكن ثمة نهاية للأمور التي يمكن أن يتحدث عنها الثلاثة معاً. في بعض الأحيان، كان يجلس داخلاً فحسب ويشاهد زوجته تشعل النار خارجاً في موقد الفحم، وكان ابنهما يلتصق بها مثل حلوى التوفي، يشدّ سترتها ويسألها أو يخبرها شيئاً بصوته الحاد قليلاً.

لاحقاً، في أحد أوقات الغداء في الصيف، ركض بعض الأولاد وهم يصرخون باسم صن فو. قالوا إن ابنه قد سقط في بركة ليست بعيدة. ركض صن فو مثل رجل ممسوس، وتبعته زوجته بعويل حاد. لم يمضِ وقت طويل حتى اتضح أنهما فقدا ابنهما إلى الأبد. في تلك الليلة جلسا معاً ينتحبان ويتأوهان في الظلام والحرارة الخانقة.

في وقت لاحق، بدآ في استعادة رباطة جأشهما، واستمرا في حياتهما كما كانا من قبل، وبهذه الطريقة مرت سنوات عدّة بسرعة. ثم، ذات شتاء، توقف حلاق متجول خارج منزلهما. خرجت زوجة صن فو، وجلست على الكرسي الذي وفّره لها الحلاق، وأغمضت عينيها في ضوء الشمس الساطعة، وتركت الحلاق يغسل شعرها ويقصه، وينظف أذنيها، ويدلك ذراعيها وكتفيها.

لم تشعر قط بالراحة في حياتها كما شعرتها في ذلك اليوم. بدا الأمر كما لو أن جسدها كله يذوب. بعد ذلك وضعت ملابسها في كيس وانتظرت حتى حلَّ الظلام، ثم رحلت وسلكت الطريق الذي سلكه الحلاق.

كان صن فو وحيداً في الوقت الحالي، واستخلص ماضيه في صورة باهتة بالأبيض والأسود معلقة على الحائط. كانت صورة عائلية، هو وزوجته ويتوسطهما ابنهما، ويرتدي قبعة قطنية ذات حجم كبير جداً. إلى اليسار، تبتسم زوجته ذات الضفائر بسعادة. كان صن فو إلى اليمين، ووجهه النضر مفعماً بالحياة.

لِمَ لا توجد موسيقا!

حينما يحين موعد تناول الغداء أو العشاء، يلتزم صديقي هورسي الروتين الآتي؛ إذ يقترب من الطاولة وفمه مفتوح قليلاً (على الرغم من وجود فرق كبير بين الفم المفتوح والابتسامة)، ثم يجلس ويخفض رأسه حتى يتوازى مع الطاولة، وبعد ذلك يبدأ في تناول الطعام. لا يصدر صوتاً وهو يمضغ، وينقل الطعام إلى فمه بوتيرة سريعة دون أن يرفع رأسه ولو مرة واحدة، ويحافظ على تلك العلاقة المتوازية طوال مدّة تناوله الطعام. وإذا حاولت التحدث معه، فسوف يرد عليك ورأسه إلى أسفل.

لهذا السبب وصفنا هورسي، حين يأكل، بالمتأنّق في تناول الطعام. يعدُّ تناول الطعام عملاً جاداً لديه؛ وللقيام بذلك، عليك ارتداء ملابس مناسبة، والجلوس إلى طاولة مناسبة، وتناول الطعام المغذي بالطريقة الصحيحة - بعبارة أخرى، ثمة أسلوب لذلك. إنما تناول الطعام لدينا، فهو مسألة عادية تماماً، فيمكنك تناول الطعام إلى طاولة أو تناوله في المدخل، أو يمكنك أخذ وعائك وتذهب لتتناوله عند الجار_ وهذا ما اعتدنا فعله غالباً حينما كنا صغاراً. في بعض الأحيان، كنا نأخذ الأطباق إلى المرحاض، ونأكل ونحن نتغوط.

أما في حالة هورسي، فلا يأكل أبداً بطريقة عادية إنما بطقوس خاصة دائماً. في الوقت الذي عرفته فيه للمرة الأولى - كنا في عمر العاشرة فحسب- بدأ بالفعل في طريقته الخاصة لتناول الطعام، إذ يأخذ الأمر على محمل الجد

مثل واجب منزلي. كان يخفض رأسه _حتى إنه في ذلك الوقت أبقى رأسه بالفعل على علاقة موازية مع الطاولة_ ويأكل بتأنٍ، وباهتمام شديد. حينما ينتهي، ستجد وعاءه نظيفاً كما لو أنه غسله، وستبدو الطاولة أمامه كما لو أنها مُسِحت بالفعل، وستكون عظام السمك ملقاة في طبقه على نحو أنيق كشكل السمكة بحد ذاتها.

هذا هو هورسي بالنظر لك. نحبّ أن نسير بسرعة على طول الشارع، كما لو كنا نلحق قطاراً دائماً، لكن هورسي لا يسير في عجلة من أمره، فهو دائماً يتجول، ويداه في جيوبه، وعيناه مثبتتان على نقطة أمامنا في المسير، ويمشي تقريباً بوتيرة هادئة ومريحة. هذا ما هو عليه، لا يتعجل أبداً بغض النظر عما يفعله، ودقيق أيضاً. حينما يتحدث، في سبيل المثال، ينطق كل كلمة بوضوح، وبصياغة متوازنة، ويعبر عن نفسه باهتمام.

لم ينخدع هورسي قطُّ بالفتيات. كان يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً لمّا التقى لو يوان، التي كانت في ذلك الوقت وجهاً مألوفاً لنا تماماً. كنا نتناول وجبة معاً حين دعينا لو يوان، وقد أحضرت معها شابتين أُخريَيْن. كنا خمسة رجال، واتخذنا تدابير ذهنية بما يخصهن، وهن، الفتيات الثلاث، اخترن عقلياً بيننا. لذلك جلسنا إلى الطاولة، نأكل ونثرثر ونمزح، كل واحد منا يبذل قصارى جهده لتقديم عرض جيد، يتسم الرجال بالبلاغة، وتتظاهر الفتيات ويتجمّلن.

وحده هورسي لم يقل شيئاً على الإطلاق، لأنه كان منخرطاً في تناول الطعام على نحو جاد، ورأسه موازٍ للطاولة، مع ابتسامة باهتة على وجهه وهو يستمع إلينا نتحدث ونمزح. في ذلك المساء، لم يقل أكثر من بضع جمل،

ولم يأكل كثيراً في الواقع، فقد أكل فقط نصف دزينة من الروبيان، وشرب معها كوباً من البيرة.

سرعان ما نسيناه. في البداية كنا نلقي عليه نظرة من وقت لآخر، إذ تذوق ببطء جرعة من البيرة، أو التقط جمبرياً بعصي الطعام ووضعه في فمه، وبعد لحظات يشدّ خديه ويمسك شفتيه، وفي هذه المرحلة توقفنا عن النظر إليه. ثم، بعد أن أهملناه إلى حد أننا نسينا أنه كان معنا، صرخت لو يوان فجأة مندهشة، وانتفخت عيناها، ووجهت أصبعها إلى طاولة هورسي. ثم لاحظنا صفاً من الروبيان، عددها خمسة، فيها كبير وصغير على حد سواء، مصطفّة أمامه. تتلألأت قشور الجمبري الشفافة في الضوء، إذ أعادها هورسي مرة أخرى إلى الطبق بعد أن استخرج اللحم داخلها بطريقة نظيفة. حين رؤية هذا، شهقت الفتاتان الأخريان بدهشة.

ثم التقط هورسي آخر جمبري على الطبق. امتدت ذراعه عبر الطاولة بارتفاع رأسه المنخفض نفسه، وحينما أمسك الروبيان بعودي الطعام، شدّ مرفقه بسرعة كماشة سرطان البحر ووضع الروبيان في فمه.

الآن رفع رأسه، ونظر إلينا بهدوء ونحن متفرجون دهشون. أغلق شفتيه، وانتفخ خدَّاه، وتلوى فمه مثل تلوي الأمعاء، وتحركت تفاحة آدم **(**حنجرته**)** متمددة صعوداً وهبوطاً. في النهاية، تقلص خدَّاه المنتفخان وارتفعت تفاحة آدم. بقي لحظة في هذا الوضع المرتفع وهو يبتلع، وثمة تعبير متحفظ وجليل على وجهه.

انزلقت تفاحة آدم وفتح فمه. ثم جاءت اللحظة التي أذهلتنا: لقد أخرج ما بدا أنه جمبري كامل وسليم، ولكن - وهذه هي النقطة الحاسمة -

لم يكن شيئاً بداخله. وضع هذا الروبيان السليم بلا لحم على المائدة، إلى جانب الصف الأنيق المكون من خمس قشريات أخرى -جوفاء على نحو متساوٍ- مرة أخرى، فتعجبت الفتيات الثلاث.

بعد ستة شهور فقط، أصبحت لو يوان زوجة هورسي. كما تزوجت الفتيات الأخريات في العشاء، من رجال لم نكن نعرفهم.

* * *

بعد زواجها من هورسي، فصلته لو يوان عنا. منذ ذلك الحين، حين نجلس ونتناول وجبة معاً، لم يعد ينضم إلينا المتحمس للطعام. بصراحة، لم نتمكن من تعود غيابه تماماً. لقد قدّرنا مدى تألق هذين الخطين المتوازيين في الجانب الآخر منا، رأس هورسي وسطح الطاولة؛ أي المسافة التي لا تتغير بين رأس هورسي وسطح الطاولة، تشبه المسافة بين مرسى السفن والشاطئ. في بعض الأحيان، حينما جلس هورسي إلى جانب النافذة وضوء الشمس يسطع من الخارج، لاحظنا أن رأس هورسي ينعكس توءمه على سطح الطاولة: ظلاً أسود، مسطحاً قليلاً في أطرافه، يتقلص ببطء إلى خطوط نحيفة مع تغير موقع الضوء. لم نشهد مثل هذا الرأس الطويل والنحيف، ولا حتى في الرسوم المتحركة. وذات مرة جلسنا في غرفة مضاءة على نحو خافت، وحين وقفت، اصطدمت بمصباح السقف المنخفض المعلق. عانيت من ألم حارق في الجزء العلوي من رأسي، وتأرجح المصباح نفسه بعنف إلى درجة تأرجح ظل رأس هورسي جيئة وذهاباً على الطاولة بحركة جنونية مدة دقيقتين تماماً، مؤدية في ذلك الوقت عملياً إلى اهتزاز رأس هورسي بطريقة يحتاج إلى القيام بها في أي وقت.

بعد زواج هورسي، كان غو بن هو الوحيد منا الذي ظل في اتصال به على نحو منتظم. في كثير من الأحيان، وفي وقت مبكر من المساء، يرتدي سترة واقية رمادية ويداه في جيوبها، ويسير من طرف إلى آخر في أطول شارع في المدينة ويصل باب شقة هورسي. ثم يلف أصابعه الطويلة ويطرق الباب.

أخبر غو بن أصدقاءه أن جوَّ منزل هورسي الجديد كان من إبداع لو يوان بالكامل. من غرفة النوم إلى غرفة المعيشة، إذ كانت الجدران مزدحمة بصور لقطات مقربة لـ لو يوان. التُقِطت الصورة الأولى حين كان عمرها شهراً واحداً فقط، ثم تتابع تاريخ الصور الأخرى لكل عام من السنوات اللاحقة، ليصبح المجموع الحالي ثلاثة وعشرين عاماً. يمكن للمرء أن يرى ابتسامة هورسي في ثلاثٍ فقط من الصور وإلى جانبه وجه لو يوان الأكثر سحراً-. قال غو بن: "ما لم تنظر بدقة، فلن تلاحظ وجود هورسي في الصور على الإطلاق".

أخبرنا غو بن أن الأثاث في منزل هورسي يحاكي سمة الأبيض، ومزين بألوان وردية. لون السجادة بيج وكذلك الجدران حتى ملابس هورسي لونها بيج - الملابس التي اشتراها بعد الزواج - أصبح لونها بيج كسمةٍ رئيسة. عزا غو بن كل هذا إلى أنه لون لو يوان المفضل وضمن توصياتها. "هل رأيتم هورسي يرتدي لون البيج من قبل؟" سأل غو بن.

"بالطبع لا." أجاب على سؤاله على الفور. وتابع: "في هذه الأوقات، بعد أن ظهر هورسي في ثياب لونها بيج، بدا أكثر ضخامة من ذي قبل، وشاحباً أيضاً".

قال غو بن إن شقة هورسي تشبه غرفة نوم فتاة، تعرض فيها أنواع التحف البسيطة جميعها: "من رفوف الكتب إلى الخزانات، وثمة حيوانات صغيرة في كل مكان؛ الفانيلا والزجاج والخيزران، سمّها ما شئت. حتى إن ثمة دبّاً أسودَ كبيراً من الفانيلا فوق السرير. ولكن فيما يتعلق بأشياء هورسي، فلن ترى كثيراً له سوى قلمه على الطاولة. فقط حينما تجف ملابسه على الشرفة، يكون لديك فرصة للعثور على أثر لممتلكاته في الشقة". ابتسم غو بن من فكرة الدب المحشو. "هل يمكن أن تجد هذا الأمر لدى امرأة متزوجة"، سألنا - وسأل نفسه أيضاً - "لا تزال لو يوان تعانق دبّها حينما تنام؟"

مع مرور الوقت، نَمت معرفة غو بن بشقة هورسي بشكل مطرد، وتفاخر أنه حتى لو تجول في الشقة مدة نصف ساعة وعيناه مغمضتان، بإمكانه تجنب أن يطرق ولو كرسياً واحداً. علاوة على ذلك، قال إنه يعرف كيفية توزيع الأغراض والأشياء التي يمكن العثور عليها في أي خزانة، وإذا شعر أي شخص بالفضول فبإمكانه تقديم قائمة جرد مفصلة له.

قال: "ثمة دُرج في طاولة سريرهما يحوي أوراق هوياتهما جميعها ودفاترهما المصرفية، إنه مغلق. يوجد تحت الدرج كومة من سراويل وحمالات لو يوان. وثمة جوارب وأوشحة أيضاً".

أما بالنظر للملابس الداخلية والجوارب والأوشحة الخاصة بهورسي، فلا يوجد أي مكان خاص محجوز لها، فقد حُشِرت كلها في درج واحد داخل خزانة مع باقي ثيابه الشتوية والصيفية، وثيابه الربيعية والخريفية. ذات مرة، رأى غو بن بنفسه الجهد الهائل الذي يبذله هورسي إذا أراد العثور بنفسه على مجرد قميص داخلي، كان الأمر كما لو أنه يبحث في كومة قمامة من

الملابس المهملة. أولاً، يدخل رأسه في خزانة الملابس، ثم كتفيه أيضاً، وفي النهاية يخرج مع زوج من الملابس الداخلية في يده. يلقى بهما جانباً، ثم يأخذ مجموعته الكاملة من الملابس بين ذراعيه ويلقى كل شيء على الأرض. يركع أمام هذا الجبل الصغير من الملابس، ويقضى نصف ساعة أخرى في البحث قبل أن يتمكن أخيراً من العثور على قميصه الداخلي.

أعطانا غو بن فكرة كي نفهم أنه الوحيد القادر على فهم العلاقات الدقيقة بين هورسي ولو يوان. "أنتم أيها الرفاق لا يمكنكم تخيل ما يجري بينهما". أعطى مثالاً لدعم ادعائه.

جلس غو بن على كرسي حين بدأ يروي لنا قصته. وقف، ومشى في دائرة صغيرة، ثم نظر إلى أصدقائه الثلاثة. قال إنه قبل يومين، كان يوشك أن يطرق باب شقة هورسي لما سمع صوت نحيب من الداخل - تنهيدات خافتة لكنها طويلة. شعر أنه يمكن أن تكون ناجمة عن حزن مؤلم. لذلك أنزل يده إلى جانبه ووقف خارج باب هورسي حتى هدأ النحيب، ولم يعد يسمعه. طوال هذا الوقت تساءل لماذا كانت لو يوان تبكي. ما الذي يمكن أن يجعلها حزينة جداً؟ هل كان هورسي يسيء معاملتها؟ لكنه لم يسمع صراخ هورسي في وجهها، في الواقع، لم يسمع أي حديث على الإطلاق.

بعد توقف النحيب، اعتقد غو بن أن لو يوان لا بد أن تكون قد جفت دموعها الآن، لذلك رفع يده مرة أخرى وطرق الباب. كان هورسي هو من فتح، وما أذهل غو بن أن عيني هورسي كانت مبتلة، بينما كانت لو يوان جالسة على نحو مريح على الأريكة وفي يدها جهاز التحكم عن بعد. حينئذ فقط أدرك أن الشخص الذي كان يبكي للتو لم تكن لو يوان، بل هورسي.

"هل فهمتم ما يجري؟" سأل غو بن بين أصدقائه، وابتسامة على شفتيه. ثم عاد إلى كرسيه وجلس مرتاحاً جداً.

في هذا اليوم المحدد، أي بعد ظهر يوم ٣٠ حزيران ١٩٩٦، توقف هورسي أمام شقة غو بن. وكانت زوجته، لو يوان، قد غادرت إلى شنغهاي في اليوم السابق، ولن تعود قبل أسبوع، لذلك فكر هورسي كونه وحيداً، في صديقه غو بن، لأن غو بن لديه مجموعة كبيرة من أشرطة الفيديو، وأراد استعارة جزءاً منها لمشاهدتها في المنزل وإحياء هذه الفترة من العزوبية القسرية.

كان غو بن يأخذ قيلولة، ومرتدياً سروالاً قصيراً فحسب، فتح الباب وتثاءَب طويلاً. "هل سافرت لو يوان بخير؟" سأل وعيناه منتفختان من النوم.

تفاجأ هورسي بعض الشيء، وتساءل كيف عرف غو بن أن لو يوان خارج المدينة. "كيف علمت أنها مسافرة؟" سأل.

فرك غو بن عينيه. "أخبرتني أنت أنها تخطط للذهاب في رحلة."

"متى كان ذلك؟" لم يتذكر هورسي هذا على الإطلاق.

"إذاً لا بد أن لو يوان أخبرتني."

حين قال غو بن هذا، ذهب إلى المرحاض وتبول، ولم يكلف نفسه عناء إغلاق الباب. جلس هورسي على الأريكة وشاهد غو بن وهو يتثاءب مرة أخرى، ويفرك عينيه مرة أخرى بيد واحدة، ويسحب سلسلة المرحاض باليد الأخرى. وسط ضجيج المياه المتدفقة، خرج غو بن من الحمام واتجه نحو الأريكة. تردد للحظة، ثم استدار واستلقى على سريره.

لاحظ هورسي وجود كاميرا فيديو في الزاوية إلى جانب الشرفة. "لمن هذه الكاميرا؟" سأل.

قال غو بن: "إنها لي. اشتريتها الشهر الماضي."

أومأ هورسي برأسه، قائلاً: "أود استعارة بعض أشرطة أفلام فيديو".

"ما نوعها، هل تريد أفلام مغامرات أم رومانسية؟"

فكر هورسي في هذا: "كلهيما".

قال غو بن: "احضرها بنفسك".

أخبر هورسي أن أفلام المغامرات كانت على الرفين الثالث والرابع وقصص الحب على الرف الخامس والجانب الأيمن من الرف السادس. فرك غو بن الصمغ عن عينيه وتثاءَب.

مشى هورسي إلى خزانة الكتب وفحص محتوياتها. أخرج شريطين أحدهما من الرف الثالث والآخر من الخامس. حينما استدار، بدا أن غو بن قد استغرق في النوم. تردد للحظة، ثم قال بهدوء: "أخذت شريطين فيديو".

فتح غو بن عينيه. أسند رأسه وأماله تجاه هورسي. قال هورسي: "عد إلى النوم. لقد انتهيت الآن".

ظهرت ابتسامة على وجه غو بن، ابتسامة من نوع غريب. "ما رأيك بفيلم مثير؟" سأل.

ابتسم هورسي أيضاً. قفز غو بن عن السرير، وركع على الأرض، وسحب كرتونةً من تحت السرير. عندما فتح الصندوق، رأى هورسي أنه

ممتلئ تقريباً بأشرطة فيديو. قال غو بن بفخر: "هنا كل الأفلام الإباحية". وسأل: "هل تريد أفلام خاصة بهونغ كونغ وتايوان؟ أم أجنبية؟"

"لا أعلم."

نهض غو بن. حينما رأى هورسي في حيرة من أمره ليعرف ماذا يختار، ربت على كتفه. قال: "اختر شريطاً واحداً فقط من أي شيء تحبه."

اختار هورسي شريطاً واحداً عشوائياً. في ذلك المساء، شاهد قصة حب دفعته إلى البكاء، ثم شاهد فيلم حركة مثيراً جعل شعر رأسه يقف. لقد ترك الفيلم الإباحي للنهاية.

أدخل هورسي الفيديو في جهاز مسجل الفيديو الدافئ وشغل الشريط وذهب إلى الحمام. بحلول الوقت الذي خرج فيه، بدأ عرض الشريط. رأى كتلة من رقاقات الثلج، وبعد لحظات قليلة ظهرت صورة على الشاشة: امرأة عارية مستلقية على ظهرها، ورأسها مدفون في وسادة وساقاها ملتصقتان معاً. تحركت ذراع الرجل إلى الجانب الأيسر من إطار الصورة؛ ظهر كتفاه ثم ظهره. مشى الرجل نحو السرير، ووضع يده على المرتبة ليثبّت نفسه، ثم صعد فوق السرير. فصل ساقي المرأة واستلقى فوقها.

سمع هورسي تأوهاً صغيراً حينما بدأ الرجل يتحرك ذهاباً وإياباً على جسد المرأة. صُدم من الطريقة التي ارتجف بها ردفي الرجل، كما لو كان يرتجف من البرد. سمع هورسي صوت الرجل يلهث، والمرأة أيضاً، ثم أنين مستمر من المرأة. في المشاهد اللاحقة لم يكن ثمة تغيير كبير، غير أن الجسدين الملتصقين أحدهما بالآخر على السرير تمايلا قليلاً؛ واستولت عليهما رعشة. استمر هذا المشهد الهادئ فترة أطول قليلاً، حتى سُمِع صوت

صراخهما. أصبح الجسدان الآن ملتصق أحدهما بالآخر، بلا حراك، كما لو كانا ميتين. بعد فترة وجيزة قام الرجل بتغيير وضعيته وفصل نفسه عن شريكته. أطلقت أنيناً طويلاً متقلبة. جثا الرجل على السرير وظهره أمام آلة التصوير. كان يفعل شيئاً ورأسه منخفضاً.

أدرك هورسي أن مهمتهما قد أنجزت، لكن... "لماذا لا يوجد موسيقا؟" تساءل.

اعتقد أن هذا غريب جداً: "هل يمكن ألّا تحتوي الأفلام الإباحية على موسيقا؟"

استلقى الرجل مرة أخرى جنباً إلى جنب مع المرأة، وقاطعا أقدامهما وسحب بطانية على جسديهما العاريين.

"كيف وجدت اتصالنا جسدياً؟" سمع هورسي الرجل يسأل.

أجابت المرأة: "رائع".

بعد لحظة من الصمت، سمع فجأة اسمه في الحديث: "أنا أفضل من هورسي، أليس صحيحاً؟"

"أوه، لا يوجد مقارنة."

حين تساءل هورسي عما إذا كان قد تخيل ذلك، سمع اسمه مرة أخرى. "كيف يبدو هورسي في السرير؟" سأل الرجل.

"يا لك من مزعج!" لكمته لكمة صغيرة. "ألم أخبرك سابقاً؟"

قال الرجل: "أريد أن أسمعها مرة أخرى".

ضحكت المرأة. "إنه لا يتحرك."

"ماذا تقصدين أنه لا يتحرك؟"

"لن تتخلى عن السؤال، أليس كذلك؟" ضحكت ثانية.

أصرّ الرجل: "ماذا تقصدين أنه لا يتحرك؟"

"ما إن يدخل عضوه، لا يتحرك... أنت خبيث جداً." لكمته مرة أخرى.

"ماذا يفعل بعد ذلك؟"

"إنه يجلس فوقي ويستلقي، ولا يفعل أي شيء، فقط يضغط علي، لذلك لا أكاد أتنفس... هل أنت راضٍ؟" سألت المرأة.

"كم من الوقت يبقى فوقك، ولا يفعل شيئاً؟"

"يختلف الأمر. في مرات عدّة استغرق في النوم فوقي... "

"ماذا تفعلين إذا نام؟"

"أسحبه وأدفعه بعيداً عني... هل هذا كافٍ لك الآن؟"

انفجرا من الضحك. ثم جلس الرجل، واستدار نحو آلة التصوير، ونهض عن السرير قائلاً: "دعينا نُلْقِ نظرة على تسجيلنا".

تعرَّف هورسي على الرجل الذي رأه، إنه غو بن، وفي مؤخرة الصورة، تجلس المرأة الآن. ابتسمت لو يوان لآلة التصوير.

بعد أسبوع، عادت لو يوان إلى المنزل. حين فتحت الباب، استطاعت أن ترى هورسي يتناول عشاءه إلى الطاولة جوار الشرفة. ولحظت لو يوان،

وغنيّ عن القول، الخطين المتوازيين المألوفين؛ وتحول لون وجه هورسي من تناوله وعاء المعكرونة إلى اللون الأحمر الغامق. رمت حقيبة يدها على الأريكة. قالت: "انزل وأحضر حقيبتي".

رفع هورسي رأسه وألقى عليها نظرة، ثم استأنف تناول الطعام. ذهبت لو يوان إلى المطبخ، وفتحت الصنبور، ورشت الماء على وجهها. ربتت على وجهها براحة يدها، وأخذت بعض الكريم من الرف، ودلكت خديها. حينما عادت إلى غرفة المعيشة، كان هورسي لا يزال يتناول وجبته بدقة. نظرت حولها. "أين حقيبتي؟" سألت.

استمر هورسي كما كان من قبل، ولم يكلف نفسه عناء رفع رأسه. "أين حقيبتي؟" كررت لو يوان.

دون جواب. ارتفع صوت لو يوان طبقات عدّة. "انزل الآن!" صرخت عملياً.

نظر هورسي إلى أعلى وسحب منديلاً من العلبة الموجودة على الطاولة. مسح فمه بلطف. "لماذا قلت إنني لا أتحرك؟" سأل.

بعد أن فقدت لو يوان أعصابها، لم تكن مستعدة تماماً لهذا النوع من الأسئلة ولم تقبله على الإطلاق. "اذهب واجلب حقيبتي!" صرخت مرة أخرى.

استمر هورسي: "لماذا قلت إنني لا أتحرك؟"

فهمت لو يوان بالضبط ما حدث. توقفت عن الصراخ ونظرت إلى هورسي باهتمام شديد. أخذ منديلاً آخر ومسح وجهه من العرق. قال: "في الواقع أنا أتحرك...".

توقف هورسي قليلاً ثم تابع: "في اللحظة الحرجة، أنا أتحرك".

وهكذا، أخفض هورسي رأسه وتناول آخر قطعتين من المعكرونة. ذهبت لو يوان بهدوء إلى غرفة النوم، وبعد جلوسها على السرير فترة من الوقت، نزلت الدرج بهدوء وحملت الحقيبة بنفسها.

لم يكن ثمة مزيداً من الدراما. لم يُعِد صديقي هورسي شريط الفيديو إلى غو بن، ولم يطلب غو بن إعادتها. في الأسابيع التي تلت ذلك، كان غو بن يمشي أحياناً، كما كان من قبل، على طول الشارع الطويل في المدينة، مرتدياً سترته الرمادية، ويداه في جيوبه، ثم يصل إلى باب شقة هورسي، ويلف أصابعه الطويلة ويطرق على الباب.

انتصار

وجدت لين هونغ، حينما كانت تُرتب أدراج لي هانلين، مغلّفاً قدياً مطوياً بدقة. حين فتحته، وجدت مغلّفاً آخر داخله مطوياً بعناية، ووجدت داخل هذا الظرف مغلفاً آخر مطوياً وبداخله مفتاحٌ.

لقد كان مفتاحاً عادياً من الألومنيوم، عادياً من جميع النواحي، فلماذا يحتفظ به لي هانلين داخل ثلاثة مظاريف؟ تفحّصت لين هونغ المفتاح في يدها، فلاحظت أنه كان قذراً بعض الشيء؛ من الواضح أنه كان قيد الاستخدام بعضَ الوقت. كان في مقدورها أن تعرف من حجمه أن المفتاح لا يفتح باباً بل درجاً أو حقيبة. وقفت، وذهبت إلى مكتب لي هانلين، وأدخلت المفتاح في ثقبه، لكنه فشل في الدوران في القفل؛ بعد ذلك، جربت الثقوب في حقائبها وحقائب لي هانلين؛ ثم قامت بفحص جميع الأقفال الأخرى في شقتهما، لكن المفتاح لم يفتح أياً منها. بعبارة أخرى، لا علاقة له بمنزلهما، ما يعني أنه... كان دخيلاً.

أُصيبت لين هونغ - امرأة في منتصف الثلاثينيات من عمرها - بالريبة والقلق والتوجّس والتخمين. جلست خارجاً في الشرفة، والمفتاح في يدها، وبقيت جالسة مكانها مدّة طويلة لا تتحرك. تغيّر موقع أشعة الشمس من الأعلى واستقرت فوق مكانها الثابت. شعرت بالضياع. لم تنهض حتى رن جرس الهاتف، فدخلت لتردَّ عليه. كانت المكالمة من زوجها في فندق

بعيد. قال: "لين هونغ، أنا لي هانلين. لقد وصلت هنا بخير ونزلت في الفندق، وكل شيء على ما يرام. هل أنتِ بخير؟"

هل كانت بخير؟ لم تكن تعرف. وقفت مكانها، وسمّاعة الهاتف في يدها، والصوت في الطرف الآخر يقول: "ألو، ألو؟ أيمكنك سماعي؟"

قالت شيئاً أخيراً: "أستطيع سماعك".

"حسناً، سأنهي المكالمة الآن".

انقطع الاتصال، وكل ما عبر الخط صمتٌ طويلٌ. أغلقت لين هونغ سماعة الهاتف وعادت إلى الشرفة لتحدق إلى المفتاح. كانت مكالمة زوجها إجراء شكلياً روتينياً، مجرد تأكيد أنه لا يزال في قيد الحياة.

أمرٌ واحدٌ لا شك فيه، إن ملابسه تجفف على الشرفة، وابتسامته معلقة في إطار إلى الحائط، والسجائر المطفأة لا تزال ملقاة في منفضة السجائر، ويتصل أصدقاؤه عبر الهاتف، لا يعلمون أنه مسافر، وسيقولون: "ماذا؟" "رحلة عمل أخرى؟"

نظرت إلى المفتاح. بدا أن وجود زوجها بالكامل يتوقف عليه. لكن ماذا يعني هذا المفتاح الوضيع؟ اعتقدت أنه شخص قريب جداً منها لا يخفى سراً عنها، تماماً مثل تلك المغلفات الثلاثة التي كانت تحرس المفتاح، وقد أُخفِي هذا السر مع مرور الوقت، وأُخفِي في الوقت الذي تخيلت فيه أنها سعيدة. الآن، هذا السر على وشك الانكشاف، وشعرت أنها واثقة من أنه سيلحق بها الضرر. سمعت صوت خطوات تصعد الدرج، اقتربت من بابها بثبات، وتوقفت، ثم واصلت الصعود.

في صباح اليوم التالي، ذهبت لين هونغ إلى مكتب لي هانلين، وأخبرت زميله في المكتب أنها في حاجة إلى أخذ بعض الأشياء من درج مكتبه. عرفها الزميل، ويعرف أن الزوجات تأخذ دائماً أشياء من مكاتب أزواجهن، فأشار إليها إلى مكتب جوار النافذة.

أدخلت المفتاح في ثقب درج مكتب لي هانلين، وفتح المزلاج. هكذا اكتشفت سر زوجها داخل مغلف كبير، ووجدت صورتين لامرأة واحدة، إحداهما ترتدي ملابس السباحة على الشاطئ، والأخرى صورة بالأبيض والأسود. بدت أصغر من لين هونغ، لكنها ليست أكثر جاذبية. ثم وجدت خمس رسائل، جميعها موقعة بـاسم (تشنغ شين). جعل الاسم عينيها تتقد. تشنغ شين... كان من الواضح أن هذا اسم حيوان أليف تتشاركه امرأة ليست معروفة لها أبداً مع زوجها... بدأت اليد التي تمسك الحروف ترتجف. كانت الرسائل نابضة بالمشاعر اللطيفة والتعبيرات المؤثرة. يبدو أن هذه المرأة ولي هانلين التقيا كثيراً، وتجاذبا أطراف الحديث كثيراً عبر الهاتف. تلك هي الحال، فلم يكن ثمة استنزاف لمشاعرهما العذبة أو تأثير في توددهما؛ كان لا بدّ من تبادل الرسائل لإتاحة مساحة أكبر للتعبير عنها. في إحدى الرسائل، أخبرت المرأة لي هانلين أن لديها رقم هاتف جديداً.

بعد وصول لين هونغ إلى المنزل، جلست على الأريكة وتفحصت هذا الرقم المكوّن من سبعة أرقام، وحاولت أن تستجمع قواها، ثم رفعت سمّاعة الهاتف واتصلت. سمعت رنيناً، ثم أجابت امرأة. "ألو؟"

قالت لين هونغ: "أود التحدث إلى تشنغ شين".

"تكلمي. من معي؟"

اكتشفت لين هونغ ميزة في صوت المرأة أنه أجش. قالت "أنا زوجة لي هانلين".

مرت مدّة طويلة لم يكن ثمة رد، لكن لين هونغ سمعت صوت تنفس، وتنفسٍ غير منتظم. قالت لين هونغ: "أنت وقحة، وحقيرة، ومخادعة تافهة..." لم تعرف لين هونغ ماذا ستقول بعد ذلك، كان جسدها كله يرتجف.

تحدّث الطرف الآخر الآن: "قولي هذا لـلي هانلين".

"أنت وقحة!" صرخت لين هونغ في الهاتف. "لقد دمرت زواجنا!".

قالت المرأة الأخرى: "أنا لم أخرّب زواجك. استرخ، لن أفعل ذلك. أنا ولي هانلين لن نذهب أبعد من ذلك؛ هذا هو حدّنا. أنا لست مهتمةً بالزواج منه، فليس كل النساء مثلك". أقفلت الخط.

وقفت لين هونغ في مكانها، مرتجفة من رأسها إلى أخمص قدميها، في حين انهمرت دموع الغضب من عينيها، ورنين صوت الاتصال في أذنيها. بعد فترة طويلة أغلقت سماعة الهاتف، لكنها بقيت واقفة مكانها، ثم رفعت الهاتف مرة أخرى واتصلت برقم آخر.

في الطرف الآخر، سمعت صوت ذكر: "ألو، ألو، من يتصل؟ لماذا لا تقول شيئاً؟"

"أنا لين هونغ."

"أوه، لين هونغ... هل عاد لي هانلين الآن؟"

"لا."

"كيف لم يعد بعد؟ لقد مرّت مدّة الآن، أليس كذلك؟ لا، لا يمكن أن تكون طويلة. رأيته منذ ثلاثة أيام. ماذا يفعل هذه المرة؟ هل ما زال يروج لفلتر الماء هذا؟ يا لها من عملية احتيال! أعطاني واحدة وجربتها. وضعت الماء المصفى في كوب وماء الصنبور في كوب آخر، ولم أتمكن من رؤية أي فرق بينهما. ثم شربت من كل كوب وتذوقته فوجدت الطعم نفسه أيضاً".

قاطعته لين هونغ: "هل تعرف تشنغ شين؟"

"تشنغ شين؟" أجاب. كان ثمة وقفة. انتظرت لين هونغ ممسكةً بجهاز الاستقبال. قال أخيراً: "أنا لا أعرفها".

حاولت لين هونغ التزام الهدوء: "لي هانلين لديه علاقة معها. إنه مرتبط بامرأة من خلف ظهري. اسمها تشنغ شين. اكتشفت هذا اليوم، إنهما يجتمعان ويتحدثان عبر الهاتف ويكتب أحدهما للآخر. لدي الرسائل التي أرسلتها إليه. لقد تعارفا منذ أكثر من عام من اليوم."

هذه المرة كان الرجل على الطرف الآخر من قاطعها. قال: "أعرف لي هانلين جيداً، لكني لا أعرف أي شيء عن تشنغ شين هذه. هل يمكن أن تكوني قد أسأتِ الفهم؟ ربما هما مجرد صديقين... معذرةً، أحدهم يطرق الباب. انتظري."

أغلق الهاتف، وبعد لحظة سمعت رجلين يتحدثان وخطوات تقترب من الهاتف. رُفِعت السماعة وقال الرجل: "ألو؟"

كانت تعلم أنه كان ينتظر حديثها، لكنها لم ترغب في قول المزيد، لذلك كل ما قالته هو "إذا كان لديك ضيف، فسأدعك تذهب إليه".

"حسناً، سنتحدث عن ذلك لاحقاً."

أغلقَ سماعة الهاتف. في حين لا تزال لين هونغ ممسكة بها. بحثت عن رقم صديق آخر لـ لي هانلين. اتصلت وسمعت أحدهم يقول عبر الهاتف. "ألو؟"

قالت: "أنا لين هونغ".

"لين هونغ، كيف حالك؟ وكيف حال لي هانلين؟ ماذا يفعل هذه الأيام؟"

كانت هادئة للحظة: "هل تعرف تشنغ شين؟"

ساد صمت طويل في الطرف الآخر من الخط. لم يكن لديها خيار سوى الاستمرار: "إن لي هانلين يلتقي مع امرأة أخرى من خلف ظهري."

"بالتأكيد لا." أخيراً، تحدث الآن: "لن يفعل لي هانلين هذا النوع من الأشياء. أنا أعرفه. هل من الممكن أن تكوني... مفرطة في الشك قليلاً؟"

قالت لين هونغ: "لدي دليل. لقد رأيت الرسائل التي كتبتها هذه المرأة والصور التي قدمتها له. لقد اتصلت بها عبر الهاتف الآن، أيضاً".

"أنا لا أعرف أي شيء عن هذا."

كانت نبرة صوته فاترة، وعلمت لين هونغ أنها لن تحصل على أي شيء منه، لذا أغلقت الهاتف وذهبت إلى الشرفة وجلست. كان لدى لي هانلين بعض الأصدقاء الآخرين، لكنها لم ترغب في الاتصال بهم، فهم ببساطة سيدافعون عنه ولن يظهروا أي تعاطف معها. منذ مدّة طويلة كان لديها صديقات مقرّبات - تشاو فين، وزانغ ليني، وشين نينغ - لكنها

ابتعدت عنهن بعد زواجها، إذ تسكعت مع أصدقاء لي هانلين، وتحدثت ومزحت معهم، وتذهب للتسوق مع زوجاتهم. حلت تلك الزوجات محل صديقاتها الثلاث. الآن فقط أدركت أنها فقدت صديقاتها جميعهن.

لم يكن لديها أي فكرة عن كيفية الاتصال بـهنّ. فلم يكن لديها سوى رقم شين نينغ، الذي كتبته قبل عام حينما التقت إحداهما بالأخرى في الشارع. لقد كتبت الرقم في كتابها، ثم نسيت كل شيء عنه.

كان زوج شين نينغ هو من رد عبر الهاتف. طلب إلى لين هونغ أن تنتظر، ثم جاءت شين نينغ وردت عبر الخط: "نعم، من معي؟"

"هذه أنا، لين هونغ".

سمعت صرخة فرحة من الطرف الآخر، ثم أطلقت شين نينغ سلسلة من التعليقات والأسئلة: "من الرائع سماع صوتك! اتصلت بك مرة واحدة، لكن لم يرد أحد. هل أنت بخير؟ لقد مرَّ زمن طويل منذ أن رأى بعضنا بعضاً. منذ عام، أليس صحيحاً؟ يبدو كأنه زمن طويل. هل سمعت أخباراً عن تشاو فين وزانغ ليني؟ لقد مرّت سنوات منذ أن رأيتهما أيضاً. هل أنت بخير؟"

قالت لين هونغ: "لا، أنا لست بخير".

سكتت شين نينغ. "ماذا قلت؟"

بدأت الدموع تنهمر من عيني لين هونغ: "زوجي يخونني. ويلتقي مع النساء..." بكت كثيراً لم تستطع أن تستمر في الكلام.

"ماذا حدث؟" سألت شين نينغ.

قالت لين هونغ: "بالأمس، حينما كنت أرتب درجه، وجدت ظرفاً مطوياً، وعندما فتحته وجدت مغلفين آخرين متداخلين. لقد أخفى مفتاحاً داخل تلك المغلفات الثلاثة. انتابني الشك وجربت أقفال الشقة كلها، لكنه لم يفتح أيا منها. لذلك اعتقدت أنه ربما كان مفتاح درج مكتبه، وذهبت هذا الصباح إلى مكتبه، وهناك وجدت الرسائل التي كتبتها له هذه المرأة، إضافةً إلى صورتين."

"مشين!" بدأت شين نينغ تشتم.

الآن، بعد أن أصبح لدى لين هونغ حليف أخيراً، يمكن أن ينطلق حزنها واستياؤها. قالت: "لقد فعلت كل شيء من أجله. لم أفكر قطُّ للحظة فيما إذا كانت ثمة أشياء يجب أن أفعلها من أجلي. طوال الوقت كنت أفكر في ما يمكنني فعله من أجله، وما الذي يرغب في تناوله، والملابس التي يجب أن يرتديها. بعد أن تزوجنا نسيت نفسي تماماً. كل ما كان يهمني هو تلبية احتياجاته، والآن انظري إلى ما يفعله..."

"ما هي خطتك؟" سألت شين نينغ.

"لا أعلم".

قالت شين نينغ: "سأخبرك. لا يمكنك أن تكوني ضعيفةً في هذه المرحلة، ولا يمكنك أن تكوني لطيفةً أيضاً. عليك أن تعاقبيه. لا مزيد من البكاء من الآن فصاعداً، مهما فعلت، لا تدعيه يراك وأنت تبكين. عليكِ أن تَبْدي غاضبةً وتتجاهليه. لا تطبخي وجباته. لا تغسلي ملابسه. لا تفعلي أي شيء من أجله. لا تدعيه ينام على سريرك، اجعليه ينام على الأريكة. في الأقل، اجعليه ينام على الأريكة مدة عام أو نحو ذلك. سوف يتوسل

إليك، ويركع على ركبتيه، حتى إنه سيصفع وجهه، لكن التزمي بموقفك. سيقدم جميع أنواع الوعود، فالرجال جيدون في ذلك، لكن وعودهم لا تساوي أكثر من نباح الكلب. لا تصدقي كلمة منه. باختصار، عليك أن تجعليه يفهم الخسائر التي يتكبدها حين يكون لديه مغامرة رومانسية، عليك أن تُذيقه طعم الجحيم على الأرض، عليك أن تجعليه يشعر أن الحياة لا تستحق العيش، وأنه سيكون أفضل حالاً لو أنه مات."

بعد أيام قليلة، عاد لي هانلين من رحلته. وجد لين هونغ جالسةً في الشرفة، غير مبالية بعودته إلى البيت. وضع حقيبته على الأريكة، وتوجه إلى لين هونغ ونظر إليها. بدت كأنها خرساء. "ماذا أصابك؟" قال.

ثبتت لين هونغ عينيها إلى الأرض. انتظر لي هانلين إلى جانبها، وحينما لم تقل شيئاً ذهب إلى الأريكة، وفتح حقيبته، وترك الملابس المتسخة، ثم نظر إليها. كان مستاءً حين وجدها لا تزال تحدق إلى الأرض. "ما معنى هذا؟" قال.

أبعدت لين هونغ نظرها عنه، وبقيت تنظر إلى منظر من الشرفة. عاد لي هانلين للبحث في حقيبته. أخرج متعلقاته الأخرى ووضعها على الأريكة. ثم بدأ يفقد أعصابه. مشى إلى لين هونغ وبدأ في الصراخ: "ماذا حدث لك بحق الجحيم؟ لقد عدت إلى المنزل وقد تقطّب وجهُك. ماذا فعلت وأسأت لك الآن؟ أنت..."

توقف لي هانلين فجأة، إذ رأى مفتاحاً مثبتاً بين إصبع لين هونغ وإبهامها. كان ثمة ضجيج طنين في رأسه. وقف مكانه لحظة، ثم ذهب إلى مكتبه وفتح الدرج. كانت بعض المجلات مكدسة داخله. تلمّس تحت المجلات، لكنه فشل في العثور على الظرف المطوي بدقة في الزاوية اليمنى. أدرك أنه بدأ يتنفس بصعوبة.

وقف لي هانلين إلى جانب النافذة فترة طويلة. ثم غادر الغرفة وسار بهدوء إلى لين هونغ. انحنى قائلاً: "كنتِ في مكتبي؟"

جلست لين هونغ مكانها بلا حراك. نظر إليها لي هانلين: "هل قرأت رسائل تشنغ شين؟"

بدأت لين هونغ ترتجف. تردّد لي هانلين، ثم وضع يده على كتفها. ارتعشت لين هونغ بعنف، وأبعدت يده، فرجعت يده إلى وضعها الأصلي وثبتت مكانها لحظة قبل أن يضعها في جيب بنطاله. قال: "هذا هو الوضع. التقيت تشنغ شين قبل عامين، في منزل أحد الأصدقاء. إنها ابنة عمه، لذلك غالباً ما تزوره. ذات يوم صادفتها في الشارع وبدأنا في رؤية أحدنا للآخر. تعيش مع والديها وأنا أعيش معك، لذلك لسنا في وضع... ما أقصد قوله هو، أنا وهي لسنا في وضع يسمح لنا بممارسة الجنس. حينما نلتقي، يكون ذلك في سينما أو حديقة أو نمشي في الشارع فحسب. هي وأنا، كل ما فعلناه هو... كل ما فعلناه هو تبادل القبل".

بكت لين هونغ الآن. أخرج يده من جيبه ومدّها إلى كتفها، لكنه أعادها حين انكمش كتفها إلى الخلف. فرك لي هانلين جبهته: "هذا فقط كل ما حدث بيننا. حتى لو لم تكتشفِ ذلك، فلن نذهب أنا وهي إلى أبعد من ذلك. أقدّر زواجنا جداً، ولن أفكك منزلنا هذا أبداً".

قفزت لين هونغ على قدميها، ومضت إلى غرفة النوم، وصفقت الباب. لم يتحرك لي هانلين. بعد دقائق عدّة مشى إلى غرفة النوم وطرق برفق الباب. قال: "لن أرى تشنغ شين بعد الآن".

فكّرت لين هونغ طويلاً، لم يتوسل إليّ أن أغفر له، ولم يجثُ على ركبتيه، ولم يصفع وجهه، ولم يقسم اليمين، بل حتى لم يعتذر.

ومع ذلك، فقد نام على الأريكة. كانت شين نينغ محقةً في هذه النتيجة، في الأقل. لقد بقي إلى جانب سريرها، واقفاً كرجل أعمال يوازن بين الإيجابيات والسلبيات، وفي النهاية اختار الأريكة.

من خلال اختيار الأريكة، كان قد اختار الصمت، واختار الحياة التي يعيش فيها هو وهي منفصلان.

الآن بعد أن انفصلت حياته عن حياتها، لم يقل شيئاً آخر عن موضوع تشنغ شين، وبطبيعة الحال لم يعد يتصرف كما يفعل الزوج. كان حذراً ومتحسّباً. حين كان يتنقل في الشقة، يبذل قصارى جهده في عدم إحداث ضوضاء، ولم يشغّل التلفاز. اقتصر نشاطه على الأريكة، حيث كان يجلس أو يستلقي للقراءة. لم يكن معتاداً على القراءة مطلقاً، ولكنه الآن دائماً يحمل كتاباً في يده.

كلما ظهرت، كان يضع الكتاب الذي كان يقرؤه وينظر إليها، لفهم حالتها العقلية، وتوضيح موقفه إلى حدّ ما: لم ينسَ نفسه في ملذات القراءة؛ فهو لا يزال يتململ مضطرباً في العالم الحقيقي.

أغضبها صمته. هل اعتقد أنه عبر منع حدوث الأصوات كلها في منزلهما، يمكن أن يخفف الأزمة؟ لن ينجح ذلك، لأنها لن ترضى، ولن تسمح له أن يعيش حياة هادئة. لقد خانها، والآن يعتقد أنه يمكن أن يعوضها بطريقة حرصه معها؟

بدأت في استفزازه. رأته جالساً على الأريكة، وقدماه على الأرض، فسارت نحو الشرفة، وركلته بقدميها في أثناء مرورها، كما لو كان يعيق طريقها. خرجت إلى الشرفة وانتظرت ردَّ فعله، لكنه لم يفعل شيئاً. حتى إن الألم لا يجبره على إصدار أي صوت. لم يكن في وسعها سوى العودة إلى غرفة النوم. لاحظت هذه المرة أنه سحب قدميه ووضعهما على الأريكة.

استمرت في استفزازاتها. في وقت مبكر من المساء، إذ توجهت إلى الأريكة وألقت الفراش والملابس والكتب على الأرض، ثم جلست وشغّلت التلفاز.

لقد جلس هناك فقط على الأريكة وهي تزيل أغراضه، ولكن ما إن شغّلت التلفاز حتى وقف وخرج إلى الشرفة. جلس على أرضية الشرفة وقرأ كتابه. لقد فعل هذا لإظهار تواضعه، ولاعتقاده أنه لا يستحق الجلوس إلى جانبها، ولا يستحق مشاهدة التلفاز معها. استمر في الجلوس على أرضية الشرفة الصلبة، ويقوم من وقت لآخر للتمدد، ثم يجلس مستنداً إلى الخلف. حين عادت إلى غرفة النوم، عاد إلى الأريكة، وأعاد الأشياء التي كانت قد رمتها على الأرض، واستلقى لينام.

جعلها صمته اللامحدود في حيرة. كانت حركاتها المستفزة جميعها كما لو أنها حجارة ألقيت في المحيط.

في الليلة التالية، تخلت عن السرير واستلقت على الأريكة لمشاهدة التلفاز، فنامت مكانها وبقي التلفاز شغالاً، ولم تستيقظ حتى الصباح. كان هذا جزءاً من مخططها، لكنه بدا طبيعياً أيضاً. لقد احتلت منطقة نومه، وفي الوقت نفسه تنازلت عن سريرها له، متوقعة أن السرير الناعم يغريه

ويهدده في نوم مريح، ما يمنحها فرصة للانخراط في مزيد من الأعمال العدائية. لكنها حينما استيقظت على الأريكة، وجدته جالساً على كرسي، ورأسه مُسند إلى طاولة الطعام، وغارق في النوم.

كان يتجول في المنزل بخضوع وحذر، كما لو كان يعاقب نفسه. غير أن المشكلة في هذا النوع من العقاب أنه يعاقبها أيضاً. لم تستطع ذرف الدموع التي أرادت أن تذرفها، ولم تستطع الصراخ بالأمور التي أرادت الصراخ فيها. التهمها غضب شديد لا يتصاعد إلّا في قلبها. لم تعد تنتظر بعد الآن أن يجثو على ركبتيه ويتوسل إليها لتغفر له؛ لقد تخلت عن الأمل في الحصول على ردّ الفعل الذي توقعته شين نينغ. ما أرادته الآن حدوث شجار كبير، حتى لو لجأ للعنف، فسيكون ذلك أفضل من هذا.

غير أنه رفض منحها هذه الفرصة؛ أي إنه رفض العقوبة التي اختارتها له. أصدر حكماً على نفسه وخضع لهذا الحكم بدقة، ما جعلها تشعر، في النهاية، أنه أصبح الآن متصالحاً تماماً مع حياته المحرّمة. كان يغادر كل صباح قبل أن تغادر، وفي المساء يعود من العمل بعدها. لم يكن ثمة مواجهة حقيقية. إنّ تنقّله يستغرق وقتاً أطول بكثير من وقت تنقّلها، فكان دائماً يغادر مبكراً، ويعود إلى المنزل متأخراً. كانت تعلم أنه يتناول طعام الغداء في مكتبه، إنما أين يتناول العشاء في المساء، لم يكن لديها أدنى فكرة. حينما عاد إلى المنزل في نهاية اليوم، لم يذهب إلى المطبخ، ولم تلمحه حتى في ذلك الاتجاه، لذلك عرفت أنه لا بدّ أنه قد أكل بالفعل. جلس على الأريكة وأخذ كتاباً. لقد عطّل حياتها، وألقى بها في حالة من الاضطراب، لكنه تأقلم تماماً.

ذات مساء، كانت تقف على الشرفة حين شاهدته يخرج من مطعم في الأسفل، وفجأة أصبح واضحاً أين كان يتناول عشاءه. غضبت جداً وبدأت ترتجف. بالنظر إليها، بدا كل يوم كأنه عام، في حين هو كان داخل المطاعم وخارجها، يعامل نفسه بشيء من الرفاهية. سارت إلى الطابق السفلي، وعلى الرغم من أنها كانت قد أكلت بالفعل، لكنها لن تدع ذلك يمنعها من أن تحشو معدتها مرة أخرى. لما مرَّ أحدهما إلى جانب الآخر عند الدرج، مرّت مباشرة إلى جانبه دون أن تنظر في طريقه، وواصلت نزول الدرج إلى المطعم الذي كان قد غادره للتو. طلبت عدة أطباق وبعض النبيذ، لكنها لم تستطع أن تأكل أكثر من بضع لقمات.

بعد ثلاث وجبات في المطعم، بدأت تشعر بالضيق بسبب الأموال كلها التي كانت تنفقها، وأصبحت تمتد نفقاتها إلى مدخراتهما. قبل كل شيء لم يكن لديهما كثير من المال، ولا زال ثمة أشياء أساسية كثيرة في حاجة إليها. ومع ذلك، دفعها السخط إلى العودة إلى المطعم، حتى يوم وُجِدا معاً هناك في الوقت نفسه. رأته ما إن دخلت، مكوم نفسه فوق وعاء من المعكرونة. جلست إلى طاولة بعيدة وشاهدت الآخرين يستمتعون بوجباتهم الباهظة، في حين كان يأكل النودلز البائس. فجأة شعرت بالحزن.

في اليوم التالي، وفي أثناء طهي العشاء، أعدّت له وجبة أيضاً. ووضعت وعاءً فارغاً في أكثر الأماكن بروزاً على طاولة الطعام، وزوجاً من عيدان تناول الطعام فوق الوعاء، ووضعت الطعام الذي أعدته إلى جانبه. كانت تأمل أن يلاحظه مجرد دخوله، وفي هذا لم يخيب أملها. أضاءت عيناه مباشرة، ثم نظر إليها بتساؤل ليتأكد أن العشاء مخصصٌ له. على الرغم من

أنه قد تناول المعكرونة خارجاً، فقد جلس إلى الطاولة وتناول الوجبة الكاملة التي طهتها.

في الوقت الذي انتهى فيه، دخلت غرفة النوم وأغلقت الباب خلفها. استلقت على السرير وسمعته وهو يفتح الباب ويقترب منها. بعد وقوفه مكانه مدّة، جلس على حافة السرير. "أيمكننا أن نتحدث؟" سأل.

لم تقل شيئاً. بعد لحظة، سألها مرة أخرى: "هل يمكننا التحدث؟"

ومع ذلك، لم تقل شيئاً، على أمل أن يتدفق سيل من الكلمات من شفتيه. من وجهة نظرها، كان عليه أن يتقدم في المهمّة. حتى لو لم ينفجر باكياً، فينبغي له أقله أن يظهر ندمه؛ يجب أن يركع على ركبتيه بالطريقة التي قالتها شين نينغ؛ يجب أن يتعهد بالنذور، وأن يقول كل ما تريد أن تسمعه منه. كانت تتجاهله بالطريقة نفسها، لكن كان عليه أن يفعل هذه الأشياء. بدلاً من فعل ذلك، كل ما أمكنه قوله هو: "هل يمكننا التحدث؟"

جلس على سريرها مدّة طويلة، غير أنه حينما لم ترد وقف وغادر. بعد أن أغلق الباب خلفه برفق، بدأت تبكي. كيف يمكنه أن يخرج هكذا، بلا مبالاة؟

عاد إلى الأريكة، وبعد أن أستسلم، أبطل التقدم الذي أحرزه؛ لقد عادا من حيث بدأا.

بعد ستة وعشرين يوماً من ذلك، لم يعد بإمكان لي هانلين أخيراً التحمل. أخبر لين هونغ أنه يعاني ألماً مستمراً في كل مفصل، وألماً شديداً في رقبته، وآلاماً مزمنة في المعدة أيضاً. قال: "لا يمكننا الاستمرار على هذا المنوال".

الآن، أخيراً، تحدّث بحزم. لم يكن حذراً أكثر من ذلك. وقف أمام لين هونغ تلوح في وجهه صورة الثقة بالنفس. قال: "لقد عاقبت نفسي بالفعل، ولا زلت لا تسامحني. إذا استمررنا على هذا النحو، فلن أكون الوحيد الذي يعاني، وستجدين أن الوضع لا يطاق بالقدر نفسه. لقد تحمّلت بالفعل أكثر ما يمكنني تحمله، ولا يمكنني الاستمرار على هذا النحو بعد الآن. الشيء الوحيد الذي يجب فعله هو..." توقف للحظة. "الشيء الوحيد الذي يجب القيام به هو الطلاق."

في أثناء حديثه، كانت تدير ظهرها إلى لين هونغ، لكن حينما قال هذا، استدارت إليه: "انسَ الطلاق! لقد جرحتني ولم تدفع الثمن بعد. تريد الرحيل من هنا لتهرب إلى تشنغ شين خاصتك، لكنني لن أسمح لك. سأبقيك معي، وستبقى حتى تكبر، وستبقى حتى الموت".

حينما ظهرت ابتسامة في وجه لي هانلين، فهمت فجأة. لم يكن معارضاً على الإطلاق في بقائه إلى أن يصبح شعره أبيض، حتى يموت. لن يثير أدنى اعتراض. لذا ابتعدت ووقفت مكانها، غير متأكدة ما يجب أن تفعله. شعرت بدموعها تتساقط، وهذا ببساطة زاد من إذلالها. أيام كثيرة من البؤس، ولم تحصل سوى على ابتسامة. انتظرت توبته وإظهار ندمه أسابيع. في الأقل، يجب أن يذرف بعض الدموع الصادقة، ويظهر الندم الحقيقي، لكنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل؛ بدلاً من ذلك، وقف أمامها، وصرَّح بجرأة، "الشيء الوحيد الذي يجب فعله هو الطلاق".

رفعت يدها ومسحت دموعها. قالت: "حسناً، انسَ الأمر. من الأفضل أن نتطلق."

هنا، اختفت ابتسامته. دخلت غرفة النوم، وأغلقت الباب، واستلقت على السرير، ونامت في ملابسها.

اتجها نحو مكتب التسجيل، وكان هذا هو المكان نفسه الذي ذهبا إليه لإضفاء طابعٍ رسميٍّ على زواجهما، والآن هما بصدد حلّه. كان ثمة جدار يمتد إلى جانب واحد من الشارع، وسار لي هانلين أمامه، وتبعته لين هونغ على بعد خطوات قليلة. من وقت لآخر كان يتوقف وينتظرها لتلحق به، ثم يمشي. لم يقل أي منهما كلمة واحدة. أحنى لي هانلين رأسه وعقد حاجبيه، كما لو كان القلق يثقله. سارت لين هونغ ورأسها إلى أعلى، وتركت نسيم الخريف يتغلغل في شعرها. بين الحين والآخر، يمكن رؤية ابتسامة طفيفة في وجهها الخالي من التعبيرات. كانت ابتسامة تشبه ورقة شجر متساقطة، كئيبة لا حياة فيها.

مرّا إلى جانب المتاجر التي اعتادا التردد إليها ومحطات الحافلات حيث انتظرا معاً. حين كانا يمشيان ويتقدمان، بدا كأن الوقت يسير إلى الوراء. حينما وصل لي هانلين إلى مقهى يسمى (صن داون)، توقف وانتظر لين هونغ. توقف لأنه تذكر أنهما أتيا إلى هنا مباشرة بعد تسجيل زواجهما: لقد جلسا إلى جوار نافذة تطل على الشارع، وطلب هو فنجاناً من القهوة وهي سبرايت. "هل ندخل ونشرب؟" قال.

حتى الآن كانت لين هونغ قد لحقت به. استدارت، ونظرت إلى الأعلى، ورأت لافتة من أنابيب نيون فوق الأفاريز تشكّل عبارة مقهى الغروب "Sundown Café". وافقت على اقتراحه ودخلا معاً. كان الوقت بعد الظهر، وفيه قلّة من الزبائن. اختارا طاولة إلى جانب النافذة، تطل على

الشارع، ومرة أخرى طلب قهوة وهي سبرايت. فكرا فيما شرباه في ذلك الوقت السابق.

كان لي هانلين أول من ابتسم، وتبعته لين هونغ، لكنهما سرعان ما قمعا ابتسامتهما وتجنَّبت عينا أحدهما الآخر. نظر من النافذة ونظرت إلى الأشخاص الآخرين في المقهى. لاحظت امرأة شابة ترتدي اللون الأحمر وتجلس وحدها إلى يمينها. كانت المرأة تراقبهما. بدا للين هونغ أنها لديها نظرة غريبة في وجهها. فكرت وخمنت لين هونغ، فظهر اسم في رأسها: تشينغ شين.

ألقت لين هونغ نظرة سريعة على لي هانلين. هو أيضاً رأى المرأة. عرفت من النظرة المفاجئة في وجهه، كان من الواضح أنه لم يكن يتوقع أن يلتقيها هنا. حينما أدار رأسه، وجد عيني لين هونغ عليه، وعرف أنها تعرف. ابتسم ابتسامة ساخرة.

قالت لين هونغ: "إذاً أخبرتها".

"ماذا؟"

"أخبرتها أننا سنتطلق، لذلك جاءت إلى هنا."

"لا."

شعرت لين هونغ أن قلبها يغمره الألم: "لم يكن عليك أن تكون مندفعاً هكذا."

أجاب مكرراً: "لا. إنها لا تعرف أي شيء."

نظرت إليه باهتمام، فرأت تعبيراً حازماً في وجهه إلى درجة أنها بدأت تعطي بعض المصداقية لما قاله. نظرت إلى الشابة، فكانت تشينغ شين هذه تراقبهما، ولكن ما إن نظرت إليها لين هونغ، أشاحت نظرها. قالت لين هونغ: "إنها تحدق فيك. من الأفضل أن تذهب وتقول مرحباً."

قال: "لا".

"نحن على وشك الطلاق. ما الذي أنت قلق بشأنه؟"

كرر: "لا".

نظرت إليه. وقد منحها موقفه الذي لا يتزعزع فجأة شعوراً دافئاً. ألقت نظرة خاطفة أخرى إلى تشينغ شين. هذه المرة لم تكن تنظر إليهما. إنها تشرب من كأسها، وإحدى ساقيها تجثم فوق الأخرى. بدت في مكانها، أنها تفتقر إلى الهدوء الذي قد يتوقعه المرء. ألقت لين هونغ نظرة أخرى إلى لي هانلين، الذي كان يحدق متجهماً إلى النافذة. قالت: "قبّلني".

استدار بدهشة.

كررت: "قبلني. بعد هذا، لن تقبلني مرة أخرى، لذلك أريدك أن تقبلني الآن".

أومأ برأسه ومدّ يده عبر الطاولة.

-"اجلس إلى جانبي حينما تقبّلني".

فقام وجلس إلى جانبها وضغط شفتيه على خدها.

-"أحضني بذراعيك".

أحاطها بذراعيه، وشعر بشفتيها تتسرب إلى وجهه وتلتقي شفتيه. انزلق لسانها في فمه وعانقته بذراعيها، فبدت له قبلة استمرت طوال الليل. استخدمت يديها لتثبيت جسده في مكانه ولسانها لتثبيت فمه في مكانه. أثار حماسها في فمه جسده، فانتشر وتمدد بلا حدود.

في أثناء ذلك كله، ثُبتت عينا لين هونغ إلى المرأة الأخرى. وراقبت في حين كانت تشينغ شين تنظر اتجاههما، وتتلمس كأسها بصعوبة، وفي النهاية، وقفت وأسرعت بالخروج. حينما مرت صورتها الظليّة الحمراء أمامهما، امتلأ قلب لين هونغ بالبهجة، لأنها اقتنعت فجأة أن هذا النصر هو انتصارها. بعد سبعة وعشرين يوماً من الحزن والسخط والأرق والفراغ، استسلمت عدوّتها دون قتال.

انزلقت يداها عن جسد لي هانلين، وفصلت فمها عن فمه، والتفتت إليه بابتسامة.

الزائدة الدودية

عمل والدي جرّاحاً، وقد كان رجلاً قوياً وصلباً ذا صوت رنان، وكان يقف على الدوام إلى طاولة العمليات مدة عشر ساعات في كل مرة، غير أنه في نهاية مناوبته لا تظهر في وجهه أدنى علامات التعب. وحين يسير عائداً إلى شقتنا، تصبح خطواته صاخبة وثابتة. وحينما يقترب من المنزل، يبوّل، غالباً، عند زاوية الزقاق خارجاً، ويتناثر بوله محدثاً صخباً على الحائط كصوت مطر غزير مفاجئ.

لما كان والدي في الخامسة والعشرين من عمره، تزوج من عاملة صغيرة جميلة تعمل في مصنع النسيج، وفي السنة الثانية من الزواج أنجبت له ولداً، هو أخي الأكبر، وبعد عامين أنجبت ابناً آخر، إنه أنا.

حين بلغتُ الثامنة من عمري، حصل الجرّاح النشط على يوم عطلة من جدول أعماله المعتاد الممتلئ. استمتع برفاهية النوم طوال الصباح في المنزل، وفي فترة ما بعد الظهيرة ذهب في نزهة طويلة مع ابنيه ولعب معهما على الشاطئ ساعات، وفي طريقه إلى المنزل سمح لأحدهما أن يركب على كتفيه وحمل الآخر بين ذراعيه. بحلول الوقت الذي انتهوا فيه من العشاء، كان الظلام قد حل بالفعل، فجلس هو وزوجته وطفلاهما تحت شجرة البارسول، المزروعة خارج بابهم. في تلك الساعة، انتشر ضوء القمر، وألقى ظلال الأوراق المرقطة علينا، وهبَّ نسيم بارد.

استلقى الجرّاح على كرسي استرخاء مستعمل من الخيزران، وجلست زوجته على كرسيٍّ مجاور من الخيزران، وجلست أنا وأخي أحدنا إلى جوار الآخر على مقعد. استمعنا حين شرح لنا والدنا أنه لدى كل شخص زائدة دودية في بطنه، وعمله أن يزيل كل يوم، في الأقل، عشرين زائدة دودية، وإن أطول وقت تستغرقه العملية ويقطع الزائدة الدودية هو خمس عشرة دقيقة. سألناه ماذا يفعل بها بعد ذلك.

"بعد ذلك..." لوح والدي بيده بازدراء. "بعد ذلك نرميها في القمامة".

"لماذا ترميها؟"

أجاب: "لأن الزائدة الدودية لا تعود نافعة".

ثم سألنا: "لماذا تستخدم الرئتين؟"

أجاب أخي: "من أجل التنفس".

"وماذا بعد؟"

فكر أخي لحظة: "ومن أجل الزفير".

"والمعدة؟ ما أهمية المعدة؟"

"المعدة؟ تهضم المعدة الطعام الذي نتناوله". كان أخي هو من أجاب مرة أخرى.

"والقلب؟"

هذه المرة تغلبت عليه: "القلب ينبض، تك تك!"

نظر والدي إليّ قائلاً: "هذا صحيح، كلاكما على حق. الرئتان والمعدة والقلب وكذلك الاثنا عشر والقولون والأمعاء الغليظة والمستقيم وغير ذلك، جميعها لها وظائفها المختلفة. توجد الزائدة الدودية في نهاية المعي الأعور تماماً... هل تعرفان ما هي فائدة الزائدة الدودية؟"

كان جواب أخي جاهزاً: "الزائدة الدودية ليست نافعة".

ضحك والدي وضحكت والدتنا أيضاً الجالسة إلى جانبه. تابع والدي: "هذا صحيح، الزائدة الدودية ليست مفيدة لأي شيء. حينما تتنفس، وتهضم وجباتك، وتنام، لا تدخل هذه الأنشطة في عمل الزائدة الدودية على الإطلاق. حتى حينما تأكل كثيراً وتتجشأ أو تعاني ألماً في البطن وتطلق الريح، فإن هذا لا علاقة له بالزائدة أيضاً".

ضحكنا أنا وأخي حينما سمعنا والدنا يتحدث عن التجشؤ وإطلاق الريح. ثم جلس وقال لنا بجدية: "لكن إذا أصيبت الزائدة الدودية بالتهاب، فسيزداد الألم في البطن أكثر فأكثر، وإذا كانت الزائدة الدودية مثقوبة، فسوف تسبب التهاب الصفاق، وقد يكون ذلك مميتاً، فألمها قاتل، هل تفهما ماذا يعني ذلك؟"

أومأ أخي برأسه: "سوف تقتلك".

شهقت حينما سمعت ذلك. حين رأى ردّ فعلي، ربّت والدي على رأسي، وقال: "في الواقع، إزالة الزائدة إجراء بسيط. طالما أنها لم تنفجر، فلا يوجد خطر... كان ثمة جراح بريطاني..."

حين تحدّث والدي، استلقى على كرسيه، فعلمنا أنه سيحكي قصة. أغمض عينيه وتثاءب راضياً، ثم التفت إلى وجهينا، قائلاً: ذات يوم وصل

جرّاح بريطاني إلى جزيرة صغيرة. وهذه الجزيرة الصغيرة لم يكن فيها مستشفى ولا طبيب ولا حتى معدات طبية. لقد أُصِيب بالتهاب الزائدة الدودية، فاستلقى تحت شجرة نخيل، متعباً من الألم طوال الصباح. كان يعرف أنه إذا حدث أي تأخير في إجراء العملية، فإن زائدته الدودية ستنفجر...

"وماذا يحدث إذا انفجرت الزائدة الدودية؟" سأل والدي وقد أسند نفسه.

أجاب أخي: "سيموت".

صحح له والدي: "سوف يتحول إلى التهاب الصفاق، وبعد ذلك سيكون ميؤوساً منه".

وتابع: "لم يكن أمام الجرّاح البريطاني خيار سوى إجراء عملية جراحية لنفسه. كان معه مواطنان يحملان مرآة كبيرة، ونظر إلى نفسه في المرآة، في هذه البقعة بالذات..."

أشار والدي إلى الجانب الأيمن من بطنه. "في هذه البقعة بالذات، قام بعمل شق في الجلد، ودفع الدهون جانباً، وأدخل يده، وبحث عن الأعور، لأنه ينبغي لك أن تجده أولاً قبل أن تجد الزائدة الدودية..."

جراح بريطاني يجري عملية لنفسه بنفسه، لقد أدهشتنا هذه القصة المذهلة. نظرنا إلى والدنا، وأعيننا تلمع، وسألناه عما إذا كان يمكنه إجراء عملية جراحية لنفسه أيضاً، تماماً مثل الجراح البريطاني.

قال: "هذا يعتمد على الوضع. إذا كنت في تلك الجزيرة الصغيرة وكانت الزائدة الدودية ملتهبة، لإنقاذ حياتي، سأجري عملية جراحية لنفسي أيضاً."

تدفق الدم في عروقنا من جواب أبي. لطالما اعتقدنا أنه الرجل الأقوى والأكثر قدرة في العالم، وقد أكدّت لنا إجابته هذا الاعتقاد. كما منحتنا الثقة من أجل التفاخر أمام الأولاد الآخرين. أود أن أقول "بإمكان والدنا أن يجري عملية لنفسه". يضيف أخي مشيراً إليّ: "كلانا يحمل مرآة كبيرة".

هكذا مرّ الشهران التاليان. في خريف ذلك العام، التهبت الزائدة الدودية لدى والدنا، في صباح يوم الأحد. كانت والدتنا على وشك الذهاب إلى المصنع للعمل وقتاً إضافياً حين عاد والدنا من ورديّة الليل. وصل إلى الباب حين كانت تغادر. قال: "لم أنم على الإطلاق الليلة الماضية. لقد واجهنا ثمة حالات إصابة في الرأس وكسرين وتسمماً بالبنسلين. أنا مرهق للغاية، وجسدي يؤلمني".

ربّت على صدره، واستلقى على سريره لينام. كنت أنا وأخي في الغرفة الأخرى، نضع الطاولة على الكراسي، ثم نضع الكراسي فوق الطاولة؛ مرت ثلاث أو أربع ساعات ونحن ننقل الأثاث بهذه الطريقة وتلك. حينما سمعنا والدنا يئن في غرفته، ذهبنا وأصخت السمع خلف الباب.

بعد لحظة أدركنا أنه ينادي بأسمائنا، لذلك فتحنا الباب ودخلنا، فوجدناه ملتفاً مثل الجمبري، ينظر إلينا وأسنانه مشدودة. قال: "الزائدة الدودية.... أهه!... إنها تقتلني... التهاب الزائدة الدودية الحاد. أسرعا واذهبا إلى المستشفى، واسألا عن الدكتور تشين... أو عن الدكتور وانغ... بسرعة، اذهبا..."

أمسك شقيقي بيدي ونزلنا إلى الطابق السفلي وخرجنا من الباب ومشينا على طول الزقاق. الآن، أدرك ما يحدث. لقد التهبت الزائدة الدودية

لدى أبي، ونحن نذهب إلى المستشفى لإحضار الدكتور تشين أو الدكتور وانغ. ما إن نعثر عليهما، ماذا سيفعلان؟

حينما فكرت في أن زائدة أبي ملتهبة، خفق قلبي. قلت لنفسي: إذاً، أخيراً، التهبت زائدة أبي الدودية. الآن يمكنه إجراء الجراحة بنفسه، وفي مقدوري أنا وأخي رفع المرآة الكبيرة.

توقف أخي حينما وصلنا إلى نهاية الزقاق: "لا نستطيع أن نذهب ونجلب الدكتور تشين، والدكتور وانغ أيضاً."

"لم لا؟" قلت.

"حسناً، انظر، إذا وجدناهما، فسيقومان بإجراء العملية."

أومأت بنعم.

"ألا تريد أن ترى أبي يجريها بنفسه؟" سأل أخي.

قلت: "نعم، هذا ما أريده".

"لذلك لن نبحث عن الدكتور تشين أو الدكتور وانغ. سنذهب إلى غرفة العمليات ونأخذ مجموعة أدوات جراحية. أما المرآة الكبيرة، فلدينا واحدة منها في المنزل..."

كنت سعيداً جداً وصرخت: "نعم! بهذه الطريقة يمكننا إعطاء أبي فرصة إجراء العملية بنفسه".

حينما وصلنا إلى المستشفى، كان الموظفون جميعهم تقريباً يتناولون الغداء في المقصف، ولا يوجد سوى ممرضة واحدة في غرفة العمليات.

أخبرني أخي أن أكلّمها، فذهبت ونادیتها خالتي، وسألتها كيف يمكنها أن تكون جميلة جداً. حين كانت تبتسم وتبتسم، سرق أخي مجموعة أدوات الجراحة.

ثم عدنا إلى المنزل. سمعنا أبي ندخل، فنادى بصوت منخفض: "الطبيب تشين، الطبيب تشين! أهذا أنت يا دكتور وانغ؟"

ذهبنا إلى غرفته، ورأينا جبين أبي غارقاً في العرق من شدّة ألمه. رأى أنه لا يوجد دكتور تشين، ولا دكتور وانغ أيضاً، إنما ولداه فقط، أخي وأنا. "أين الدكتور تشين؟ لماذا ليس الدكتور تشين معكما؟" سأل بصوت أجش.

أخبرني أخي أن أفتح العدّة الجراحية، في حين كان يجلب المرآة الكبيرة التي كانت والدتنا ترى فيها ملابسها كل صباح. لم يكن الأب يعرف ما نحن بصدد القيام به: "وأين الدكتور وانغ؟" سأل. "ألم يكن الطبيب وانغ موجوداً أيضاً؟"

وضعنا مجموعة أدوات الجراحة إلى يمين أبي. صعدت فوق السرير ورفعنا معاً المرآة. حرص أخي على الانحناء إلى الأمام وإلقاء نظرة خاطفة في المرآة للتأكد من أن أبي يمكنه رؤية نفسه بوضوح، وقلنا بحماس: "أبي، ابدأ في العمل!"

حتى الآن، لا زال يشعر بألم شديد، وملامحه ملتوية. يلهث، ويحدق إلينا، ويمطرنا بالأسئلة عن الدكتور تشين والدكتور وانغ. شعرنا باليأس. صرخنا: "أبي، أسرع وإلا فستنفجر الزائدة الدودية!"

"أسرع... بماذا؟" سأل بوهن.

"أبي، أسرع واجْرِ العملية!" قلنا.

الآن، أخيراً، فهم. حدق فينا وشتمنا: "يا أولاد الحرام!"

لقد صُدمت، ولم أكن أعرف ما الخطأ الذي ارتكبناه، ونظرت باستفسار إلى أخي، الذي فوجئ بالقدر نفسه. كان أبي يعاني ألماً شديداً إلى درجة أنه لم يستطع الكلام، وحدق فينا في صمت. حين نظرنا إليه ثانية، أدرك أخي أخيراً سبب شتم أبي. قال: "لم نخلع سروال أبي بعد".

طلب إليَّ أخي أن أمسك بالمرآة في حين حاول أن ينزل سروال أبي، لكن والدنا صفعه، وبجهد شديد، شتمنا مرة أخرى. "وغدين!"

أخاف هذا أخي إلى درجة أنه ركض عن السرير، واتبعت حذوه، وزحفت بسرعة عن ساقي أبي إلى الأرض. وقفنا مكاننا جنباً إلى جنب، ننظر إليه وهو يرقد في السرير في حالة من الغضب الشديد. "هل يمكن أن يكون أبي لا يريد أن يجري العملية؟" سألت.

"لا أعلم."

اغرورقت الدموع في عيني أبينا. "كونا ولدين طيبين"، قال بأنين، وهو يكافح لإخراج كلماته. "اسرع... أسرع لنحضر... أمي. لنقول لأمي أن تأتي..."

كنا نأمل أن يجري أبي العملية بنفسه كبطل، والآن ها هو يبكي! نظرنا إليه مدّة أطول، ثم أخذ أخي يدي وركضنا خارج الباب، ونزلنا الدرج وأسرعنا على طول الزقاق كاملاً. هذه المرة لم نفكر في خطة عمل خاصة بنا - ذهبنا لإحضار أمي.

في الوقت الذي نُقل فيه والدنا إلى غرفة العمليات، كانت الزائدة الدودية قد انفجرت وامتلأت معدته بالقيح. أصيب بالتهاب الصفاق، واضطر إلى قضاء أسابيع وأسابيع في سرير في المستشفى، ثم استعاد عافيته في المنزل، واستغرق شهراً آخر قبل أن يرتدي ثوباً أبيض مرة أخرى، ويستأنف عمله كطبيب. لكن ليس في مقدوره أن يصبح جراحاً مرة أخرى، فقد نفذت طاقته. إذا وقف إلى طاولة العمليات مدة ساعة، فسيصاب بالإغماء، وستصاب عيناه بالضبابية. لقد أصبح نحيفاً بين عشية وضحاها ولم يستعد الوزن الذي فقده قطّ. حينما كان يمشي، لم يعد ثمة حيوية في خطوته، وعلى الرغم من أنه قد يخطو خطوة أولى كبيرة، لن يذهب إلا إلى نصف المسافة الثانية. حينما جاء الشتاء، بدا أنه يعاني نزلة برد دائمة. لذا فمنذ ذلك الحين أصبح طبيباً للطب الباطني فقط، وكان يجلس في المكتب كل يوم، ويتحدث بلا مبالاة مع المرضى، ويخربش الوصفات الروتينية. بعد أن يغادر العمل، كان يمشي ببطء عائداً إلى المنزل، ويفرك يديه بقطعة قطن مبللة بالكحول. حينما ننام في المساء، كثيراً ما نسمعه يشتكي لأمنا. يعتقد الناس أنك أنجبتِ لي ولدين، إنما هما مجرد زائدتين دوديتين. في أفضل الأوقات، ليس لهما فائدة دنيوية، وإذا جدّ الجدّ، فهما عملياً سبب موتك".

تصادم جوي

في إحدى أمسيات شهر آب، جلست أنا وزوجتي في غرفة شديدة الحرارة أمام مروحة كهربائية تصدر صوتاً صاخباً. أمسكتُ جهاز التحكم عن بعد بيدي ونقّلت بين القنوات واحدة تلو الأخرى، ثم أعدت التنقل بينها مرة أخرى بتسلسل عكسي. كنت عصبي المزاج وظهري مبللٌ بالعرق. بيد أن زوجتي كانت هادئة تماماً، وتجلس ساكنة تماماً. لم أستطع رؤية ولو حبة عرق على جبينها اللامع، وبدا حالها يشرح القول القديم (يشعر جسمك بالانتعاش، في حالة سكون ذهنك). غير أنني لم أكن سعيداً بما يحدث؛ منذ أن تزوجت، في الواقع، وأنا غير سعيد بأي شيء. تمتمت بصمت بالشتائم، وضغطت بشدّة على المفاتيح، وحوّلت صورة التلفاز إلى سلسلة من الومضات، ما جعل الرؤية في عينيَّ الصغيرتين ضبابية. لقد شتمت حرارة الصيف، والبرامج المتلفزة، والمروحة الرديئة المخشخشة، والعشاء الذي تناولته للتو، وتجفيف الملابس الداخلية على الشرفة... طالما بقيت في هذه الغرفة، وحافظت على صحبتها، احتفظت زوجتي بهدوئها. ومهما شتمت، وفعلت أشياء مجنونة، فستكون مرتاحة تماماً. أما إذا خرجت من هذه الغرفة، وتركتها وذهبت بمفردي، فستغني نغمة مختلفة. ستشعر بعدم الارتياح، وستكون بائسة، وتخلق صخباً غير ضروريٍّ، وتصبح مستاءة وتبكي. هذه هي حياتي الزوجية. لا أستطيع أن أتركها ثانية، وهذا هو عملي زوجاً حتى سن الشيخوخة وإلى أن يفرقنا الموت.

طرق صديقي مورنينغ تانغ الباب. لقد استخدم أصابعه، وراحتيه، وقدميه، وربما حتى ركبتيه. في أي حال، أحدث ضجيج مطرقة على الباب، وكان الأمر كما لو أنني سمعت صوت بوق أو صياح ديك، لأنني نهضت مسرعاً عن الأرض، وفتحت الباب، ورأيت أمامي مورنينغ تانغ، الذي لم أره منذ أكثر من عام. "مورنينغ تانغ، أيها الوغد!" صرخت.

بدا مورنينغ تانغ أنيقاً للغاية، ويرتدي سروالاً فضفاضاً وسترة لونها كلون الصدأ، غير أن لديه ابتسامة مضحكة في وجهه. اتخذ خطوة إلى الأمام، ثم توقف. قلت: "أدخل".

دخل بحذر، وهو يحدق إلى الردهة الضيقة كما لو كان يمشي في الظلام الدامس، ولا يستطيع رؤية أصابعه. كنت أعرف أنه يحاول تحديد مكان زوجتي، فهو بسببها لم يأتِ إلى منزلي منذ أكثر من عام. وحسب تعبيرها، مورنينغ تانغ أحمق.

في الواقع، هذا ليس صحيحاً. إن مورنينغ تانغ، زميل طيب القلب، كريم ولطيف مع أصدقائه، وثمة كثيرات من النساء في حياته، ولهذا قالت زوجتي عنه إنه أحمق. في الماضي، كان كثيراً ما يمرّ إلينا رفقة امرأة. لا حرج في ذلك، إنما المشكلة في أنها ستكون امرأة مختلفة في كل مرة، وهذا ما جعل زوجتي تشعر بالتوتر. إنها مقتنعة تماماً أن الرجال يتأثرون بالرفقة المحاطين بها، وشعرت أنه أمر خطر للغاية لي بقاء التواصل معه، أو - على نحو أكثر دقة_ شعرت أن ذلك خطرٌ جداً عليها. لقد نسيَت أنني زوج محترم ومخلص، وبدأت في إطلاق تحذيرات متكررة، ممتلئة بالتهديدات؛ كأنها تخبرني أنه إذا تصرفت مثل مورنينغ تانغ، فسأواجه كارثة واضحة للعيان.

فوصفت كل تفصيل لما سيكون عليه الحال ما إن تقع الكارثة، أو كل تفصيل يمكن أن تفكر فيه. كانت المشكلة أن لديها خيالاً خصباً دائماً في هذا المجال، ونتيجة ذلك الخيال، أشعر بالخوف أكثر فأكثر.

أما مورنينغ تانغ فهو شخص مهمل وأخرق، لقد فشل تماماً في إدراك حقيقة أن زوجتي حذرة جداً منه. على الرغم من أنني قد لمّحتُ له مرات عدّة، لم يترك أي أثر فيه على الإطلاق. قد يكون بليداً تماماً. لذلك جلس ذات يوم على أريكتنا وقال بصوت عالٍ: "يتزوج أصدقائي واحداً تلو الآخر. كنتَ أنتَ في البداية، ثم تشين ليدا، ثم فانغ هونغ، ثم لي شوهاي. لقد فعلتم الشيء نفسه تماماً، إذ تزوجتم من أول امرأة قابلتموها. لا أفهم لماذا أنتم جميعاً في عجلة من أمر الزواج. لماذا لم تخرجوا مع عدد من النساء أولاً؟ ولماذا لم تتمتعوا في حياة حرة ومستقلة مثلي؟ لماذا تريدون أن تجدوا امرأة تربطكم، وتربطكم بقوة إلى درجة أنكم لا تستطيعون حتى التنفس؟ الآن، كل ما عليّ فعله هو التفكير فيكم يا رفاق، ولا يسعني سوى الرثاء لحالكم. ما إن تُفتَح أفواهكم الآن، ستشعرون بقلق شديد حيال ردّ الفعل، ولا سيما أنتَ، فلا يمكنك قول جملتين دون النظر إلى زوجتك. ألا تتعب من ذلك؟ ولكن لا يزال لديك متسع من الوقت، فلم تبلغ من العمر كثيراً في هذا الوقت، ولا يزال لديك فرصة لمقابلة نساء أخريات. هل ستقدمني لأحدهن في وقت ما؟"

هذا هو مورنينغ تانغ كما يبدو لك. ما إن يبدأ في الحديث، ينسى نفسه. لقد نسي أن زوجتي كانت تقلي شيئاً ما في المطبخ، ونظراً إلى ارتفاع صوته، سمعتْ كل كلمة قالها. لذا خرجت زوجتي مع مقلاتها، ووجهها

غاضب، وقد كان الزيت يتناثر داخل المقلاة في كل مكان، وصاحت في وجه مورنينغ تانغ قائلة: "اخرج من هنا. اخرج من بيتي".

تبرَّم مورنينغ تانغ بانزعاج، وقد خرج مسرعاً، ويداه تتلمسان الأريكة للحصول على الدعم حيث يتعثر في خطواته، ولم يكن لديه الوقت حتى لإلقاء نظرة سريعة إليَّ قبل أن يخرج مسرعاً. لم أرَ من قبل مثل نظرة الرعب تلك مطلقاً. كنت أعلم أنه لم يكن يخشى زوجتي بقدر ما يخشى المقلاة الساخنة التي كانت تحملها. لقد خفّ الضجيج منذ ذلك اليوم، وقد مرّ أكثر من عام على عدم دخوله باب منزلي.

الآن، في هذه الليلة الحارّة من شهر آب، ظهر فجأة، ودخل منزلي، وعاد لقاؤه مع زوجتي. في هذا الوقت، وقفت بالفعل منتصبة، وابتسمت ابتسامة ودّية، لّما رأت مورنينغ تانغ: "أوه، هذا أنت. لم تزرنا منذ مدّة طويلة".

ضحك مورنينغ تانغ. كان من الواضح أنه يتذكر المقلاة الساخنة. وقف مكانه، وهو يشعر بالراحة إلى حد ما، حتى أشارت زوجتي إلى حصيرة القش على الأرض: "تعال واجلس."

نظر إلى الحصيرة، لكنه ظلّ واقفاً. رفعتُ المروحة ذات الصوت المخشخش كي يذهب الهواء في اتجاهه، وتناولت زوجتي الصودا من الثلاجة وأعطتها له. مسح العرق عن وجهه وهو يشرب. "لماذا لا تجلس؟" قلت.

الآن، ظهرت ابتسامة مطمئنة على وجهه. قال: "لا أجرؤ على العودة إلى منزلي. لقد واجهت مشكلة."

"أي نوع من المشاكل؟" قلت دهشاً.

نظر إلى زوجتي وقال: "ثمة امرأة التي كنت... إنها متزوجة، والآن زوجها ينتظرني خارج شقتي..."

أدركت ما حدث. ثمة زوج غيور قد غضب غضباً شديداً، وهو الآن مصمم على قتل صديقي مورنينغ تانغ. التقطت زوجتي جهاز التحكم عن بُعد وبعد تغيير قناتين، بدأت بمشاهدة برنامج باهتمام. لم تجهد نفسها في التفكير بالأمر، لكنني لم أستطع فعل ذلك، لأن مورنينغ تانغ صديقي، بعد كل شيء. "ماذا عسانا أن نفعل؟" قلت.

"هل يمكنك أن تأتي معي إلى منزلي؟" قال بشكل مثير للشفقة.

كنت في حاجة لرؤية ردّ فعل زوجتي، التي تجلس على الحصيرة تشاهد التلفاز، وآملتُ أن تدير رأسها وتنظر إلي، لكنها لم تفعل ذلك. لذلك كان علي أن أسألها: "هل يمكنني الذهاب معه إلى منزله؟"

أجابت زوجتي وهي لا تزال تشاهد التلفاز: "لا أعرف".

أجبتُ مورنينغ تانغ: "تقول إنها لا تعرف. في هذه الحالة، لا يمكنني معرفة ما إذا كان بإمكاني الذهاب معك أم لا."

هزّ مورنينغ تانغ رأسه، وقال: "لمّا كنت قادماً إلى هنا، مررت بمنزل تشين ليدا، وفانغ هونغ أيضاً. ولو رغبت في الذهاب إلى منزل لي شوهاي، لكان ذلك ملائماً أكثر. فلماذا جئت إليك أولاً؟ كما تعلم، على الرغم من أنه لم يلتقِ أحدنا الآخر منذ عام، إلا أننا ما زلنا أفضل صديقين، ولهذا السبب جئت لرؤيتك أولاً. لم أعتقد قطُّ أنه سيكون ردّك هكذا، وتقول لي إنك لا تستطيع أن تعرف، لماذا لا تقول صراحة إنك لا تريد ذلك؟"

"لم أقل إنني لا أريد ذلك، قلت فقط لا أستطيع أن أعرف".

"ماذا يعني أنك لا تستطيع أن تعرف؟"

"لا أستطيع أن أعرف، يعني..." نظرتُ إلى زوجتي. "ليس الأمر أنني لا أريد ذلك، بل زوجتي لا تريد. وإذا كانت لا تريد، فلا يمكنني فعل شيء حيال ذلك. في الواقع، يمكنني الذهاب معك، ولكن حينئذٍ، لن يُسمح لي بالعودة إلى المنزل مرة أخرى؛ إذ ستغلق الباب ولن تسمح لي بالدخول. يمكنني البقاء في منزلك مدة يوم أو يومين أو حتى شهر، ولكن ينبغي لي العودة إلى المنزل عاجلاً أم آجلاً، وما إن أفعل ذلك، ستكون حياتي بائسة هل تفهم؟ ليس الأمر أنني غير راغب في الذهاب، لكنها لن تسمح لي..."

قالت زوجتي: "لم أقل ذلك". والتفتت إلى مورنينغ تانغ: "لا تصدق ما يقوله لك. الآن، هو عازم على تقديم نفسه على أنه مخلوق مثير للشفقة، ولكنه في الحقيقة، طاغية حقيقي في المنزل. إذ يصرّ أن تكون له الكلمة الأخيرة في كل شيء، وما إن يحدث أي خطأ ولو كان صغيراً يدخل في إحدى نوبات غضبه. في الواقع، لقد حطم ثلاثة أكواب هذا الشهر..."

قاطعتها: "أنا خائف منك حقاً. يمكن أن يشهد مورنينغ تانغ على ذلك".

أومأ مورنينغ تانغ برأسه بشكل متكرر: "هذا صحيح، إنه خائف منك حقاً. يمكننا جميعاً رؤية ذلك".

نظرت زوجتي إلينا وضحكت، ونحن نقف مكاننا محرجين، ثم التفتت إلى مورنينغ تانغ بابتسامة: "كم عدد الأشخاص الذين ينتظرون خارج شقتك؟"

قال: "واحد فقط".

-"هل معه سكين؟"

-"لا."

-"كيف تعرف أنه لا يحمل سكيناً، فيمكن أن يخفيها في جيبه؟"

-"مستحيل، لأنه لا يرتدي سوى قميص وسروال قصير، ولا يوجد فيهما مكان لإخفاء السكين".

لقد هدأت مخاوف زوجتي، وقالت لي: "لا تبقَ في الخارج إلى وقت متأخر".

أومأت برأسي على الفور: "سأغادر الآن وأعود قريباً."

من الواضح أن مورنينغ تانغ كان مسروراً بهذا التطور غير المتوقع. وبدلاً من الالتفاف والقيام بمغادرة سريعة، وقف مكانه واندفع في ثناء مفصّلٍ لعقلية زوجتي الليبرالية: "كنت أعرف أنكِ ستتفهّمين، وإلا لما جئت إلى هنا أولاً. لقد فكرت في الأمر، وكان واضحاً لي أنك الأكثر عقلانية بين زوجات أصدقائي. فزوجة فانغ هونغ غريبة جداً، وزوجة تشين ليدا امرأة سليطة، وتحرص زوجة لي شوهاي دائماً على إلقاء المحاضرات على الناس. أنت الوحيدة التي تستمعين إلى العقل، أنت الأفضل..."

قال هذا، ثم التفت إليّ: "أنت فتىً محظوظ."

اعتقدت أنه إذا استمر في مثل هذا الهراء فترة أطول، فقد تغير زوجتي رأيها، لذلك ركلته. لقد ركلته بقوة إلى درجة لا بدّ أنه تأذى، لأنه تأوه "آه!" ولكنه كتمها فوراً. وقال لزوجتي: "إننا ذاهبان الآن".

في حين كنا نخرج من الباب، نادتني مرة أخرى. واعتقدت أنها غيرت رأيها، لكن كل ما فعلته أنها أخبرتني بهدوء: "لا تكن في المقدمة. دعهم يتقدموك".

أومأت برأسي أطمأنها: "فهمتك."

بعد مغادرة منزلي، ذهبت أنا ومورنينغ تانغ إلى منزل لي شوهاي أولاً. تماماً كما توقع، ألقت زوجة لي شوهاي محاضرة طويلة على مورنينغ تانغ. وكانت قد أنهت استحمامها لتوها، وجلست أمام المروحة تمشط شعرها، فتطايرت قطرات الماء من مشطها مثل البصاق على وجه مورنينغ تانغ، ما أجبره على مد يده على نحو مستمر ومسح البلل. "ألم أحذرك منذ زمن بعيد؟" قالت. "ألم أخبرك أنه إذا واصلت السير على هذا النحو، فعاجلاً أم آجلاً سيكسر شخص ما ساقك؟ لي شوهاي، ألم أقل ذلك؟"

جلس صديقنا لي شوهاي مكانه ولم يقل شيئاً. لقد أُحرج حينما سمع زوجته توبّخ صديقه بنبرة كهذه، لكنه ما زال يهز رأسه قليلاً. "مورنينغ تانغ، ليس الأمر أنك شخص سيىء،" تابعت زوجته. "في الواقع، مشكلتك الوحيدة هي أنك شخص مُطارِد للفتيات. لن تكون مشكلة إذا خرجت مع فتيات عازبات، ولكن حين تبدأ في إغواء زوجات الآخرين، فهذا أمر مبالغ فيه حقاً. في البدء، يعيش الزوجان زواجاً جيداً حقاً، ولكن ما إن تدخل بينهما، تتحول سعادتهما إلى معاناة، وتتفكك الأسرة التي كانت راضية من قبل. وإذا كان ثمة طفل لديهما، فالأمر يصبح أسوأ بالنظر إلى الطفل. فقط فكر، إذا كنت ستغريني، كم سيكون لي شوهاي بائساً! أليس هذا صحيحاً، يا لي شوهاي؟"

إن استخدامها مثل هذا المثال الشخصي جعل زوجها غير مرتاح إلى حد كبير، لكنها كانت غافلة عن ذلك. وواصلت: "هذه هي الطريقة التي تستخدمها. أنت تبني سعادتك على معاناة الآخرين، ولكن عاجلاً أم آجلاً ستنال عقابك. وسيأتي شخص ما وسيضربك بشدة، وفي حالتك حتى لو ضربوك حتى الموت، فلن يذرف أحد أي دمعة. تذكر ما أقوله لك: إذا لم تقلع عن تصرفاتك، فستصل إلى نهاية سيئة. الآن، ثمة شخص في انتظارك خارج شقتك، أليس هذا صحيحاً؟"

أومأ مورنينغ تانغ: "هذا صحيح، لقد فهمتِ الموضوع. كان حظي سيئاً مؤخراً. كل النساء اللواتي أراهنَّ مع رجالهنَّ يردْنَ خوض معركة لعينة معي".

ثم انتقلنا أنا ومورنينغ تانغ ولي شوهاي إلى منزل فانغ هونغ. جلسنا في غرفة معيشته، نتناول المثلجات التي أخرجها من الثلاجة. شاهدنا فانغ هونغ، عاري الصدر، يدخل غرفة النوم، وسمعنا همهمة الأصوات في الجانب الآخر خلف الباب. نعلم أنه كان يخبر زوجته بما حدث ويقنعها بالسماح له للخروج في هذه الليلة الحارة لتقديم يد المساعدة إلى مورنينغ تانغ.

كان باب غرفة النوم مواراباً قليلاً. إذ يمكننا أن نرى أن الضوء داخلها أخف من ضوء غرفة المعيشة، ويمكننا سماع أصواتهما ترتفع وتنخفض. كانا يبذلان قصارى جهدهما للتحدث بهدوء، لذلك بدا الأمر كما لو أنهما لا يتحدثان بقدر ما يلهثان من أجل التنفس.

بعد انتهائنا من تناول المثلجات، شاهدنا رأس المروحة _التي تنفث الهواء الساخن على أجسامنا المتعرقة - تتأرجح ذهاباً وإياباً. نظر بعضنا إلى

بعض وابتسمنا، ثم وقفنا وخطونا خطوتين، ثم جلسنا مرة أخرى. انتظرنا مدّة طويلة، وظهر فانغ هونغ أخيراً. أغلق باب غرفة النوم خلفه بعناية، ووقف مكانه وبدا متجهّماً. ثم سحب قميصاً أبيض فوق رأسه ولبسه. وقال: "لنذهب".

الآن، أصبحنا أربعة. مشينا إلى مبنى سكن تشين ليدا، وكنا نقطر عرقاً. وبما أنه يعيش في الطابق السادس، وهو عالٍ جداً، فقد وقفنا نحن الأربعة في شارع صاخب محوطين بأشخاص يهرولون هرباً من الحرارة إلى شققهم، ونظرنا إلى أعلى، رأينا ضوءاً في شقة تشين ليدا، وصرخنا: "تشين ليدا، تشين ليدا، تشين ليدا."

ظهر تشين ليدا في الشرفة ومدَّ رأسه فوق الدرابزين. "من هناك؟" أجاب.

-"إننا نحن."

-"من؟"

صرخت: "لي شوهاي، وفانغ هونغ، ومورنينغ تانغ، وأنا".

"اللعنة، هل هذا أنتم يا رفاق؟" أطلق تشين ليدا صرخة سعيدة. "اصعدوا."

قلنا: "لا، لن نصعد. إنك تعيش في طابق مرتفع جداً. الأفضل أن تنزل أنت".

سمعنا في هذه الأثناء صوت امرأة: "تنزل! وماذا تفعل؟"

ركزنا نظرنا إلى مصدر الصوت، فرأينا زوجة تشين ليدا في الشرفة أيضاً. أشارت إلينا: "ماذا تريدون أن تفعلوا؟"

أجبتها: "إن مورنينغ تانغ في ورطة. ونريد نحن بوصفنا أصدقاءه مساعدته. دعي تشين ليدا ينزل".

"ما نوع المشكلة التي يعانيها مورنينغ تانغ؟" سألت.

قال لي شوهاي: "ثمة شخص ينتظره خارج باب منزله. يريد تصفية الحسابات معه".

"لماذا يريد هذا الشخص تصفية الحسابات معه؟"

أجاب فانغ هونغ: "لدى مورنينغ تانغ علاقة مع زوجة هذا الرجل".

قالت زوجة تشين ليدا: "لقد فهمت الأمر الآن. يمارس مورنينغ تانغ حيله القديمة مرة أخرى، إلى درجة أن الرجل يريد قتله".

قلنا: "هذا صحيح".

قال مورنينغ تانغ: "الأمر ليس بهذه الخطورة".

"ما اسم المرأة التي أغويتها هذه المرة؟" سألت زوجة تشين ليدا.

التفتنا إليه: "من هي المرأة هذه المرة؟"

أجاب: "توقفوا عن هذا الحديث الذي يسمعه كثير من الناس. ألا ترونهم مبتسمين جميعاً؟ هذا سيُسِيْءُ جداً إلى سمعتي".

"ماذا يقول مورنينغ تانغ؟" سألت زوجة تشين ليدا.

قلت لها: "أخبرنا أن نتوقف عن متابعة الحديث، وإلا فستسوء سمعته".

صرخت زوجة تشين ليدا من الشرفة: "إن سمعته سيئة حقاً".

"هذا صحيح". اتفقنا معها وأخبرناه بذلك: "في الواقع، سمعتك سيئة بالفعل".

شتم: "اللعنة على هذا".

"ماذا قال؟" سألت زوجة تشن ليدا.

فأجبناها: "يقول إنك على حق".

هكذا اكتمل عدد أصدقاء مورنينغ تانغ أخيراً على نحو كامل. في هذه الليلة من شهر آب، وفي درجة حرارة تبلغ أربعاً وثلاثين درجة مئوية، مشينا نحن الخمسة على طول الشارع الذي لا يزال ينبعث منه البخار باتجاه شقة مورنينغ تانغ. في الطريق سألناه من هو الرجل. قال إنه لا يعرفه. ثم سألناه عن زوجة الرجل. قال إننا لا نعرفها. سألناه أخيراً، كيف استطاع إغواءها؟ أجاب: "ماذا تظنون؟ إنه مجرد روتين عادي، تقابلها أولاً، ثم تأخذها إلى الفراش".

"بهذه البساطة؟" سألنا.

بدا أن مورنينغ تانغ قد وجد سؤالنا سخيفاً للغاية؛ إذ لا يستحق اهتمامه. قال: "إنكم تعتقدون أنه يوجد أمور أكثر بكثير مما هو موجود بالفعل. لهذا السبب أنتم يا رفاق لا تصلحون إلَّا للنوم مع امرأة واحدة طوال حياتكم".

توقفنا لشراء المشروبات الباردة، ووقفنا خارج المتجر نناقش كيفية التعامل مع ذلك الديوث المستاء. قال لي شوهاي إنه يجب علينا تجاهله؛ وكل ما علينا فعله هو أن نوصل مورنينغ تانغ إلى منزله، ونُفهم الزوج أن مورنينغ تانغ لديه أربعة أصدقاء مثلنا، حينئذٍ، سيتخلى الرجل بسرعة عن

أفكاره المجنونة. أما فانغ هونغ فاتخذ وجهة نظر مفادها أنه يجب علينا أن نقول بضع كلمات للرجل، ونجعله يفهم أنه لا جدوى حقاً من جعل مورنينغ تانغ يعيش وقتاً عصيباً، وإذا كان لديه حسابات فيجب تسويتها مع زوجته. وما قلته أنا كان: إذا تتطور الأمر إلى القتال، فماذا نفعل؟ قال تشين ليدا: إذا تتطور الأمر إلى القتال، فكل ما علينا فعله هو الوقوف بجهة واحدة والتشجيع. شعر تشين ليدا أن وجودنا نحن الأربعة من أجل تحفيز مورنينغ تانغ، سيجعله على يقين من التغلب على خصمه.

في حين كنا نتناقش، ظل مورنينغ تانغ صامتاً، ولّما طلبنا رأيه مباشرة اكتشفنا أنه كان منشغلاً بمغازلة فتاة جميلة، ولم يسمع أي كلمة قلناها، ولاحظنا أن عينيه تلمعان. على بعد أمتار قليلة إلى يمينه، كانت فتاة ذات شعر يصل إلى كتفيها تشرب الصودا، وترتدي قميصاً أسود من دون أكمام وتنورة طويلة بنقوش زهرية. لّما كنا نراقبها، أدارت رأسها مرات عدّة تنظر إلينا، وبالطبع تضمنت نظرتها مورنينغ تانغ، على الرغم من أن النظرة بدت غير رسمية إلى درجة كافية. بعد أن انهت شرابها، وضعت زجاجة الكولا على المنضدة وذهبت بخفة. بدت مذهلة للغاية، بالطريقة التي تمشي بها. راقبناها تسير على طول الرصيف، ثم دهشنا حينما بدأ مورنينغ تانغ في ملاحقتها. "مورنينغ تانغ!" لم يسعنا إلا الصراخ.

استدار وألقى ضحكة مكتومة، ثم تحرك بذكاء، ليبقى قريباً من الفتاة الجميلة.

كنا عاجزين عن الكلام. لقد أدركنا الآن أنه بدأ في البحث عن سعادة جديدة. ولكن ما هذا الوقت الذي اختاره؟ فثمة رجل غاضب ينتظر خارج

شقته، ويصرّ على أسنانه من شدة شغفه كي يدمره. لقد استدعانا وخرجنا من منازلنا، وجعلنا نسير مسافة طويلة حتى أننا استحممنا بالعرق، وأصرّ أن نوصله إلى منزله بأمان، لكنه الآن نسي كل ذلك، وتركنا أمام متجر صغير، وغادر دون أن يقول وداعاً.

لذلك أطلقنا العنان لأنفسنا لكيل سيلٍ من الشتائم له، واستنكرنا قدرتنا في إصلاحه، وشتمناه ابن عاهرة وعديم الفائدة. لقد توقعنا أنه سيصل إلى نهاية سيئة، وكنا على يقين من أنه في يوم من الأيام سيصاب بمرض الزهري، ذلك المرض السيئ جداً، وسيتعفن جسده. في الوقت نفسه، تعاهدنا بعدم التدخل مرة أخرى في شؤونه. حتى لو انتهى به الأمر بكسر ساقيه، وسَمْلِ عينيه، وقطع خصيتيه، سنتصرف كأن شيئاً لم يحدث.

لعنّاه حتى ازرقّت وجوهنا، ونفدت طاقاتنا، ثم هدأنا. وقفنا في مكاننا، ينظر بعضنا إلى بعض، وبعد لحظة بدأنا نتساءل، ماذا نفعل الآن؟ "هل نعود إلى المنزل؟" سألت.

لم يجب أيّ منهم، فأدركت أنه كان اقتراحاً غبياً حقاً. على الفور صححت نفسي، وقلت: "لا، لن نعود إلى المنزل".

لقد فهموا مباشرة ما كان يدور في خلدي. قالوا: "صحيح. لسنا في عجلة من أمرنا للعودة إلى المنزل".

أدركنا أنه قد مرّت سنوات عدّة منذ آخر لقاء لنا. لولا مورنينغ تانغ، لما سمحت لنا زوجاتنا بالخروج، وفجأة أدركنا مدى ندرة هذه الفرصة، فتوجهنا عبر الشارع إلى حانة صغيرة.

في تلك الليلة، استمتعنا أخيراً بجلسة شراب آخر، وتحدثنا إلى ما لا نهاية، ونسينا مرور الوقت، ولم يرغب أي منا في العودة إلى المنزل. تذكرنا طويلاً تلك الأيام التي لم تكن فيها النساء تزعجنا. يا له من وقت رائع، حين كنا نمشي دائماً في الشوارع، ونغني ورؤوسنا إلى أعلى؛ ونتمتم بكلمات قذرة في أثناء مراقبتنا الفتيات الجميلات؛ وحينما حطّمنا مصابيح الشوارع على طول طريق البنايات؛ وحينما طرقنا الأبواب في منتصف الليل، وهربنا مبتعدين قبل أن ينهض الناس من فراشهم ويفتحوا الباب؛ ولمّا أغلقنا على أنفسنا في غرفة نوافذها مغلقة ونفثنا دخان سجائرنا مثل المداخن حتى أصبح الضباب سميكاً وكثيفاً، ولا نكاد نستطيع رؤية بعضنا بعضاً. وتذكرنا عدد المقالب التي اعتدنا عملها؟ وكم مرة ضحكنا بشدة إلى درجة أن ألمتنا أحشاؤنا؟ في بعض الأمسيات، كنا نجمع الأموال الموجودة في جيوبنا كلها ونشتري البيرة. فيما بعد، نرمي إحدى الزجاجات الفارغة في الهواء، ثم نرمي واحدة أخرى، ما يجعل الزجاجتين تتصادمان وتتحطمان في الهواء، فتسقط شظايا الزجاج على الأرض مثل البَرَد. أطلقنا اسماً على هذه اللعبة **(تصادم جوي)**.

على الجسر

"دعينا..."

حين كان يتحدث، أدار وجهه نحوها، فلمع ضوء الشمس على إطار نظاراته السوداء. بدت نظراته كأنها تجثم فوق رأسها مثل السلّم، بالنظر إليه فهو يحدق فقط إلى مسافة أبعد كما لو كان ينظر من فوق حافة ربوة مُعشِبة. لقد رفعت ثقلها عن درابزين الجسر، حيث انتظرت أن يقول "لنذهب" أو "لنعد إلى المنزل الآن".

وقفت مكانها بثبات، مثنية ساقها ومستعدة للتقدم خطوة إلى الأمام. لكنه لم يكمل ما كان سيقوله.

واصل الاتكاء على الدرابزين، وعيناه تندفعان ذهاباً وإياباً كطائرة ورقية فقدت خيطها. خففت من موقفها المتوتر. "إلى ماذا تنظر؟" سألت.

بدأ يسعل، لكنه لم يكن من نوع السعال الذي تصاب به حين تصيبك نزلة برد، بل كان سعالاً كالذي تحدثه عند تنظيف حلقك. ماذا كان يخطط أن يقول؟ رأت شفتيه تنفرج وأسنانه تضغط على شفته السفلى. اندفع حشد من تلاميذ المدارس صارخين على الجسر، ملوحين بحقائبهم، وألقوا بأنفسهم على الحاجز، متباعدين على نحو متساوٍ مثل صف من العصافير الجاثمة على خط الهاتف. كانت قاطرة سفن تقترب، تطلق صفارتها، سلسلة طويلة من العبَّارات تتبعها، وكانوا ينتظرون مرورها تحتهم.

غطت سحابة من دخان الديزل الأسود الجسر، ثم فُتِحت أفواه الأطفال وأغلقت بفرقعة، فتأرجح البصاق الأبيض في قوس باتجاه القوارب في الأسفل. عبرت عشرات المراكب واحدة تلو الأخرى تحت الجسر، وعُمِّدت في لُعَاب الأطفال. لوّح الأشخاص الواقفون في مقدمة القاطرة بأيديهم لمنع البصاق، كأنهم يحاولون الإفلات من السهام المسرعة اتجاههم. أمكنهم التنفيس عن غضبهم فقط عن طريق السب غير المجدي. قدّم كلبهم عرضاً أكثر إثارة للإعجاب من السخط، إذ نبح بشدة وهو يركض ذهاباً وإياباً على طول القارب بالكامل، كما لو كان يتسابق على طول الشارع. أسر أداء الكلب الأطفال، الذين نسوا الآن الاستمرار في إحداث إزعاج لأنفسهم، وبدلاً من ذلك راقبوا الكلب باهتمام شديد، وفي الوقت نفسه ملؤوا الهواء بصوت ضحكاتهم الصاخب.

مرة أخرى قال: "دعينا..."

راقبته، منتظرة أن يستمر.

لقد مرّ قرابة أسبوع منذ أن بدأ فجاءة في القلق بشأن الدورة الشهرية. كان قلقه أمراً حديثاً. لقد تزوجا منذ خمس سنوات، وذات يوم كان مستلقياً على السرير بعد الغداء، مرتديا ثيابه ولا يزال ينتعل حذاءَه، قال إنه لم يكن ينوي أخذ قيلولة حقيقية. رفع زاوية اللحاف، ورقد متمدداً على السرير. قال وهو يتثاءب: "سأخذ قيلولة سريعة".

جلست على الأريكة بجوار النافذة، تحوك له وشاحاً. على الرغم من أن فصل الشتاء لا زال بعيداً، أن نكون مبكرين أفضل من أن نندم، كما كانت تحب أن تقول. أشرقت أشعة الشمس الخريفية، تدغدغ رقبتها

بدفئها وتلمع فوق يدها اليسرى. هذه الأحاسيس، ومشاهدة زوجها متكئاً بسلام على السرير، أعطتها شعوراً بالرضا.

حينئذٍ، جلس زوجها، سائق الشاحنة، كفرملة عربة فجاءة وهي مسرعة: "هل جاءت؟" سأل.

ذُهلت: "من التي جاءت؟"

كانت عيناه منتفختين من دون نظارته، وقال بنزق: "الدورة، دورتك الشهرية، تلك الصديقة القديمة لك".

ضحكتُ بصوت عالٍ. كانت عبارة (الصديقة القديمة) هي عبارتها لتصفها. تعرَّف أحدهما الآخر منذ أكثر من عشر سنوات، وكانت صديقتها القديمة تأتي لرؤيتها كل شهر، محدثةً تقلصاً في بطنها كبطاقة اتصال. هزّت رأسها: صديقتي القديمة لم تصل بعد.

"يجب أن تأتي في هذا الوقت." وضع نظارته وهو يتحدث.

وافقته قائلة: "لقد حان الوقت".

"إذاً، لماذا لم تأتِ بحق الجحيم؟"

بدا مضطرباً. في مثل هذا الظهيرة الصافية والمعتدلة، وفي منتصف قيلولة خفيفة، قفز فجأة، إنما، ليس بسبب أي أمر خطر، بل لسؤالها عما إذا بدأت الدورة الشهرية فحسب. صدمها موقفه كما لو أنه هزلي للغاية، ما جعلها تضحك. لكن، يبدو أن لديه شيئاً يثقل كاهله. جلس على حافة السرير، مائلاً رأسه نحوها. قال: "اللعنة، هل أنت حامل؟"

بالنظر إليها، لقد كان لغزاً سبب رد فعله بهذه الطريقة. حتى لو كانت حاملاً، ليس الأمر كارثة، فقد أخبرها حينما تزوجا: "عليك أن تنجبي لي ولداً. أريد ابن، وليس ابنة."

"ألا تريد ولداً؟" سألت.

"لا!" صرخ عملياً. "لا يمكننا إنجاب طفل. لو أنجبنا طفلاً الآن، ... سيكون الأمر محرجاً".

"ما المحرج في ذلك؟" وقفت. "نحن زوج وزوجة، وهذا الأمر شرعيٌّ... لم أتسلل إلى سريرك عبر الباب الخلفي، كما تعلم. تزوجنا مع كل التدابير المناسبة، فما المشكلة؟ ألم تستأجر سيارتين وثلاث شاحنات صغيرة لحفل الزفاف؟"

"ليس هذا ما أعنيه". ونفى تعليقاتها ملوحاً بيده.

"إذاً، ماذا تقصد؟"

في الأسبوع الذي تلاه، انتابه القلق بشأن صديقتها القديمة. في كل مرة يعود فيها إلى المنزل بعد العمل، كانت تسمع صوت خطوات ثقيلة نفد صبرها على الدرج، إلى جانب قرقعة المفاتيح الهشة، وتعلم أنه قريباً سيفتح الباب ويظهر أمامها. بعد إلقاء نظرة إلى الشرفة كان يقول باكتئاب: "ألم تغسلي ملابسكِ الداخلية؟"

حينما يسمع أنها فعلت ذلك، يتمسّك بذرَّة من الأمل. "هل أتت؟" سأل.

"لا." أبقت الأمر بسيطاً.

كان هذا من شأنه أن يفقده صوابه، فكان يتخبط على الأريكة ويقول بحسرة: "أنا حقاً لا أشعر بأنني أصلح أن أكون أباً الآن".

تحيرت من موقفه. بدا ذعره حول حَبَلها غير طبيعي. "ما خطبك؟" قالت. "لماذا أنت خائف جداً من أن أكون حاملاً؟"

في لحظات كهذه كان ينظر إليها بشكل مثير للشفقة ولا يقول أي شيء، فيلين قلبها. وتقول لنفسها ألّا تقسو عليه وتحاول رؤية الأمور بطريقته، وتجعله يشعر بتحسن: "لقد تأخرت خمسة أيام فقط. هل تذكر؟ في إحدى المرات، جاءت بعد عشرة أيام من المعتاد".

ظهر خلف نظارته بصيص في عينيه: "هل هذا ممكن؟"

رأت ابتسامة ساذجة تظهر في وجهه. بالأمس ابتسم بهذه الطريقة البريئة حينما سأل: "هل وضعت فوطة اللباس الداخلي؟"

قالت: "لست في حاجة إليها بعد".

قال: "عليك فعل ذلك. إذا لم تضعِ الفوط اليومية، فلن تأتي أبداً".

"هذا كلام سخيف." لم تأخذه على محمل الجد.

استفزه هذا الأمر، وصرخ: "إذا كنت تقوم بالصيد ولا تستخدم الطُّعم، فكيف يمكنك صيد الأسماك؟"

لذا وضعت فوطة صحّية في لباسها الداخلي، فهو بعناد طفولي أصرّ على القيام بذلك. حينما فكرت في الأمر على أنه صيد سمك وكيف، في نظر زوجها، أن فوطها الداخلية هي طُعم السمك، لم تستطع إلا أن تضحك. لولا تعبيره الساذج، لن تكون ثمة طريقة لتستسلم له. في بعض

الأحيان، تتحير من حقيقة أنه في هذه السنوات الخمس كلها لم يظهر قطُّ مثل هذا الاهتمام بوصول صديقتها القديمة. بعد الاستيقاظ من غفوته في ذلك اليوم، بدا وكأنه شخص مختلف. لم يمضِ كثير من الوقت في التفكير في الآثار المترتبة على هذا التغيير، إذ كانت أكثر وعياً أن تأخر الدورة الشهرية جعلها تشعر بالتوتر أيضاً. في الماضي، لم تكن تولي كثيراً من الاهتمام لدوراتها الشهرية، أو في الأكثر كانت ستحتج قليلاً حينما تعاني تقلصات بطنها، لكن كان عليها الآن أن تأخذ الأمر على محمل الجد، لأنها بدأت تعتقد أنها ربما تكون حاملاً.

والأكثر من ذلك، هذا ما كان يؤمن به أيضاً، لأنه فقد الأمل في أن الدورة الشهرية ستأكل الطُّعم.

"أنت حامل، لا شك في ذلك." ابتسم. "عليك تقبّل الأمر".

لقد عرفت ما كان يترتب عليه الأمر. إنه السماح لتلك الآلات الباردة في دخول رحمها، هذا ما قصده. قالت: "أريد هذا الطفل".

"اسمعي." جلس على الأريكة، مدعياً الصبر: "من السابق لأوانه إنجاب طفل، ليس لدينا ما يكفي من المال. راتبك يكفي فقط لدفع أجرة مربية. سوف تستهلك النفقات الشهرية للطفل أجر شهرين".

أجابت: "لن يكون لدينا مربية".

"هذا سيكون سبب موتي." وكان قد بدأ يغضب.

"لن أجعلك تعتني به. سأعتني بالطفل".

قال بحزن: "أنت لا تزالين طفلة. إنجاب طفل واحد هو ما أستطيع تحمّله، فلو كان ثمة اثنان، فكيف سأعيش؟"

بعد لحظة، وقف منتصباً ولوح بيده في الهواء للإشارة إلى أنه اتخذ القرار. قال: "تخلصي منه".

فأجابت: "لست أنت من يجب أن تنجب، وإذا أنجبت الطفل فلن تضطر إلى مشاركتي الألم أيضاً."

"عمرك أربع وعشرون فحسب، وأنا أكبر بسنة واحدة فقط، فكري في الأمر..."

الآن، كان الاثنان يتجهان نحو المستشفى، فترة بعد الظهر، وكانا في طريقهما للتأكد من أنها حامل. ساد الهدوء في الشارع، وخفض صوته وهو يسير: "فكري في الأمر، إذا كان لدينا طفل الآن، فسيكون لدينا حفيد قبل بلوغنا الخمسين. ستكوني جدة في الأربعين من العمر، في حين لا يزال لديك مظهرك وشكلك وما إلى ذلك. حينما تمشين في الشارع، سيعتقد الناس أنك في الثلاثينيات من العمر، لكنك ستكونين جدة. يا لها من تعاسة!"

"ليس لدي مشكلة في أن أكون جدّة." رمقته بنظرة.

"لكن لدي مشكلة في أن أكون جَدّاً!" صرخ. ثم لاحظ أن الناس كانوا ينظرون إليه: "اللعنة، في الأيام القليلة الماضية لم تستمع إلى كلمة قلتها".

ابتسمت بخفة، لكنها رأت تعبيره الغاضب، فقالت ببساطة، "إذاً، ابق هادئًا فقط."

حين مشيا نحو المستشفى، ثرثر. لقد كانت المحاولة الأخيرة، بذل جهده لشق حجر بقطرات من المطر. بدأت تشعر بعدم الارتياح، بسبب خوف زوجها بالفعل من إنجاب طفلهما، كيف سيكون شكلها حينما تلد

بالفعل؟ كان هذا التفكير الذي أثار عدم ارتياحها. وقفت مكتوفة الأيدي وأصيبت بتشنج في بطنها. كان الأمر كما لو أنها سمعت صوت شيء يتحرك، وبدأ تيار دافئ يتدفق ببطء في الأسفل. كانت تعرف ما يعنيه هذا وتنفست الصعداء. لم تعد تشعر في عدم الارتياح، ولن يبقى زوجها يرتجف من الغضب. قالت: "انسَ المستشفى".

كان لا يزال عازماً في إقناعها، وحين سماعها تقول هذا، لوح بيده بفظاظة، معتقداً أنها كانت غاضبة. قال: "حسناً، سأتوقف".

"لقد وصلت صديقتي القديمة."

ولما قالت هذا ابتسمت وهو ينظر إليها غير مصدق. ثم توجهت نحو المراحيض العامة إلى يمينها، وانتظرها عند درجات المسرح. حينما خرجت بابتسامة وإيماءة، علِم على وجه اليقين أن صديقتها القديمة قد ظهرت. أطلق ضحكة مكتومة، وأصبح مزاجه جيداً طوال ما بعد الظهر، ولم يتحول إلى حزن إلا حينما سارا على الجسر. حينئذٍ بدا جاداً وغارقاً في التفكير.

وقفت إلى جانبه، تراقب الصف الطويل من المراكب وهي تبتعد، في حين ابتعد الأطفال وسط ضجيج من الأصوات. لقد مر بعض الوقت منذ أن تحدث آخر مرة. حينما قال: "دعينا..."، اعتقدت أنه يريد العودة إلى المنزل، لكنه لم يتحرك قطُّ. ابتسمت بلطف لأنها كانت تتخيل ما يخطط لقوله. فيقول: "دعينا لا نتناول العشاء في المنزل. سوف نذهب إلى مطعم". ستكون لديه ابتسامة راضية في وجهه. أو يقول: "يجب أن نحتفل، ونقضي وقتاً ممتعاً حقاً". وربما يلعق شفته السفلى، ويقول: "سأحصل على نصف لتر من

الجعة". فهو بإمكانه دائماً العثور على عذر للاحتفال: حتى في حالة عدم وجود سبب معين، كان يخبرها: "أنا في مزاج جيد اليوم، فلنحتفل".

أما الآن، فنظرته، التي كانت مراوغة من قبل، استقرت في وجهها، ونفث نفساً عميقاً: "دعينا..."

توقف، ثم واصل، بصوته الأجش: "دعينا نتطلّق".

نظرت إليه بذهول، كما لو أنها لم تفهم ما قاله للتو، وابتعد عنها بسرعة، قائلاً بابتسامة محرجة، "أراك لاحقاً".

كان فمها مائلاً قليلاً، راقبته وهو يضع يديه في جيبيه ويبتعد كما لو أنه لا يهتم بالعالم. رفع النسيم شعره. كانت حركاته سريعة جداً، حتى قبل أن يتاح لها الوقت للرد، اندمج بالفعل بسلاسة مع تدفق الأشخاص الذين خرجوا للتو من العمل، وأخفى ارتباكه. في أثناء مغادرته لها، تقلص جسده بالكامل، وحينما تقدم بهذه الخطوة إلى الأمام، شعرت بصلابة ساقيه مثل عودين من الخيزران، كما لو أنه أصبح من المستحيل طيّهما من الركبتين. إنما بدا في عينيها أنه يمشي كأن شيئاً لم يحدث.

جعلتها سرعة رحلته تدرك أن ما قاله لم يكن مزحة، وشعرت أن أنفاسها تأتي مع صوت خفقان، مثل ريح تهب على قطعة من الورق معلقة في حائط.

صيف حارٌ

يؤمن لكِ وجود حبيب عديداً من وسائل الراحة، في سبيل المثال، حينما تريدين مشاهدة فيلم، سيكون ثمة شخص ما يشتري تذكرتكِ ويمدُّكِ بالخوخ والزيتون، وسيستغرق تناولها أياماً عدّة قبل انتهائها. وإذا تعلّق الأمر بالذهاب لمشاهدة معالم المدينة، فوجود حبيب يسهلُ الأمر أكثر، إذ يدفع لكِ ثمن الطعام والإقامة، ويحمل هذا أو ذاك من أجلكِ... يطلق عليهم اسم رعاة.

تحدثت وين هونغ، وهي تراقب الوجوه في مجال رؤيتها.

في أمسية صيفية، وبعد الاستحمام، كانت لي بينغ مستلقية في ثوب نومها على أريكة من الخيزران الهندي متوضعة في الشارع خارج منزلها. لم يكن الشارع، بدايةً، عريضاً جداً، وهو مزدحم جداً بالناس الذين يحاولون تخفيف حرارتهم، إلى درجة أنه أصبح الآن ضيقاً يشبه الممر. نُقلت كراسي الخيزران وغيرها من الأثاث من داخل المنازل إلى خارجها، حتى الناموسيات كانت مفتوحة. يحدث السكان المحليون ضجيجاً مستمراً، مثل سرب من النحل تجتذبه أزهار اللفت، وكان الشارع مكتظاً يشبه حقلاً من النباتات الخضراء الطازجة. في حين كانت لي بينغ مستلقية على أريكتها، تدلى شعرها الطويل خلف وسادتها، إذ نشفتّه بوساطة مروحة كهربائية كانت قد وضعتها على الأرض. تحدثت وين هونغ، الجالسة إلى جانبها، مرة أخرى: "مهلاً، أرى الراعي (الكفيل) الآن".

"من؟" وضعت لي بينغ يديها خلف رأسها وهزّت شعرها.

أجابت وين هونغ: "لي كيغانغ. هل أدعوه؟"

ضحكت لي بينغ ضحكة مفاجئة: "هذا معتوه؟"

قالت وين هونغ: "لقد رآنا".

"إنه قادم؟"

أومأت وين هونغ برأسها. "نعم".

قالت لي بينغ: "دعاني هذا المهوس للخروج معه".

همست وين هونغ: "لقد طلب إليّ أيضاً".

انفجرت الفتاتان من الضحك. سار لي كيغانغ إليهما بابتسامة في وجهه: "ما يضحككما؟" سأل.

ضحكت الفتاتان بصوت عالٍ، إحداهما انحنت مرتين تقريباً، والأخرى شبكت ركبتيها وهي تتمايل على الأريكة. وقف لي كيغانغ بلا حرج إلى جانبهما، وحافظ على ابتسامته. كان يرتدي قميصاً بأكمام قصيرة وسروالاً وحذاءً جلدياً لامعاً. مسح بظهر يده العرق عن جبهته. قال: "الجميع ينظر إليكما".

عند سماع ذلك، توقفت الفتاتان عن الضحك وألقتا نظرة سريعة حولهما. لقد لحظا أن قلة من الناس ألقوا نظرة اتجاههما. استعادت وين هونغ اتزانها وهزّت شعرها جيداً، في حين جلست لي بينغ وسحبت ثوب نومها لتغطي ركبتيها.

قال لي كيغانغ: "يجب أن تقصّا شعركما أيتها الفتاتان".

نظرت الفتاتان إليه ثم إحداهما إلى الأخرى.

"قُصّاه قصة صبيانية"، تابع لي كيغانغ.

تحدثت وين هونغ في هذه اللحظة، وقالت وهي تمرر يدها عبر شعرها: "أحب تسريحة شعري".

"أنا أحب تسريحة شعرك أيضاً،" قاطعتها لي بينغ.

نظرت إليها وين هونغ. "أين صففتِ شعرك؟"

"في روجيري، الموجود في شارع تشونغشان."

"قاموا بعمل جيد حقاً. هذه القَصَّة هي السائدة في أوروبا كلها هذه الأيام".

أومأت لي بينغ. رأيت هذه التسريحة في مجلة أجنبية. كان كل شيء باللغة الإنكليزية، وليس فيها حرف صيني واحد. وكذلك تسريحة شعرك مميزة. في ذلك الوقت كنت حريصةً حقاً على تصفيف شعري مثلك. إن شعرك يتناسب مع شكل وجهك حقاً".

"لين جينغ والفتيات الأخريات، قلن الشيء نفسه." لعبت وين هونغ بشعرها.

لاحظ لي كيغانغ كيف كانت الفتاتان تتحدثان إحداهما مع الأخرى ولم تعطِه أدنى اهتمام، لذلك حاول مقاطعتهما: "ما زلت أعتقد أن مظهر القصة الصبيانية أجمل. إنها لطيفة جداً، وإلى جانب ذلك، يزداد الطقس حرارة مع الشعر الطويل...".

قاطعته وين هونغ، وسألت: "ألست تشعر بالحرّ في سروالك الطويل؟"

نظر لي كيغانغ إلى سرواله: "إنه من الصوف، لا يشعرني بالحرارة".

صرخت وين هونغ بشدة: "هل ترتدي سروالاً صوفياً؟"

أومأ لي كيغانغ برأسه: "صوف بنسبة تسعين في المئة".

سرقت وين هونغ نظرة سريعة إلى لي بينغ: "واو، تسعون في المئة صوف".

ضحكت الفتاتان، وراقبهما لي كيغانغ بابتسامة. جلست لي بينغ على أريكتها المصنوعة من القش، وسألته: "لماذا لم تشترِ سروالاً من الصوف الخالص مئة في المئة؟"

جلس لي كيغانغ على الأرض وفك رباط حذائه، ثم أخرج قدمه اليسرى من حذائه، ووضعها على أريكة لي بينغ. أجاب مشيراً إلى خط مستقيم في ساقه: "هل ترين هذا الخط؟ لو كان من الصوف مئة في المئة، لما كان مستقيماً".

قالت لي بينغ: "يمكنك كيّه".

أومأ لي كيغانغ برأسه. "هذا صحيح، ولكن بعد ارتداء السروال مدة عشر دقائق، سيختفي الخط. السراويل المصنوعة من الصوف مئة بالمئة ليست جيدة".

مدت وين هونغ يدها وتحسست سروال لي كيغانغ، وقالت ملاحظتها: "أن السروال بهذه السماكة سيشعرك بالحرارة حتى لو كان من الصوف بنسبة تسعين في المئة". ثمّ انتقلت بالحديث إلى لي بينغ، وقالت، "ما رأيك؟"

أجابت لي بينغ: "يمكنك رؤية أنه سروال سميك مباشرةً. في الوقت الحالي، حين كنتَ قادماً إلى هنا، اعتقدت أنك ترتدي سروالاً قطنياً."

ضحكت وين هونغ: "اعتقدت أنه من قماش سيرج (صوف مزدوج النسيج)".

بابتسامة، رفع لي كيغانغ قدمه عن كرسي لي بينغ، ووضعها في حذائه، وانحنى لربط رباط حذائه. "بالطبع، بالمقارنة معهم..."، وأشار إلى عدد من الشباب الذين يمرون في سراويل قصيرة كالنمط الغربي: "مقارنة بهم، فهذا أكثر دفئاً. السراويل الطويلة هي دائماً أكثر دفئاً من السراويل القصيرة. يرتدي بعض الناس السراويل القصيرة طوال الصيف ويكشفون عن صدورهم أيضاً، وينتعلون الصنادل. هذا جيد بالنسبة لهم، لكنه لا يناسبنا. نحن في المناصب الرسمية في حاجة إلى الحفاظ على صورتنا. قد نهرب من ارتداء ملابس أنيقة، ولكن أقله علينا أن نبدو أنيقين، أليس كذلك؟"

في هذه الأثناء، أخرج لي كيغانغ منديلاً من جيبه ومسح جبينه. تبادلت وين هونغ ولي بينغ النظرات وابتسمتا على نحو تآمري. "إلى أين انتقل أعضاء المكتب الثقافي؟" سألت ون هونغ.

- "دير تياننينغ."

"هل انتقلتم إلى معبد؟" صاحت وين هونغ.

أومأ لي كيغانغ برأسه: "الجو رائع بالدير صيفاً."

"وماذا عن الشتاء؟" سألت لي بينغ.

اعترف لي كيغانغ: "في الشتاء... الجو بارد".

"لماذا لا تبنون لأنفسكم في المكتب الثقافي مبنى إداريّاً؟" قالت وين هونغ، "انظر كم هو مثير للإعجاب المقر الرئيس للمكاتب المالية والتجارية".

قال لي كيغانغ: "ليس لدينا المال. لا يوجد قسم لديه ميزانية أصغر من ميزانيتنا".

"إذاً، من بين الأشخاص الذين يشغلون مناصب رسمية، فأنتم الأفقر".

"لن أقول ذلك." ابتسم لي كيغانغ.

نظرت لي بينغ إلى وين هونغ: "بغض النظر عن مدى فقرهم، فهم لا يزالون مسؤولين، وسيكون المسؤولون دائماً في وضع أعلى منا." التفتت إلى لي كيغانغ: "أليس هذا صحيحاً؟"

ابتسم بتواضع: "لن أقول إننا نتمتع بمكانة أعلى منكم، ولكن مقارنة بالعامل العادي، فإن الحصول على وظيفة في وكالة حكومية هو أكثر كرامة قليلاً".

ضحكت الفتاتان. تطرق لي كيغانغ مرة أخرى إلى موضوع تسريحة شعرهم، مكرراً توصيته: "يجب أن تفكرا حقاً في الشعر القصير."

ضحكتا مرة أخرى _وبصوت عالٍ_ لكنه أخذ الأمر ببرود. وتابع: "قصّا شعركما كالطريقة التي تصفف بها سكارليت شعرها".

"من؟" سألت وين هونغ.

أجاب لي كيغانغ: "سكارليت، المغنية".

ردت الفتاتان: "أوه". قالت لي بينغ: "لا أستطيع أن أرى ما الرائع في تسريحة شعر سكارليت".

قالت وين هونغ: "وجهها مدبب للغاية".

ابتسم لي كيغانغ. "سأذهب الشهر المقبل إلى شنغهاي لمرافقتها إلى هنا".

عند سماع هذا، فوجئت الفتاتان، وبعد لحظة سألت وين هونغ: "سكارليت قادمة؟"

"صحيح." أومأ لي كيغانغ ضابطاً نفسه.

"من أجل تقديم عرض؟" سألت لي بينغ.

أومأ لي كيغانغ برأسه: "ستكلف أغلى المقاعد خمسين يواناً، حتى أرخصها ستكلف ثلاثين".

برقت عينا الفتاتين. قالتا: "عليك أن تحضر لنا تذكرتين".

قال لي كيغانغ: "لا مشكلة. إنني مشترك في إعداد الحفل بأكمله، لذلك لا توجد مشكلة على الإطلاق في الحصول على تذكرتين لكما."

قالت لي بينغ: "فلتكونا تذكرتين مجانيتين".

قالت وين هونغ: "هذا صحيح، أراهن أنه يمكنك الحصول على تذاكر كثيرة. أعطنا اثنتين مجاناً."

تردد لي كيغانغ لحظة: "حسناً، إنها على حسابي."

ابتسمت الفتاتان. قالت لي بينغ: "أعطِنا تذكرتي مقاعد الخمسين يواناً".

قالت وين هونغ: "نحن لا نريد مقاعد الثلاثين يواناً".

قالت لي بينغ: "هذا صحيح، لا تدعنا نجلس في الصف الخلفي، إذ لن نتمكن من رؤية وجه سكارليت."

تردد لي كيغانغ مرة أخرى، ومسح جبهته: "سأبذل قصارى جهدي للحصول على تذكرتي مقاعد الخمسين يواناً."

قالت وين هونغ: "لا تقل سأبذل قصارى جهدي. إنها خيبة أمل حقيقية حينما يقول شخص ما في موقعك، سأبذل قصارى جهدي".

ابتسمت لي بينغ: "هذا صحيح تماماً. يجب أن يكون سهلاً لشخص ما بمنزلتك أن يحصل على مقعدين رفيعي المستوى".

قال لي كيغانغ: "حسناً، إذاً، سأحضر لكما تذكرتين من فئة الخمسين يواناً".

أطلقت الفتاتان صيحات من البهجة. ابتسم لي كيغانغ، ونظر إلى ساعته، وأعلن أنه يجب عليه حضور بعض الأعمال. نهضت الفتاتان لتوديعه، وما إن رحل، تمتمتا الكلام نفسه تقريباً: "يا له من أحمق."

ضحكتا، وقالت وين هونغ: "إنه مغفّل حقيقي".

قالت لي بينغ: "في بعض الأحيان يكون للحمقى فوائدهم الخاصة".

ضحكت الفتاتان مرة أخرى. "متى طلب إليك الخروج معه؟" سألت وين هونغ بهدوء.

"العام الماضي. ماذا عنك؟"

"العام الماضي أيضاً". ضحكتا ضحكة أخرى. "كيف قام بذلك؟" استفسرت وين هونغ.

قالت لي بينغ: "لقد اتصل بي. اتصل بي وطلب إليّ مقابلته عند مدخل المكتب الثقافي. وقال إنه يوجد احتفال. إذ إن مدرّب الرقص قادمٌ من شنغهاي وسيعلمنا كيف نرقص. لذا ذهبت..."

- "لم ترِ مدرّب رقصة الصالة أبداً".

- "كيف عرفت؟"

- "لقد فعل معي الأمر نفسه في مواعدتي".

- "ثم طلب إليك الخروج في نزهة؟"

قالت وين هونغ: "هذا صحيح. هل ذهبت معه في نزهة؟"

- "مشينا قليلاً، وسألته عما إذا كان الوقت قد حان للذهاب إلى درس الرقص. قال لا، ما أراده هو أن نخرج في نزهة معاً، وسألته عما يدور في خلده".

- "هل قال إنه طلب ذلك حتى يتمكن تعرُّف أحدكما على الآخر بشكل أفضل؟"

أومأت لي بينغ: "قال لك الكلام نفسه؟"

أجابت وين هونغ: "هذا صحيح. سألته لماذا يريدنا أن يتعرّف أحدنا الآخر تعرُّفاً أفضل."

- "لقد سألته السؤال نفسه."

- "قال إنه يريدنا أن نكون أصدقاء، وسألته عن السبب".

فهمت لي بينغ أمره: "لقد كان بطيئاً في الإجابة".

قالت وين هونغ: "صحيح. فرك ذقنه مدة طويلة وأخيراً قال..."

قلّدت لي بينغ نبرة صوت لي كيغانغ: "لنرَ ما إذا كنا نقع في الحب".

انفجرت الفتاتان من الضحك. ضحكتا إلى درجة أنهما لم تتمكنا من الوقوف بشكل مستقيم، ومضت خمس دقائق كاملة قبل أن يتوقفا. ثم قالت لي بينغ: "حينما سمعته يقول نقع في الحب، وقف شعري".

قالت وين هونغ: "لقد كنت متحجرةً كفأر في فكي قطة". ومرة أخرى انفجرتا ضاحكتين. "كيف كان ردك؟" سألت وين هونغ.

"قلت إنني أريد العودة إلى المنزل."

قالت وين هونغ: "كان ردّك حضارياً جداً. أما أنا فقلت له: "لديك فرصة كبيرة كفرصة الضفدع الذي يتخيل البجعة."

بعد أسبوع من أسابيع عدّة، وصلت وين هونغ إلى شقة لي بينغ. كانت لي بينغ تتزين أمام المرآة، وقد انتهت لتوها من تمشيط شعرها، وبدأت ترسم حاجبيها. كانت تحمل قلم حواجب في يدها حينما فتحت الباب، وسألتها وين هونغ: "هل ستخرجين؟"

أومأت لي بينغ برأسها وعادت إلى مقعدها أمام المرآة: "أنا ذاهبة إلى فيلم".

"مع من؟" شنّفت وين هونغ أذنيها.

ابتسمت لي بينغ، لكنها لم ترد.

"لديك صديق!" هتفت وين هونغ. "من هو؟"

"ستكتشفين ذلك قريباً جداً."

"هذه هي الطريقة التي تريدينها". قامت وين هونغ بضرب لي بينغ. "لديك صديق، حتى إنك لم تخبريني."

"أنا أخبرك الآن، أليس كذلك؟"

"ثم سأبقى وألتقيه." جلست وين هونغ على الأريكة وشاهدت لي بينغ وهي تتبرج. في حين كانت لي بينغ ترسم شفتيها، قالت: "أحمر الشفاه المستورد هذا جيد حقاً."

فكرت وين هونغ في شيء ما: "لقد واجهت لي كيغانغ هذا الصباح. كان يرتدي ربطة عنق مستوردة. بدت رائعة حقاً".

قالت لي بينغ: "أعطته المغنية سكارليت إياها".

قالت وين هونغ: "هذا صحيح، هذا ما قاله لي". ثم قالت بشك: "كيف عرفت؟"

دلّكت لي بينغ وجهها بكلتا يديها: "قال لي".

ابتسمت وين هونغ. "هل تعلمين أمراً؟ تحب سكارليت لي كيغانغ ".

لدى رؤية لي بينغ وهي تهزّ رأسها في المرآة، سألت وين هونغ: "هل تعلمين ذلك أيضاً؟"

أجابت لي بينغ: "نعم".

"هل أخبرك بنفسه؟"

"صحيح."

"هذا لي كيغانغ..." بدت وين هونغ مستاءة. "أخبرني ألا أخبر أحداً، لكن الرجل يدور حول نفسه ويخبر كثيراً من الناس".

"لم يخبر كثيراً من الناس. أنا وأنت فقط، أليس كذلك؟"

"من يعرف؟" قالت وين هونغ.

وقفت لي بينغ وحاولت ارتداء الفستان الذي وضعته على السرير. "كيف أبدو؟" سألت.

قالت وين هونغ: "تبدين رائعةً. كم مرة قال لك ذلك؟"

"بشأن ماذا؟"

"بشأن مطاردته سكارليت."

"ليس كثيراً."

شاهدت وين هونغ حين كانت لي بينغ تدور من جانب إلى آخر في المرآة. "هل تعلمين أنه هو وسكارليت قضيا ليلة في غرفتها في الفندق؟"

دارت لي بينغ حولها وحدقت إلى وين هونغ: "قال لك ذلك أيضاً!"

"صحيح." كانت وين هونغ مسرورةً إلى حد ما. ثم لحظت شيئاً. "قال لك أيضاً؟"

يمكن أن ترى لي بينغ أن ثمة شيئاً غريباً في تعبير ون هونغ. استدارت وقالت مرتجلة: "سألته عن ذلك."

ابتسمت وين هونغ: "أنا لم أسأله. هو الذي قال لي".

ظهرت ابتسامة عابرة في وجه لي بينغ. وضعت وين هونغ ذراعيها على ظهر الأريكة، وحدقت في شخصية صديقتها. "لي كيغانغ هذا أنيق للغاية، ألا تعتقدين ذلك؟"

قالت لي بينغ: "هذا صحيح. وإلا، لماذا امرأة جميلة ولها شعبية مثل سكارليت تغرم به؟"

أومأت وين هونغ برأسها. ووضعت يديها في حجرها: "في الواقع سكارليت ليست جميلة. تبدو جميلة من بعيد، لكن حينما تقترب فهي ليست جميلة جداً".

"متى نظرت إليها عن قرب؟"

قالت وين هونغ: "لم أفعل. لقد أخبرني لي كيغانغ بذلك."

بدت لي بينغ غير سعيدة: "ماذا قال بالضبط؟"

بدت وين هونغ سعيدة: "قال إن سكارليت ليست جميلة مثلي."

"ليست جميلة مثلك؟"

"ليست جميلة مثلنا."

"نحن؟"

"أنا وأنت."

"ذكر اسمي؟"

"نعم."

"هذا ليس ما قلته في البداية."

نظرت وين هونغ إلى لي بينغ دهشة: "هل ثمة خطأ؟"

"مطلقاً." ضحكت لي بينغ بسرعة، ثم استدارت ونظرت إلى نفسها في المرآة. مسحت زاوية عينها بيدها اليسرى.

قالت وين هونغ: "إذاً أمضى الاثنان ليلة في الفندق، فماذا فعلا برأيك؟"

قالت لي بينغ: "لا أعرف. ألم يخبرك؟"

قالت وين هونغ مستفسرةً: "لا، لم يفعل".

قالت لي بينغ: "ربما لم يحدث شيء".

قالت وين هونغ: "لا. أحاطا ذراعي أحدهما الآخر".

"لقد كانت سكارليت هي من أحاطته بذراعيها" صرخت لي بينغ.

نظرت الفتاتان إحداهن إلى الأخرى مذهولتين. كانت لي بينغ أول من ضحكت، ثم وين هونغ. ما إن جلست لي بينغ، سمعت ثمة طرق على الباب، وحين كانت على وشك النهوض مرة أخرى، قالت وين هونغ: "سأفتح الباب".

مشت وفتحت الباب، لتجد لي كيغانغ مرتدياً ملابس أنيقة ويقف مبتسماً لدى عتبة الباب. لقد بدا، ومن الواضح أنه لم يتوقع أن تستقبله وين هونغ. بعد لحظة، أمال رأسه إلى الباب وقال لـ لي بينغ، وهي تسير نحوه: "تبدين رائعةً."

سمعت وين هونغ ضحكة صديقتها، التي مرت إلى جانبها وخرجت من الباب، ثم مدّت يدها لإمساك مقبض الباب. أدركت وين هونغ فجأة الأمر، وأسرعت حين أغلقت لي بينغ الباب خلفها. على الرصيف، أمسكت لي بينغ ذراع لي كيغانغ. وسألها: "هل لديكِ تذكرة؟"

هزت وين هونغ رأسها: "لا".

استدارت لي بينغ، ويدها في ذراع لي كيغانغ، بعيداً. بعد بضع خطوات، نظرت من فوق كتفها. "وين هونغ، ينبغي لنا الذهاب. زوريني في وقت آخر".

أومأت بنعم وين هونغ، وراقبتهما وهما يمشيان. حينما ذهبا عشرين ياردة أو نحو ذلك، اتجهت في الاتجاه الآخر، وهمهمت مستاءة: "هممم". حين ذهبت.

جبان كالفأر

-١-

ثمة تعبير يناسبني يبدأ بحرف ج (جبان كالفأر). هذا ما قاله أستاذي، حينما كنت في المدرسة الابتدائية. حدث هذا في أحد فصول الخريف، كما أتذكر، في درس اللغة الصينية. وقف المعلم على المنصة، مرتدياً سترة قطنية زرقاء داكنة فوق قميص أبيض نظيف. كنت جالساً في منتصف الصف الأمامي، أنظر إليه. وهو يحمل كتاباً في يده وأصابعه مغطاة بغبار الطباشير ذات اللون الأحمر والأبيض والأصفر. حين قرأ الدرس بصوت عالٍ، كان وجهه ويداه وكتابه بمستوى أعلى مني، ويصل رش بصاقه إلى وجهي باستمرار، لذا اضطررت كثيراً إلى رفع يدي ومسحه. لاحظ الأستاذ أن بصاقه يرش وجهي وأنني أُغمض عينيّ خوفاً حين تطير في اتجاهي، فتوقف عن القراءة ووضع كتابه، ثم نزل عن المنصة ومشى نحوي، ومدّ يده المبقعة بالطباشير، وربّتها على وجهي كما لو أنه يغسله. ثم عاد إلى طاولته لاستعادة كتابه، وبدأ يتجول في غرفة الصف وهو يقرأ الدرس. لقد قام بمسح البصاق الجاف عن وجهي، لكنه بذلك لطّخ وجهي بغبار الطباشير الأحمر والأبيض والأصفر. ضحك زملائي في الصف، لأن وجهي بدا الآن مبرقعاً مثل الفراشة.

في هذا الوقت، وصل المعلم بقراءة النص إلى مكانٍ حيث توجد عبارة "جبان كالفأر". وضع الكتاب بالمقلوب على فخذه. وسأل: "ما المقصود بـ

جبان كالفأر؟ إنه تعبير يستخدم لوصف شخص ليس لديه شجاعة أكثر من شجاعة فأر..."

ظل فمه مفتوحاً، لأنه يريد أن يضيف شيئاً آخر: "في سبيل المثال..."

تفحّصت عيناه غرفة الصف، لقد أراد أن يجد تشبيهاً، فهو يحب التشبيهات. فحين حاول مرةً شرح عبارة "يتعذر كبحه"، طلب من لو تشيانجين الوقوف وقال: "في سبيل المثال، لو تشيانجين، يتعذر كبحه. وتبدو حالته كما لو أن قشة ألصقت في مؤخرته طوال الوقت، فلن يجلس ساكناً أبداً". أو حينما جاء إلى عبارة "إذا وقع أحد شيئين مترابطين، فسيكون الآخر في خطر"، طلب من تشاو تشينغ الوقوف: "في سبيل المثال، لماذا يبدو تشاو تشينغ بائساً جداً؟ هذا لأن والده وافته المنية. فوالده هو الرابط المتعلق به، فلا بدّ أن يحزن لخسارته". هذه هي الطريقة التي أجرى بها أستاذنا قياساته: "في سبيل المثال، سونغ هاي... في سبيل المثال، فانغ داوي... في سبيل المثال، لين ليلي... في سبيل المثال، هو تشيانغ... في سبيل المثال، ليو جيشنغ... في سبيل المثال، شو هاو... في سبيل المثال، صن هونغ مي..."

الآن جاء دوري، فقال: "يانغ جاو".

وقفت منتصباً. نظر إليّ المعلم لحظة، ثم لوّح بيده: "اجلس".

جلست. نقر المعلم بأصابعه على المقعد: "كل أولئك الذين يخافون النمور، ارفعوا أيديكم".

رفع الجميع في الفصل أيديهم. قام المعلم بمسح شامل للغرفة: "اخفضوا أيديكم".

أخفضنا أيدينا. ثم قال: "كل أولئك الذين يخافون الكلاب، ارفعوا أيديكم".

عندما رفعت يدي، سمعت كثيراً من الضحك، فوجدت أن الفتيات فقط قد رفعن أيديهن، لكن لم يرفعها أي من الفتيان الآخرين. قال المعلم: "اخفضوا أيديكم".

أخفضت يدي مع الفتيات. قال المعلم الآن: "كل أولئك الذين يخافون من الأوز، ارفعوا أيديكم".

مرة أخرى رفعت يدي. انفجر الصف بأكمله في الضحك. هذه المرة كنت الشخص الوحيد الذي رفع يده، ولم ترفع أي من الفتيات يدها. أصبح زملائي في حالة نوبة ضحك هستيرية. المعلم لم يضحك، واضطر للنقر بحدّة على المقعد لاستعادة النظام. نظر إلى غرفة الصف ولم ينظر إلي وقال: "أنزلوا أيديكم". كنت الشخص الوحيد الذي كان عليه القيام بذلك. ثم وجه نظره إلي: "يانغ جاو."

وقفت. أشار إلي: "في سبيل المثال، يانغ جاو، حتى إنه خائف من الأوز..."

توقف للحظة، ثم تابع، بصوت عالٍ، إن يانغ جاو (جبان كالفأر)".

-٢-

إنه مُحق، إنني جبان كالفأر، فأنا لا أجرؤ على الاقتراب من النهر، ولا أجرؤ على تسلق الأشجار، وذلك لأنه قبل وفاة والدي، كان كثيراً ما يقول: "يانغ جاو، يمكنك الذهاب للعب في ملعب المدرسة أو على طول

الرصيف أو في منزل زميل الدراسة، وأي مكان مقبول، إنما لا تقترب من النهر ولا تتسلق الأشجار. إذا وقعت في النهر، فقد تغرق، وإذا سقطت عن شجرة، فقد تكسر رقبتك".

لهذا السبب كنت أقف مكاني في شمس الصيف، وأشاهد من مسافة بعيدة لعب كل من لو تشيانجين، وتشاو تشينغ، وسونغ هاي، وفانغ داوي، جنباً إلى جنب مع هو تشيانغ، وليو جيشنغ، وشو هاو. في حين يلعبون في النهر، أشاهدهم يرشون الماء، وأراقب رؤوسهم السوداء اللامعة ومؤخراتهم البيض اللامعة. غطسوا واحداً تلو الآخر في الماء وتركوا مؤخراتهم عرضة للهواء. أطلقوا على هذه اللعبة اسم (بيع القرع). "يانغ جاو، تعال!" صرخوا. "يانغ جاو، أسرع لبيع القرع!"

هززت رأسي بالنفي، وقلت: "سأغرق!"

سألوني: "يانغ جاو، هل ترى لين ليلي وسون هونغمي؟ انظر إنهن في الماء. تنزل الفتيات في الماء، أترى؟ أنت صبي، فكيف لا تنضم إلينا؟"

من المؤكد أنني استطعت أن أرى لين ليلي وسون هونغمي تتجولان في النهر بملابسهن الداخلية المشرقة وقمصان داخلية مبهجة، لكنني ما زلت أهز رأسي وأكرر: "سأغرق!"

لدى معرفتهم أنني لن أذهب إلى النهر، طلبوا مني أن أتسلق شجرة بدلاً من ذلك. "يانغ جاو" قالوا، "إذا لم ترغب بالنزول، فاذهب لتسلق شجرة."

أجبت: "لا أستطيع تسلق الأشجار".

قالوا: "كلنا نستطيع. لماذا أنت الوحيد الذي لا يستطيع؟"

قلت لهم: "إذا وقعت، فقد أكسر رقبتي".

وقفوا في طابور في الماء وقال لو تشيانجين: "واحد، اثنان، ثلاثة، اصرخوا..."

صرخوا في انسجام تام، "ثمة عبارة (جبان كفأر)، من هو المقصود بها؟"

تمتمت: "أنا".

"لم نسمع ذلك"، صاح لو تشيانجين.

فأجبت مرة أخرى: "إنها تشير إلي".

بعد سماع ذلك، لم يعودوا يقفون في طابور، بل عادوا إلى الماء، وبدأ الماء مرة أخرى في التعكير والهياج. جلست أمام شجرة وواصلت مشاهدتهم وهم يلعبون في النهر ويبيعون قرعهم الأبيض.

أنا فتى سهل الانقياد. هذا ليس كلامي، فهذا ما تقوله والدتي. غالباً ما تتغنّي في مدح ابنها لأشخاص آخرين: "إن ابننا يانغ جاو، أكثر فتى سهل الانقياد، إنه مطيع للغاية، ويعمل بجد. يفعل كل ما تطلبه منه. لم يواجه أي مشكلة خارج المنزل ولم يدخل في معارك مع الناس أبداً. لأنني لم أسمعه قط يقول أي كلمة قذرة..."

والدتي محقة. أنا لا أشتم الناس ولا أخوض معركة مع أي شخص. ولكن يوجد دائماً أشخاص يحبون اللحاق بي وشتمي أو خوض شجاراً معي. إنهم يلفون أكمامهم فوق مرافقهم وسراويلهم أعلى ركبهم، ويسدّون

طريقي، ويلكزون أنفي، ويبصقون في وجهي ويقولون: "يانغ جاو، هل لديك الشجاعة للقتال معنا؟"

أقول لهم: "لا، أنا لا أفعل".

"في هذه الحالة،" يقولون، "هل لديك الشجاعة لتشتمنا؟"

- "لا، ليس لديّ الشجاعة لذلك أيضاً".

"في هذه الحالة،" يقولون، "سوف نشتمك. اسمع! أنت أبله! أبله! أبله! أبله، وأحمق أيضاً!"

حتى الفتيات - مثل لين ليلي وسون هونغمي - يجعلنني أعيش أوقاتاً عصيبة. مرة، سمعت الفتيات الأخريات يقلن لهن: "أنتن تعرفن فقط كيف تتنمرن علينا نحن الفتيات. إذا كنتن قويات جداً، فلماذا لا تذهبن لتقاتلن صبياً؟"

"من قال إننا خائفون من الأولاد؟" أجابوا.

جئن ووقفن إلى جانبي وحوصرت بينهن. قلن: "يانغ جاو، نريد خوض معركة مع صبي، ما رأيك، لو اخترنا قتالاً معك؟ لن نتشاجر معك معاً، ستقاتلك واحدة منا. لذا اختر بيننا، لين ليلي أو صن هونغمي".

هززت رأسي: "لا، لن أختار بينكما. لن أتشاجر معكما".

رغبت في الابتعاد، لكن لين ليلي مدت ذراعها وأوقفتني وقالت: "لا تريد أن تتشاجر معنا، أو ليس لديك الشجاعة للشجار معنا؟"

قلت: "ليس لدي الشجاعة للشجار معكما".

سمحت لي لين ليلي بالذهاب، لكن بعد ذلك، أوقفتني صن هونغمي. وقالت: "لا يمكننا السماح له بالذهاب بهذه السهولة. نحتاج أن نجعله يقول (جبان كالفأر)."

لذلك قالت لي لين ليلي: "ثمة عبارة (جبان كالفأر)، إلى من تشير؟"

قلت: "إنها تشير إليّ".

-٣-

حينما كان والدي في قيد الحياة، قال لأمي: "هذا الصبي، يانغ جاو، مخنث جداً. حتى حين كان في السادسة من عمره، لم يجرؤ على التحدث إلى الناس، وفي الثامنة من عمره ، كان خائفاً جداً من النوم بمفرده، وفي العاشرة من عمره، لم يستطع أن يستجمع شجاعته ليتكئ على حاجز الجسر. والآن هو في الثانية عشرة من عمره، ولا يزال الأوز يخيفه".

كان والدي على حق. حينما صادفت قطيعاً من الأوز، تحوّلت ساقاي إلى هلام، ولم يكن في وسعي عمل شيء حيال ذلك. أكثر ما أخافني لمّا اندفعت نحوي، ومدّت أعناقها ورفرفت بأجنحتها، فاضطررت إلى الهرب في الاتجاه الآخر. وبعد منزل لو تشيانجين، ذهبت إلى منزل سونغ هاي السابق، ثم ذهبت إلى منزل فانغ داوي ولين ليلي، لكن الأوز استمرت في مطاردتي، وصاحت بكامل طاقتها طوال الطريق. مرّة، لحقت بي مباشرة خارج طريق يانغ فاميلي لين، وظلوا في إثري طوال طريق ليبراشن رووود حتى المدرسة. تجمّع الناس للمشاهدة، في حين تبعتني عبر الملعب وهي ما تزال تصيح خلفي، وسمعت لو تشيانجين يصرخ: "يانغ جاو، أركلها!"

لذا استدرت، واستهدفت أوزة في منتصف المجموعة وركلتها ركلة خفيفة، لكن ذلك جعلها تصيح بشدة، واندفعت نحوي بقوة أكبر، فاستدرت إلى اليمين وواصلت الهرب.

"اركلها!" صاح لو تشيانجين والآخرون، "يانغ جاو، اركلها!"

واصلت المضيّ بأسرع ما أمكنني، ومع تقدمي هززت رأسي: "إنها لا تخاف من ركلاتي."

"ارمِها بالحجارة!" صاح لو تشيانجين والآخرون.

قلت: "ليس لدي حجارة".

ضحكوا بصخب وصاحوا: "إذاً، من الأفضل أن تركض من أجل إنقاذ حياتك!"

هززت رأسي مرة أخرى: "لا يمكنني الركض. ما إن أفعل ذلك، سوف تضحكون عليّ".

"نحن نضحك عليك بالفعل!" قالوا.

ألقيت نظرة متفحصة إليهم، فرأيتهم يضحكون بشدة إلى درجة أن أفواههم كانت مفتوحة وأعينهم مغمضة وأجسادهم منحنية إلى الأمام والأسفل. قلت لنفسي، هذا صحيح، إنهم يضحكون عليّ، لذلك بدأت في الجري.

أوضحت لي أمي لاحقاً: " المشكلة في عيني الأوز، إذ ترى كل شيء بأنه أصغر مما هو عليه في الواقع، ولهذا السبب تتسم بالجرأة".

تابعت قائلة: "ترى عين الإوزة، باب مدخلنا مثل تجويف في الحائط، ونافذتنا مثل الفتحة في منفرج سروالك، ومنزلنا صغير مثل عش الدجاجة..."

ماذا عني إذن؟ في ذلك المساء، حينما استلقيت على السرير، ظللت أتساءل كيف أبدو في عيني إوزة. قررت أن أكبر ما يمكن أن أكونه كحجم أوزة أخرى.

-٤-

حينما كنت صغيراً، سمعتهن كثيراً يتحدثن عن مدى جبني. بكلمة (هنّ)، أعني والدة لو تشيانجين ووالدة سونغ هاي، وكذلك والدة لين ليلي ووالدة فانغ داوي. في الصيف، كن يجلسن في الظل تحت الأشجار ويتحدثن عن شؤون الآخرين. يثرثرن كثيراً، حتى بصوت أعلى من صوت السيكادا في الشجرة أعلاهن، ويتحدثن في موضوعات تافهة حتى تصل محادثتهن إليّ. تحدثن عن عدد المرات التي كنت فيها جباناً، وتحدثن عن والدي أيضاً، وقلن إنه جبان مثلي.

شعرت بالضيق حينما سمعت ذلك، وذهبت وجلست وحيداً أمام عتبة الباب. لقد سمعت للتو شيئاً لم أكن أعرفه من قبل. قلن إن والدي كان أبطأ سائق في العالم. وإن لا أحد يرغب الركوب في شاحنته، لأن الرحلة التي تستغرق ثلاث ساعات لدى السائقين الآخرين لن يتمكن والدي من إكمالها في خمس ساعات. لماذا؟ قلن إن السبب هو أن والدي كان جباناً جداً، وإنه يخاف أن يقود سيارته بسرعة. خائف من ماذا؟ خائف أن يتعرض لحادث ويموت.

رآني لو تشيانجين والآخرون جالساً وحيداً أمام عتبة الباب. جاؤوا ووقفوا أمامي وقالوا ضاحكين: "والدك جبان، مثلك تماماً. جبنك وراثي. لقد ورثته عن والدك، الذي ورثه عن جدك، وجده ورثه عن جد جدك..."

لقد مروا بالعشرات أو نحو ذلك من أجداد أجدادي ثم سألوا: "هل يمتلك والدك الشجاعة للقيادة وعيناه مغمضتان؟"

هززت رأسي، وقلت: "لا أعرف. أنا لم أسأله قط".

قال لو تشيانجين إن والده يمكنه ابتلاع خنزير يوركشاير كاملاً دفعة واحدة، فوالده يذبح الخنازير. قال لو تشيانجين: "لديك عينان في رأسك. يمكنك أن ترى بنفسك أن والدي أقوى من خنزير يوركشاير".

قال سونغ هاي إن والده جراحاً ويجري عمليات جراحية لنفسه بانتظام: "غالباً أستيقظ في منتصف الليل، وأرى والدي جالساً إلى جانب طاولة الطعام، ورأسه إلى أسفل، ومصباح يدوي بين أسنانه كي يضيء الضوء على بطنه. إنه يخيط نفسه".

ثم يقول فانغ داوي إن والده يمكنه إحداث ثقب في الحائط بلكمة واحدة فقط. حتى والد ليو جيشنغ - وهو نحيف جداً، ولا يوجد لحم يكسو عظامه، الذي يقضي نصف العام في سرير المستشفى- يقول ليو جيشنغ إنه يستطيع قص أظافره إلى نصفين بأسنانه.

"إذاً، ماذا عن والدك؟" هم يسألون. "ماذا يمكنه أن يفعل؟ هل لديه الشجاعة ليقود وعيناه مغمضتان؟"

هززت رأسي مرة أخرى. "لا أعلم".

"إذاً، أسرع واسأله".

بعد مغادرتهم، جلست على عتبة الباب، في انتظار عودة والدي. في وقت متأخر من بعد الظهر، عادت والدتي إلى المنزل، ورأتني جالساً هناك في حالة ذهول، فسألت: "يانغ جاو، ماذا تفعل؟".

أجبت: "أجلس على عتبة الباب".

قالت: "أستطيع أن أرى ذلك. ما أريد أن أعرفه هو، لماذا أنت جالس هنا؟"

قلت: "أنتظر عودة أبي إلى المنزل".

بدأت الأم تُحضِّرُ العشاء. حين سكبت الماء من الوعاء لتصفية الأرز، قالت: "تعال إلى الداخل، وساعدْني في غسل الخضار."

لم أذهب. بقيت جالساً على عتبة الباب، وعلى الرغم من أن والدتي نادتني كثيراً، فقد واصلت الجلوس هناك، حتى حلول الليل، إذ عاد والدي إلى المنزل. بدت خطواته ثقيلة وبطيئة في الشارع المظلم، ثم ظهر في الزاوية حاملاً حقيبة قديمة رثّة. مع اقتراب ظله الأسود، أضاء ضوء المنزل على قدمه، ثم صعد إلى ساقيه، وحينما وصل الضوء إلى صدره، توقف وانحنى. كان رأسه لا يزال في الظل حين سألني: "يانغ جاو، ماذا تفعل هنا؟"

قلت: "كنت أنتظر عودتك إلى المنزل". وقفت وتبعته إلى الداخل. جلس على كرسيّ، ووضع ذراعيه على الطاولة. نظر إليّ، حينما سألت: "هل تجرؤ على القيادة وعيناك مُغمضتان؟"

ابتسم والدي وهزّ رأسه. "لا يمكنك القيادة وعيناك مغمضتان".

"لم لا؟" قلت. "لماذا لا يمكنك القيادة وعيناك مغمضتان؟"

أجاب: "إذا قدت وعيناي مغلقتان، فسأتعرض لحادث اصطدام وأموت".

-٥-

أمي على حق، إنني سهل الانقياد. لقد حصلت على وظيفة جيدة الآن، في أعمال النظافة في مصنع الآلات. أنا في المصنع نفسه وفي المتجر نفسه مع لو تشيانجين. إنه فنّي، لذا تملأ بقع الزيت يديه وملابسه كاملة، لكنه سعيد تماماً. يقول إنه حصل على وظيفة فيها مهارة، وينظر باحتقار إلى العمل الذي أقوم به، قائلاً إن وظيفتي لا تحتاج إلى مهارة. صحيح، إن عملي لا يحتاج إلى مهارة، فكلُّ ما عليّ فعله هو أخذ مكنسة وكنس الأرضية الخرسانية للمحل. لذلك ليس لدي أي مهارة، ولكن لا يوجد أي بقعة زيت على يدي أو ملابسي، في حين أن أظافر لو تشيانجين سوداء متسخة. وقد أصبحت أظافره هكذا منذ مجيئه إلى المصنع.

في الواقع، في بداية عملنا، كان لو تشيانجين هو البوّاب وأنا الذي كنت الفنّي. إنما رفض لو تشيانجين أن يكون بوّاباً، وذهب لرؤية المدير والإزميل في يده. غرز الإزميل في مكتب المدير وقال إنه لن يكون بواباً، وأصر على إعادة تعيينه. هذه هي الطريقة التي أتينا بها أنا ولو تشيانجين إلى تبادل المناصب، إذ أصبح هو فنّي وأنا بوّاب. بعد أن أصبح فنّيّاً، سلمني الإزميل، وطلب مني أن أغرزه في مكتب المدير تماماً كما فعل. سألته لماذا.

قال: "إذا وضعتها في مكتبه، فلن تضطر إلى أن تكون حارساً بعد الآن".

"ما هو العيب في كوني بوّاباً؟" سألت.

قال: "اللعنة، أنت كالأبله. أن تكون حارساً، هو أكثر الوظائف مهانةً على الإطلاق، ألم تدرك ذلك بعد؟"

"نعم، أدرك ذلك. أعرف أن أيا منكم ليس على استعداد أن يعمل بوّاباً".

وضع يديه على كتفي وبدأ يدفعني. قال: "إذا كان يروقك هذا العمل، فلا بأس بذلك. هيا اذهب".

دفعني للخروج من المشغل. تقدمت بضع خطوات إلى الأمام، ثم استدرت وعدت إلى الداخل. لو تشيانجين سد طريقي. "ماذا تفعل هنا مرة أخرى؟" سأل.

قلت: "إذا غرزت الإزميل في مكتب المدير، ثم أجبرني أن أكون حارساً، فماذا أفعل بعد ذلك؟"

"هذا ليس ما سيحدث!" قال لو تشيانجين. "كل ما عليك فعله هو غرز الإزميل في المكتب وسيشعر المدير بالخوف. وإذا خاف، فسوف يسمح لك بالعودة إلى عملك فنّي مرة أخرى". هززت رأسي. "المدير لن يخاف بهذه السهولة".

"ماذا تقصد بذلك؟" قال لو تشيانجين. بدأ يدفعني مرة أخرى. "لقد أخفته، أليس كذلك؟"

قلت له: "لقد أخفته أنت، لكنه لن يخافني".

نظر إليّ لو تشيانجين باهتمام للحظة ثم سحب يديه. قال: "أنت على حق. لن تخيف المدير، ولن تخيف حتى شخصاً سخيفاً. لقد وُلِدت لتنظيف الأرض".

لو تشيانجين محق. لقد ولدت لأكنس الأرضيات. أنا أحب الأرضيات. أحب كنس أرضية المشغل حتى يصبح نظيفاً. أحب المشي ذهاباً وإياباً في المتجر

والمكنسة في يدي، وحتى حينما أجلس لأَخْذِ استراحةٍ أحب حمل المكنسة. يقول الرجال في المتجر: "يانغ جاو، إن الطريقة التي تعانق بها تلك المكنسة، تبدو كما لو كنت تداعب امرأة."

أعلم أنهم يسخرون مني، لكنني لا أعيرهم أي اهتمام، لأنهم يسخرون دائماً. ليس لدي أي فكرة عن سبب حبهم للضحك عليّ كثيراً. حين يشاهدونني أكنس الأرض، فإنهم ينفجرون ضحكاً؛ وإذا مشيت، فإنهم يشيرون إلي ويضحكون إلى درجة الانفجار. حينما أصل قبلهم، فإنهم يعتقدون أن هذه مزحة رائعة، وحينما أنهي العمل في وقت متأخر عنهم، فإنهم يعتقدون أن هذه مزحة رائعة أيضاً. في الواقع، أبدأ وأنتهي في الوقت المناسب تماماً، في الوقت الذي يحدده المصنع، لكنهم يسخرون مني جميعاً، لأنهم دائماً يبدؤون متأخرين ويغادرون مبكرين. قال لو تشيانجين ذات مرة: "يانغ جاو، يبدأ الجميع متأخرين وينتهون مبكرين، فلماذا تبدأ في الوقت المحدد وتنتهي في الوقت المحدد؟"

قلت له: "هذا لأنني مطيع للأوامر".

نظر إلي وهز رأسه. "لا، هذا لأنك جبان".

لا أشعر أنني جبان، بل لأنني أحب وظيفتي هذه. لا يحب لو تشيانجين وظيفته، ولا يحب وظيفة الفنّي ذات المهارة التي حصل عليها بالإزميل، لذلك يأتي إلى العمل متأخراً كل يوم. إنه لا يحضر متأخراً فحسب، بل غالباً ما يسحب بساطاً قديماً إلى ركن من أركان الورشة ويأخذ قيلولة فيها. في بعض الأحيان، يأتي سونغ هاي وفانغ داوي للحديث والتواصل، والتسلل من عملهم في أثناء ساعات العمل، وحينما يرون لو

تشيانجين يشخر بعيداً على تلك سجادته القديمة، يصرخون عليه كي يستيقظ: "اللعنة، أنت تعرف حقاً كيف تريح نفسك، أليس كذلك؟ ها أنت نائم في العمل. يمكنك أيضاً إحضار سريرك من المنزل ونقله مباشرة إلى هنا".

في لحظات كهذه، يفرك لو تشيانجين عينيه ويضحك ضحكة مكتومة، وسيقول: "أنتم لا تعملون اليوم يا رفاق؟"

قال فانغ داوي ورفاقه: "نحن نعمل جيداً، لكننا تسللنا لأخذ قسط من الراحة".

"حسناً، ألا تفعلون الشيء نفسه؟" يقول لو تشيانجين. "أنتم يا رفاق تريحون أنفسكم جداً".

ثم ناداني فانغ داوي والآخرون: "يانغ غاو، في كل مرة نأتي فيها إلى هنا نراك تمسح الأرض. لماذا لا تحذو حذو لو تشيانجين، وتأخذ غفوة على تلك السجادة القديمة؟"

هززت رأسي: "أنا لا أخذ قيلولة أبداً".

"لم لا؟" يسألون.

أجبت والمكنسة في يدي: "أحب عملي".

عند سماع ذلك، انفجروا ضاحكين. وجدوا هذا غريب جداً. "هل يمكنك تصديق ذلك؟" يقولون. "لا يزال ثمة شخص في العالم يحب كنس الأرضيات".

هذا ليس غريباً بالنسبة إلي، لأنني أحب حقاً تنظيف ورشة العمل حتى تصبح لامعة. أقوم بمسح جميع الآلات الموجودة في المصنع حتى تلمع

أيضاً. بسببي، أصبحت ورشة عملنا هي الأنظف في المصنع بأكمله. يتمنى الناس في المتاجر الأخرى أن أعمل معهم، لكن الناس في ورشتنا لن يسمحوا لي بالذهاب. الجميع يعرف ذلك - في المصنع، وفي الخارج أيضاً. حتى زملائي القدامى في الصف لين ليلي وسون هونغمي يعرفون ذلك، لأنه ما إن قالا: "يانغ جاو، أنت أفضل عامل في مصنعك، ولكن في كل مرة يمنحون فيها جوائز أو يخصصون سكناً، فأنت دائماً مستبعد... انظر إلى لو تشيانجين، إنه دائماً ما يأخذ قيلولة في العمل، لكنه يحصل على علاوة، ويحصل على شقة. إنه لا يقوم بأي عمل، لكنه يحصل على كل شيء".

قلت لهم: "لست مهتماً به. لدى لو تشيانجين طرائق لإنجاز أموره. ولكني لست كذلك. ليس لدي طريقة لإنجاز أي شيء".

"ما هي طرائق لو تشيانجين لإنجاز أموره؟ ماذا يوجد غير تهديد مدير المصنع بسكين؟"

لقد فهموا ذلك على نحو مغلوط. لم يستخدم لو تشيانجين سكيناً لتهديد المدير. لقد استخدم إزميلاً حينما حصل على وظيفته أوَّلَ مرة، لكنه لم يستخدم ذلك لاحقاً. حينما سمع أن بعض العمال سيحصلون على علاوات، ذهب خالي اليدين إلى مكتب المدير كل صباح كما لو كان مكان عمله، وليس ورشتنا. كان يذهب إلى مكتب المدير، ويجلس على أحد كراسي المدير، ويشرب شاي المدير ويدخن سجائره، ويتحدث إليه ساعات متتالية. استمر ذلك حتى قال له المدير في أحد الأيام: "لو تشيانجين، تمت الموافقة الآن على قائمة أولئك الذين يحصلون على علاوات، واسمك فيها."

ثم عاد لو تشيانجين إلى ورشة عملنا للعمل. منذ ذلك الحين، لم تَخْلُ السجادة القديمة الموجودة في ركن المتجر أبداً، فيمكنك رؤية جسد ممدود عليها طوال ساعات اليوم.

تستمر أجور لو تشيانجين في الارتفاع، في حين أن أجرتي لا تتغير أبداً. حاول لو تشيانجين تعليمي. قال: "يانغ جاو، فكر فقط، حين جئنا إلى المصنع أوَّل مرة، كان لدينا الأجر نفسه تماماً. مرت سنوات، وأنا أستمر في قيلولة كل يوم وأنت تستمر في العمل باستنزاف، ومع ذلك أتقاضى أكثر مما تتقضاه. هل تعرف لماذا هذا؟"

"لماذا؟" سألته.

"هذا لأن البؤس نصيب الجبان، والثروة تفضل الجرأة".

هززت رأسي بعدم الموافقة: "لم أذهب لأرى المدير، لا لأنني جبان، بل لأنني أشعر أنني أكسب ما يكفي من المال. لذلك لا يزعجني أنني أكسب أقل منك".

ضحك لو تشيانجين ضحكة مكتومة طويلة جداً بعد سماع ذلك. قال: "أنت لا تصدق".

لو تشيانجين صديق جيد. إنه دائماً ما يضع اهتماماتي في صميمه. بعد أن بنى المصنع مبنى جديداً من المساكن، جاء ليقدم لي المزيد من النصائح: "يانغ جاو، هل رأيت؟ انتهى أخيراً بناء هذا المبنى السكني الجديد. لقد استغرق بناؤه ثلاث سنوات كاملة، اللعنة عليه. نحن في حاجة إلى الذهاب لمقابلة المدير ومطالبته بتخصيص مساكن جديدة لنا.

ما عليك أن تدركه هو أنه بعد تخصيص هذا السكن لن يبنوا أي بناء جديد مدة عشر سنوات أخرى، لذلك علينا أن نحصل بأيدينا على شقة الآن، بغض النظر عما يتطلبه الأمر".

"ماذا تقصد، بغض النظر عما يتطلبه الأمر؟" سألت.

قال: "ابتداءً من اليوم، أنا سأنام في منزل المدير".

كان لو تشيانجين صادقاً في كلامه. في الليل، ذهب بمرح إلى منزل المدير حاملاً لحافاً بين ذراعيه. أمضى لو تشيانجين هناك ثلاث ليالٍ فقط قبل أن يحصل على مفتاح الشقة الجديدة. لوح المفتاح في وجهي: "انظر الى هذا؟ هذا هو المفتاح! هذا هو مفتاح شقتي الجديدة".

أخذت مفتاح لو تشيانجين في يدي وفتشته. لقد كان مفتاحاً جديداً، بالتأكيد. "حينما ذهبت إلى منزل المدير ولحاف بين ذراعيك، ماذا قال لك المدير؟" سألت.

"ماذا قال المدير؟" فكر لو تشيانجين للحظة وهزّ رأسه. نسيت ما قاله بالضبط. كل ما أتذكره هو ما قلته له. قلت إن شقتي كانت صغيرة جداً، ولا يوجد مكان لي للنوم، لذلك أنتقلت إلى منزله طوال الليل..."

قاطعته: "شقتك أكبر من أي شقة شخص آخر. كيف يمكنك القول إنه ليس لديك مساحة للنوم؟"

أجاب لو تشيانجين: "هذا يسمى تكتيكاً. أقوم به على هذا النحو حتى يتضح للمدير أنه إذا لم يمنحني شقة جديدة فسأبقى في منزله. في الواقع، هو يعلم جيداً أن لديّ شقة كبيرة، لكنه أعطاني هذا المفتاح حقاً".

بعد ذلك، قال لي لو تشيانجين: "يانغ جاو، سأخبرك بما ينبغي لك فعله. بدءاً من اليوم، خذ كل القمامة التي تجمعها حين تكنس أرضية الورشة، وأَفرغها خارج شقة مدير المصنع. في غضون ثلاثة أيام، سيضع المدير مفتاحاً جديداً بين يديك".

قال هذا، وهو يؤرجح مفتاحه أمام عيني: "مفتاح جديد تماماً مثل هذا".

هززت رأسي: "على الرغم من أن شقتي صغيرة، إلا أن ثمة مساحة كبيرة لي ولأمي. لست في حاجة إلى شقة جديدة".

حينما سمعني أقول ذلك، صفقني لو تشيانجين على كتفي وضحك: "ما زلتَ مخنثاً، تماماً مثل والدك."

-٦-

قالوا جميعاً إن والدي كان جباناً، وإنه لم يغضب قط من أي شخص ولم يرفع صوته البتّة، حتى حين وضع الآخرون أصابعهم في وجهه، وبإمكانهم الإمساك به من ياقة سترته وإلقاء الشتائم عليه، إلا أنه لن ينبس ببنت شفة. قالوا إنه سينحني ويظهر الاحترام لكل شخص يقابله، وسيُزين وجهه بابتسامات حتى لو تصادف متسولًا يريد أن يأكل وجبته. قالوا إن أي شخص آخر سيطلب إلى المتسول المغادرة وسيركل مؤخرته، لكن والدي يسقيه ويطعمه، مع ابتسامة ملتصقة في وجهه طوال الوقت. لقد تناقلوا هذه القصص كلها عن كون والدي مخلوقاً جباناً، واختتموها بتعليق كيف يمكنه ألّا يدخن ولا يشرب الكحول.

ما لم يعرفوه هو أن والدي بدا جيداً حقاً وهو يجلس في شاحنته. حينما يسير والدي باتجاه شاحنته الصغيرة، يدوّي صوت خطواته أعلى من المعتاد وتتأرجح ذراعاه في قوس أوسع. كان يفتح الباب، ويجلس وراء مقوده، ويرتدي ببطء زوجاً من القفازات القطنية البيضاء، ويضع يديه بقفازيهما على عجلة القيادة وتضغط قدمه في الأسفل على دواسة الوقود، وينطلق مبتعداً في شاحنته الصغيرة.

قالوا إن والدي لم يجرؤ قطّ على شتم أي شخص، ولا حتى زوجته وطفله، وهم بهذا على حق، لم يشتم أبي والدتي ولم يسبّني قطُّ. غير أنه حين يسرع والدي في قيادة شاحنته على الطريق السريع، يخرج رأسه من النافذة ويصرخ في المارة: "هل تحاول أن تقتل نفسك؟"

كان ذلك حين كنت جالساً في المقعد المجاور له، وأشاهد أوراق الأشجار وأغصانها وهي تتخطى نافذة الشاحنة، وأراقب الطريق مباشرة وهو يتلألأ في ضوء الشمس. وقد رأيت مشهداً كبيراً للمشاة الذين ظهروا على جانبي الطريق السريع، فإذا تحرك أحدهم وبدا كما لو كان على وشك عبور الطريق، يصرخ والدي: "هل تحاول قتل نفسك؟"

كان والدي يدير رأسه وينظر إلي. كانت عيناه تتألقان بثقة الرجل المسيطر سيطرة كاملة. "يانغ جاو"، يقول، "ألقِ نظرة جيداً، في المرة القادمة ستكون أول شخص يصرخ."

ثم أبقيت عيني مفتوحتين، وراقبت الناس يمشون إلى جانب الطريق.

رأيت شخصاً في الأمام يبدأ في العبور، فقط لأنه غيّر رأيه وعاد إلى الحارة الجانبية. أمسكت بإطار النافذة بكلتا يدي وانفتح فمي ولكن لم تخرج أي كلمة. كنت خائفاً جداً.

قال والدي: "ليس ثمة ما نخاف منه، ولا يمكنهم اللحاق بنا".

شاهدت شاحنتنا وهي تجتازه. سرعان ما أصبح الرجل مجرد صورة صغيرة تنحسر في المسافة البعيدة، وعرفت أن والدي كان على حق فلا يمكن للناس على الطريق أن يلحقوا بنا، ويمكنني أن أصرخ عليهم دون أدنى تردد. وضعت يدي على دعامة النافذة مرة أخرى، وقمت بمراقبة دقيقة للأشخاص الذين يسيرون إلى جانب الطريق. حينما حاول شخص آخر العبور، شعرت أن جسدي يرتجف في كل مكان وأطلقت صيحة ضعيفة: "هل تحاول قتل نفسك؟"

قال والدي: "لم يكن صوتك عالٍ بما فيه الكفاية. أنت في حاجة إلى الصراخ بصوت أعلى من ذلك."

استطعت أن أرى في مرآة الرؤية الخلفية كيف تركت الشاحنة الرجل خلفها بسرعة، وصرخت بكل قوتي: "هل تحاول قتل نفسك؟"

ثم عدت إلى المقعد. شعرت بالإجهاد التام. كان والدي يضحك وهو يمسك عجلة القيادة، وبعد لحظة أو اثنتين بدأت أضحك على نفسي.

-٧-

أحب أن أكون مع لو تشيانجين، لأنه متهور للغاية. إنه أكثر شجاعة حتى من تشاو تشينغ أو سونغ هاي أو فانغ داوي أو هو تشيانغ أو ليو

جيشنغ أو شو هاو. على الرغم من أنه الأصغر والأكثر نحفاً في المجموعة، هو الأكثر جرأة. غالباً أتساءل عما إذا كان لدى لو تشيانجين عينان مثل عيني الإوزة، إذ يبدو الجميع صغيراً في عينيه، ولهذا لا يخاف من أحد. أصيب بثلاث طعنات في وجهه، كلها جروح ألحقها بنفسه باستخدام ساطور مطبخ، إذ ركض إلى المنزل بعد أن خسر معركة، والتقط ساطور المطبخ، ثم طارد خصمه. فلما أمسك به جرح نفسه في وجهه، ثم رفع الساطور وتقدم إلى عدوّه الذي تماسك في خوف.

في وقت لاحق، قال سونغ هاي والآخرون: "لن يجرؤ أحد قط على جرح وجهه بساطور، لكن لو تشيانجين سيفعل ذلك. لهذا السبب يخافه الجميع".

"لماذا يوجد جرح في وجهك؟" سألته.

قال لو تشيانجين: "فعلت ذلك لأظهر للرجل الآخر أنني لن أتوقف عند أي حد. تعرف ما يقولون، (الجبان يخاف الجريء، والجريء يخشى الطائش)".

حينئذ، أدركت أن لو تشيانجين كان أكثر جرأة من الجريء _لقد كان متهوراً. وماذا يُخيف المتهورين؟" سألته.

"إنهم لا يخافون من أي شيء."

كان مخطئاً في هذا، يمرّ الأشخاص المتهورون بلحظات يخافون فيها أيضاً، ولو تشيانجين مثال على ذلك. في إحدى الليالي، كان الوقت متأخراً جداً، حينما كنت أنا ولو تشيانجين نعمل معاً في الوردية الأخيرة من ذلك

اليوم. غادرت المصنع قبله، وسرت في شارع خالٍ من الأضواء. بدأت السماء تمطر، فاحتميت تحت أفاريز منزل، ووقفت هناك في الظلام بعض الوقت. ثم سمعت خُطا تقترب، لكنني لم أستطع أن أرى ما هي - كل ما استطعت أن أفهمه على نحو غامض رؤية خيال خافت. حينما اقترب الشخص، استطعت أن أرى أنه كان يرتدي معطفاً فوق كتفيه ويسير نحوي ورأسه إلى أسفل. حين مرّ أمامي سعل، وعلى الفور عرفت من يكون. إنه لو تشيانجين، بسبب إصابته بنزلة برد، لقد سعل طوال اليوم. حينما سعل بدا صوته مثيراً للاشمئزاز أكثر من صوت شخص يتقيأ_وبدا الأمر كما لو أن حلقه مسدوداً بالرمل. لقد أصيب بسعال مطول ومتقطع في أثناء مروره.

بحلول هذا الوقت، لا بدّ أنني وقفت تحت أفاريز سود قاتمة مدة عشر دقائق. على الرغم من أن المطر لم يبلل وجهي، فقد غمر حذائي تماماً. لقد سررت للغاية برؤية لو تشيانجين وهو يأتي فانطلقت وأحطته بذراعي. شعرت بتقلص جسده وسمعته يصرخ في ذعر: "أنا رجل! أنا رجل! أنا رجل!"

لم أسمع صراخاً من هذا القبيل مطلقاً _لقد كان يشبه إلى حد ما الصياح الذي يصدره الديك، ولا يشبه على الإطلاق نوع الصراخ الذي تتوقع أن تسمعه من لو تشيانجين، فهو لم يتكلم أو يصرخ بنبرة الصوت تلك من قبل. انفلت من قبضتي وبدأ يركض بكل طاقته، وفي غمضة عين اختفى قاب قوسين أو أدنى. لقد هرب بسرعة كبيرة، ولم يكن لديّ الوقت كي أخبره أنني أنا. ما إن وضعت ذراعي حوله، صرخ، وقد أذهلني كثيراً أنه بحلول الوقت الذي تعافيت فيه من دهشتي، كان قد اختفى بالفعل بعيداً.

في تلك الليلة كنت في حيرة من أمري، لكنني لم أستطع معرفة سبب صراخه (أنا رجل). كنت أعرف أنه كان رجلاً، وهو واضح لي، وما لم أفهمه هو لماذا كان عليه أن يقول ذلك. لم يكن في حاجة إلى قول ذلك لي لأعرف أنه رجل. لم يكن الأمر كذلك حتى اليوم التالي، في منزل سونغ هاي، حينما جلست مع لو تشيانجين وتشاو تشينغ وسونغ هاي وفانغ داويو هو تشيانغ وليو جيشنغ وشو هاو، علمت لماذا صرخ لو تشيانجين بهذه الطريقة.

كان لو تشيانجين جالساً أمامي. قال وهو يحمل سيجارة في يده وفنجان شاي في اليد الأخرى: "حاول شخص ما اغتصابي الليلة الماضية".

"امرأة حاولت اغتصابك؟" سأل سونغ هاي.

قال لو تشيانجين: "رجل. لقد ظنَّني امرأة..."

"كيف يمكن أن يخطئ بينك وبين امرأة؟" سألوا.

قال لو تشيانجين: "كنت أضع هذا المعطف ذا الألوان الزاهية على كتفي. وكانت السماء تمطر حينما خرجت من العمل، لذلك أمسكت بمعطف إحدى النساء في الورشة ورميته فوق رأسي. خرجت من البوابة ووصلت إلى طريق آرمي إيميوليشن. هذا الطريق اللعين لم يكن فيه أي مصباح، وما إن بدأت في السير على الطريق، قفز المغتصب عليّ من الخلف وأحاطني بذراعيه..."

"لهذا السبب صرخت أنا رجل!" صرخت بسعادة. "صرخت بسبب وجود معطف نسائي على كتفيك..."

قاطعوني: "ماذا فعلت حينما وضع ذراعيه حولك؟" سألوا لو تشيانجين.

ألقى نظرة إلي: "أمسكت بيديه، وبحركة خفّة سريعة من خصري رميته مثل كيس على الأرض..."

"وثم؟"

"ثم..." ألقى إليّ لو تشيانجين نظرة أخرى. "وضعت قدمي في فمه وقلت: "أنا رجل".

بعد سماع ما قاله لو تشيانجين، استدار سونغ هاي والآخرون ونظروا إلي، كما لو أنهم تذكروا ما قلته للتو. أشار سونغ هاي إلي: "ما الذي قاله للتو؟"

ضحكت. لذلك عادوا إلى سؤال لو تشيانجين: "ماذا بعد؟"

"ثم،" تابع لو تشيانجين، وعيناه مثبتتان عليّ: "لقد ركلته مرات عدّة، ثم حملته ولكمته على وجهه مرات عدّة، ثم... ثم..."

حينما رأى لو تشيانجين أنني كنت أضحك بشدة، نظر إليّ: "يانغ جاو، ما المضحك؟"

قلت: "في الواقع، لم يكن لدي أي فكرة أنك ترتدي معطفاً نسائياً. لقد كان المكان مظلماً جداً، ولا توجد طريقة لمعرفة ما كنت ترتديه".

شحب وجه لو تشيانجين. نظر سونغ هاي والآخرون إلي. "ماذا قلت؟" لقد سألوا.

أشرت إلى نفسي. قلت: "أنا من أحطّك بذراعي الليلة الماضية".

لقد ذهلوا. نظرت إلى لو تشيانجين: "ركضت الليلة الماضية بسرعة كبيرة، ولم تتح لي الفرصة لأخبرك أنني كنت أنا. هربت بعيداً عن الأنظار في ومضة".

قفز لو تشيانجين واقفاً، ووجهه غاضب. اقترب مني ورفع يده وصفعني صفعتين مدويتين على أذني جعل رأسي يدور. ثم حملني من ياقة سترتي وأخرجني من مقعدي. في البداية، دفع ركبته إلى بطني، إلى درجة أن شعرت كأن بطني ضُربت بمطرقة ثقيلة، ثم لكمني في صدري، ما أدى إلى إخراج أنفاسي بصعوبة.

-٨-

بعد ذلك، جررت نفسي عن الأرض. غادرت منزل سونغ هاي واتبعت طريق التحرير ببطء حتى وصلت إلى جسر سانيساید. توقفت هناك بعض الوقت واتكأت على الدرابزين. كانت شمس الظهيرة تغرب بقوة إلى درجة أنني لم أَكَد أستيطعُ فتح عيني. كان جسدي لا يزال يؤلمني. سمعت صوت قارب يمر تحت الجسر، ويصدر صوتاً في أثناء شق طريقه عبر الماء. فكرت في والدي، الذي توفي في العام الذي بلغت فيه الثانية عشرة من عمري. وفكرت في الصيف الذي مات فيه، بشاحنته الصغيرة التي قادها في ذلك الصيف مع ذلك الجرار القديم المحطم.

سمح لي والدي بالجلوس في كابينة شاحنته. كان سيأخذني إلى شنغهاي، إلى المدينة الكبيرة. انطلقت شاحنة والدي بسرعة على طول الطريق الصيفي السريع. رفعت الرياح، التي سخّنتها الشمس، شعري حين جلست في الكابينة وأصبح قميصي يرفرف. "لماذا لا تغمض عينيك؟" قلت لوالدي.

قال: "لا يمكنك أن تغمض عينيك في أثناء القيادة".

"لم لا؟" سألته، "لماذا لا تستطيع؟"

"هل ترى الجرار في الأمام؟" قال أبي.

رأيت جراراً يسير ببطء، وعشرات أو نحو ذلك من عمال المزارع يجلسون في عربته التي كان يجرّها. وهم عُراة حتى الخصر جميعاً، وبدوا سوداً لامعين، مثل سمك اللوش. أجبت: "أراها".

قال والدي: "إذا أغمضت عيني، فستجري السيارة نحو الجرار مباشرة، وسنقتل بالاصطدام".

قلت: "كل ما أريده هو أن تغلقهما لحظة. إذا كان بإمكانك فعل ذلك، فيمكنني إخبار لو تشيانجين والآخرين بذلك. يمكنني أن أقول لهم إن لديك الجرأة للقيادة وعيناك مغمضتان".

قال والدي: "حسناً، سأغلقهما للحظة. انتبه إلى عيني. سأقوم بإغلاقها عند العد إلى ثلاثة. واحد اثنين ثلاثة..."

أغمض والدي عينيه. رأيت ذلك بنفسي - عيناه، في تلك اللحظة، كانتا مغلقتين تماماً. حينما فتحهما مرة أخرى، كانت شاحنتنا توشك أن تصطدم بالجرار، وانحرف الجرار إلى اليسار في طريقة تحذير. قام والدي بتحريك عجلة القيادة بأقصى ما يستطيع وتمكنت شاحنتنا من تجاوزه.

رأيت هؤلاء الداكنين، رجال يشبهون سمك اللوش، في العربة يلوحون بقبضاتهم لنا، وعرفت أنهم يشتموننا. كان ذلك عندما أخرج والدي رأسه وصرخ: "هل تحاولون قتل أنفسكم؟"

التفت والدي نحوي وابتسم ابتسامة رضا، وابتسمت له أيضاً. حينئذٍ، كانت شاحنتنا تسير على طول طريق الصيف السريع، حيث ترفرف

الأوراق والأغصان التي نعبر جانبها. لقد رأيت حقولاً غنية بالمحاصيل، ومساحة من هذا ومساحة من ذاك، ومنازلَ وأنهاراً متعرجة، وأشخاصاً يشقون طريقهم على طول المسارات بين الحقول. غير أنه بعد ذلك تعطّلت شاحنة والدي، فنزل، وفتح غطاء المحرك، وبدأ في إصلاحها. مكثت في المقصورة، وقد رغبت في مشاهدة والدي في أثناء عمله، لكن غطاء المحرك المرتفع حجب نظري واضطررت إلى الاكتفاء بالاستماع إليه في أثناء إجراء الإصلاحات. لقد نقر على الأشياء الموجودة تحت الغطاء.

مرّ الوقت، أخيراً انتهى والدي وأغلق غطاء المحرك. بعد ذلك أتى وأخرج قطعة قماش من تحت مقعدي، ومسح الزيت عن يديه، ثم دار إلى الجانب الآخر. ما إن فتح بابه وأوشك أن يصعد، التف الجرار الذي مررنا به في وقت سابق أمامنا، وخرج الرجال الداكنون مثل اللوتش، وشكلوا خطاً مستقيماً أمام شاحنتنا.

شاهدت توتر أبي وهم يسيرون نحونا. أمسكت أَيْدٍ بياقة قميصه، ثلاث أَيْدٍ في الأقل. "من الذي يحاول أن يقتل؟" سمعتهم يسألونه. "هل نحن أم أنت؟"

لم يقل والدي شيئاً. قاموا بجره إلى منتصف الطريق، ورأيت أيديهم تصل إلى سروال والدي، ويأخذون نقوده، ويضعونها في جيوبهم. بعد ذلك، بدأت قبضاتهم تصفع وجهه، وضربه اثنا عشر منهم، وطرحوه أرضاً.

كنت أبكي في الشاحنة. لم أستطع رؤية والدي، لأنه كان محوطاً بالكامل. بكيت ونحبت وهم يركلونه. رأيته فقط، حينما ابتعدوا، ملتفاً على الأرض، كما لو كان يعانق نفسه. بكيت كثيراً، لأنني رأيت أربعة من

الرجال قد فتحوا سحابات سراويلهم، وبالُوا على والدي وهو مستلقٍ أرضاً، وعلى وجهه ورجليه وصدره. بكيت ونحت، ورأيتهم عبر حجاب من الدموع يمشون نحو الجرار ويصعدون إلى المقطورة. بدأ الجرار في التحرك بصخب، وانطلقوا.

نهض أبي على قدميه ووقف ساكناً مدة دقيقة أو دقيقتين، وجسده منحنٍ، وأنا أبكي وأنوح. استدار وعاد إلى الشاحنة، وحينما فتح الباب رأيت وجهه وشعره ملطَّخين بالدماء والأوساخ وملابسه مبللة. كان يلهث وهو يصعد إلى الكابينة، وأنا أبكي كثيراً، ويرتجف جسدي كاملاً. مد يده وفرك وجهي بيده المتسخة، واستمر بفرك وجهي برفق حتى جفت دموعي. وضع يديه على عجلة القيادة وحدق في الجرار وهو ينطلق مبتعداً. بعد لحظة أخرج كوب الشاي من مكانه تحت قدميه وسلمه لي. قال: "يانغ جاو، أنا عطشان. انزل إلى النهر واملأ هذا بالماء."

أخذت الكوب من يده، وأنا ما زلت أبكي، وفتحت الباب، ونزلت إلى الخارج، ومشيت إلى الضفة. ألقيت نظرة على والدي. كان يراقبني والدموع في عينيه، ثم ذهبت إلى النهر.

حينما وقفت بعد ملء الكوب، بدأت شاحنة والدي في التقدم. ركضت على الضفة بأسرع ما يمكن، وسكبت الماء على الأرض، لكن الشاحنة استمرت في التحرك. وقفت ونحت إلى جانب الطريق، وصرخت بشدة في الشاحنة المغادرة: "لا تتركني! لا تتركني!"

ركضت خلف الشاحنة، وبكيت وصرخت. اعتقدت أن والدي لم يعد يريدني بعد الآن، واعتقدت أنه هجرني. كانت الشاحنة تتحرك

بأقصى سرعة الآن، وشاهدتها وهي تصل إلى الجرار. ثم سمعت زئيراً هائلاً وكل ما استطعت رؤيته مجرد سحابة غبار ضخمة. بدأ الدخان الأسود في الارتفاع.

وقفت متجذراً في المكان بضع دقائق. توقفت السيارات بالقرب من موقع الحادث، ونزل الركاب وتجمعوا حولهم. واصلت السير - لقد كان الطريق طويلاً - وكان الظلام قد اقترب حينما وصلت إلى شاحنة والدي. رأيت مقدمتَها مفتوحةً والبابَ إلى جانب السائق ملتوياً لا شكل له، ووالدي مستلقياً على عجلة القيادة ورأسه مغطى بالزجاج المكسور. لقد مزّق عمود عجلة القيادة قميصه، واخترق صدره؛ لطخ الدم جسده باللون الأحمر. سقط الرجال من الجرار، فكان بعضهم يئن، وبعضهم الآخر راقد بلا حراك. تناثرت الأشلاء في كل مكان، وغطت الأرض بكثافة كما تغطي الخضراوات الحقول. أدركت أنهم قُتلوا بسبب الاصطدام القوي لذلك الزئير الهائل. لقد جثمت العصافير سعيدة على شجرة قدر المستطاع، لكن شاحنة والدي اصطدمت بالجرار وفجاءة كانت تلك نهايتهم.

-٩-

غادرت جسر سانيساید وذهبت إلى المنزل. لم تكن والدتي موجودة، فرأيت الملابس التي غسلتها في ذلك الصباح معلقة حتى تجف على قضبان الخيزران بجوار النافذة. كانت جافة، فجمعتها وطويتها ورتبتها مكانها. وقمت مرة أخرى بمسح الأرضية التي مسحتها والدتي في ذلك الصباح، ومسحت الطاولة التي كانت قد مسحتها، ورتبت الأحذية التي قامت بترتيبها، وملأت كوبها بالماء. ثم أخذت الساطور من المطبخ، وخرجت من الباب.

حين سرت باتجاه منزل لو تشيانجين، والساطور في يدي، مررت بمنزل سونغ هاي. أوقفني سونغ هاي: "يانغ جاو، إلى أين أنت ذاهب؟ ماذا تفعل بهذا الساطور في يدك؟ "

قلت: "أنا ذاهب إلى منزل لو تشيانجين. سأشرّحه".

ضحك سونغ هاي، وسمعت صوته خلفي يقول: "فانغ داوي، هل ترى هذا؟ انظر يانغ جاو يحمل الساطور! يقول إنه سيشرّح لو تشيانجين".

كان فانغ داوي قادماً في طريقي، وحين سماع هذا ، توقف: "هل ستشرّحه حقاً؟"

أومأت: "سأفعل."

ضحك فانغ داوي بصوت عالٍ وطويل مثل سونغ هاي: "يقول إنه سيشرّح حقاً لو تشيانجين."

"صحيح. هذا ما يقوله".

ضحكا بشدة ورائي، وقالا إنهما يريدان أن يريا بأم أعينهما كيف سأقوم بتشريح لو تشيانجين. لذلك كنت أسير في المقدمة وهم يسيران في الخلف. حينما مررنا بشقة ليو جيشنغ، صرخ سونغ هاي وفانغ داوي: "ليو جيشنغ! ليو جيشنغ! "

ظهر ليو جيشنغ في باب منزله، ونظر إلينا. "ما أخباركم؟" سأل.

قالوا له: "يانغ جاو سوف يقوم بتشريح لو تشيانجين. ألا تريد مشاهدة المعركة؟"

نظر إليّ ليو جيشنغ بذهول: "أنت ذاهب لتشريح لو تشيانجين؟"

أومأت بنعم، وقلت: "هذا صحيح. هذا ما سأفعله حقاً."

ضحك ليو جيشنغ، تماماً مثل سونغ هاي وفانغ داوي: "هل تخطط لقتله؟ أو ستسبب له بعض الضرر فقط؟"

قلت: "ربما لا أقتله، لكن أقله سأجعله في حالة سيئة للغاية."

حين سماع ذلك، ضحكوا بشدة إلى درجة أنهم اضطروا إلى وضع أيديهم على بطونهم. لقد كان لغزاً لدي، لماذا يرون هذا مضحكاً جداً: "كيف تسعدون يا رفاق بسماع أنني سأقوم بتشريح لو تشيانجين؟" سألت. "أنتم أصدقاؤُه في النهاية."

ضحكوا كثيراً إلى درجة أنهم جلسوا على مؤخراتهم، وتحول ضحكهم تدريجياً إلى أصوات تشبه أصوات صراصير الليل تماماً. تجاهلتهم ومضيت قدماً بنفسي. حينما مررت بمنزل هو تشيانغ، سمعت سونغ هاي والآخرين يصرخون: "هو تشيانغ! هو تشيانغ! هو تشيانغ!"

أدركت أنهم سيتبعونني طوال الطريق. كانت النتيجة أنه حينما وصلت إلى منزل لو تشيانجين، صار معي خمسة أشخاص: سونغ هاو وفانغ داويو ليو جيشنغ وهو تشيانغ وشو هاو. ضحكوا بمرح، ودفعوني إلى الداخل.

جلس لو تشيانجين إلى الطاولة ممسكاً بشريحة كبيرة من البطيخ، وبعض البذور عالقة في خديه. حينما رفع رأسه لينظر إلينا، رأى ما في يدي: "ماذا تفعل بهذا الساطور؟" تمتم وفمه ممتلىء بالبطيخ.

"يانغ جاو سوف يقطّعك به!" قال سونغ هاي والآخرون بابتهاج.

اتسعت عينا لو تشيانجين. نظر إلي، ثم إلى سونغ هاي والآخرين. "ماذا قلتم؟"

انفجر سونغ هاي ورفاقه ضاحكين، وقالوا: "لو تشيانجين، الموت يحدق في وجهك، وها أنت تأكل البطيخ. من الأفضل أن تتوقف، فلن يوجد للبطيخ الذي تأكله وقتاً ليتحول إلى قذارة، لأنك توشك أن تموت. ألا ترى الساطور في يد يانغ جاو؟"

وضع لو تشيانجين البطيخ، وأشار إلي ثم إلى أنفه: "أنت تقول إنك تريد تقطيعي؟"

أومأ سونغ هاي ورفاقه: "صحيح!"

مسح لو تشيانجين فمه بيده وأشار إلي مرة ثانية: "أنت تخبرني أن يانغ جاو يريد تقطيعي بهذا الساطور؟"

أومأوا مرة أخرى: "لقد فهمتها!"

نظر إليّ لو تشيانجين وانفجر ضاحكاً مع سونغ هاي ورفاقه. حينئذ تحدثت، وقلت: "لو تشيانجين، لقد ضربتني وصفعتني على وجهي، ولكمتني على صدري، وركلتني في بطني وركلتني في ركبتي، ولا يزال وجهي وصدري ومعدتي وركبتي تؤلمني. حين ضربتني، لم أردّ لك أي ضربة. لم يكن ذلك لأنني كنت خائفاً منك، بل لأنني لم أكن أعرف ماذا أفعل. الآن أعرف ماذا أفعل، أريد تطبيق السنّ بالسنّ. سأقوم بتقسيمك بهذا الساطور".

لقد رفعت الساطور ليراه لو تشيانجين، ويراه سونغ هاي والآخرون أيضاً.

نظروا إلى الساطور في يدي المرتفعة؛ فتحوا أفواههم وضحكوا. قلت لنفسي، ما خطبهم؟ لماذا يضحكون بشدة؟ لذلك سألتهم، وسألت: "ما المضحك جداً؟ ما الذي يسعدكم جداً؟ لو تشيانجين، لماذا تضحك أيضاً؟ أعرف سبب ضحك سونغ هاي والبقية، إنما لا يمكنني أن أفهم لماذا تعتقد أن الأمر مضحك للغاية".

ضحكوا بشدّة، وسقط لو تشيانجين على الطاولة من شدّة ضحكه. وقف سونغ هاي وفانغ داوي إلى جانبه، إحدى يداهما على بطنه واليد الثانية على كتفه. كانت أذناي تطنّان بصوت ضحكاتهم. وقفت مكاني والساطور في يدي ولم أعرف ماذا أفعل. راقبتهم وهم يضحكون، وأشاهدهم وهم يتوقفون عن الضحك تدريجياً ويمسحون دموعهم. ثم ضغط سونغ هاي على رأس لو تشيانجين على الطاولة: "عليك أن تقدم رقبتك أمام يانغ جاو".

رفع لو تشيانجين رأسه ودفع يد سونغ هاي جانباً: "مستحيل! مستحيل أن أقدم له رقبتي".

استمرّ سونغ هاي: "تعال، أعطه رقبتك. إذا لم تفعل ذلك، فلن يعرف ماذا يفعل".

أضاف فانغ داوي وأصحابه تعليقاتهم: "لو تشيانجين، إذا لم تعطيه رقبتك، فلن توجد أي متعة."

قال لو تشيانجين: "اللعنة على هذا". ثم وضع رأسه على الطاولة وهو يضحك. دفعني ليو جيشنغ والبقية إلى جانب لو تشيانجين، وأخذ سونغ هاي يدي ووجّه الساطور إلى رقبة لو تشيانجين. حينما لامس الساطور جلده، تقلصت رقبته، وضحك. قال: "الساطور يدغدغ رقبتي كلها".

لقد لاحظت بعض البثور على رقبة لو تشيانجين المصابة بحروق الشمس. قلت: "لديك الكثير من البقع. نظامك الغذائي سيئ. لا بد أنك لم تأكل ما يكفي من الخضار مؤخراً".

قال: "لم أتناول أي خضراوات على الإطلاق".

قلت: "إذا كنت لا تحب الخضار، فإن البطيخ سيفي بالغرض".

قال سونغ هاي والآخرون: "يانغ جاو، دعك من هذا الهراء. ألم تخطط لتقسيم لو تشيانجين؟ الآن لديك رقبته أسفل ساطورك ونريد أن نشاهد كيف ستفعل ذلك".

لقد كان صحيحاً. كانت رقبة لو تشيانجين تحت رحمة الساطور. كل ما كان علي فعله هو رفع ذراعي وقطع رقبته. ولكن حينما رأيت سونغ هاي والآخرين ينتحرون من الضحك، لم أستطع التفكير في احتمالية أن قطعي رأسه هي ما جعلهم سعداء للغاية، وبدأت أشعر بالضيق بسبب لو تشيانجين. قلت: "من المفترض أن يكونوا أصدقاءك. لكن لو كانوا أصدقاءك حقاً، فلن يسعدوا جداً، وينبغي لهم أن يحاولوا منعي، ويسحبوني بعيداً. لكن انظر إليهم، إنهم يطلبون إليّ قطع رأسك".

حين سماع هذا، ضحكوا بصوت أعلى. قلت لـ لو تشيانجين: "انظر إليهم يضحكون مرة أخرى".

كان يضحك أيضاً، ولا يزال رأسه على الطاولة. قال: "أنت على حق، إنهم ليسوا أصدقاء حقيقيين لي. ولكن بعد ذلك ولا أنت كذلك، لو كنت حقاً صديقي، فلست توشك أن تقطع رأسي باستخدام ساطور".

هذا جعلني غير مرتاح وقلت: "السبب الوحيد لفعل هذا هو أنك ضربتني، ولولا هذا فلن أفعل ذلك".

قال لو تشيانجين: "أنا ضربتك مرات عدّة فحسب، أما أنت أتيت هنا لتقطعني بالساطور، وتنسى كم كنت طيباً معك في الماضي".

هذا جعلني أفكر. تذكرت الأشياء التي حدثت في وقت سابق، الأوقات التي ساعدني فيها لو تشيانجين، حينما دخل في شجار أو قتال مع شخص ما بسببي، والعديد من الأشياء الأخرى، لكنني الآن أحاول تقطيعه. على الرغم من أنه ضربني، كان لا يزال صديقي. وضعت الساطور جانباً وقلت: "لو تشيانجين، لن أقوم بتقطيعك في النهاية."

رفع لو تشيانجين رأسه عن الطاولة وفرك رقبته. نظر إلى سونغ هاي والآخرين وضحك، ونظروا إليه وضحكوا.

واستطردت: "على الرغم من أنني لن أُقطِّعك، لا يمكنني ترك الأمر هكذا. لقد صفعتني وركلتني في كل مكان. سوف أصفعك الآن، وننهي الأمر".

مددت يدي ولكمته على أذنه. حينما رأوا يدي تضرب وجه لو تشيانجين، تبخر ضحكهم. رأيت عيني لو تشيانجين تتسعان. أشار إلي وسبّ: "ماذا تعتقد أنك تفعل بحق الجحيم!"

طرق على الكرسي وصفعني أربع صفعات على وجهي، وضربني بشدة إلى درجة أن رأسي تهدل واختفت عيناي، ثم لكمني بشدة في صدري،

ما أدى إلى إصابتي بأزيز شديد في رئتي. سقطت على الأرض، وركلني في بطني، فاضطربت معدتي بشدة. ركلني سلسلة من الركلات في ساقي بقوة كافية لكسر عظامي. حين كنت مستلقياً على الأرض، سمعت محادثات صاخبة، على الرغم من أنني لم أستطع فهم ما يقولونه. كل ما شعرت به هو موجات ألم من رأسي إلى أخمص قدميّ، كما لو كان جسدي معصوراً يشبه منشفة مبللة.

ابنهما

في الساعة الخامسة بعد ظهر يوم السبت احتشد مئات عدّة من العمال حول المدخل الرئيس لمصنع الماكينات، في انتظار الجرس الذي سيعلن نهاية نوبتهم.

أحدثت البوابة المعدنية التي كانت لا تزال مغلقة بإحكام رنيناً حين طرقها العمال في المقدمة، وعلت أصوات محادثات الأشخاص في الخلف، وتخللتها صيحات هنا وهناك حين كانوا ينتظرون إطلاق سراحهم، تجمّع العمّال كالماشية المحاصرة خلف القضبان، في ضوء الغسق الخافت، متزاحمين معاً في هزيز الرياح. لقد سادت الظلمة خلف النوافذ الكبيرة في المصنع، ولم ينعش المشهد المقفر سوى سحب الغبار التي كانت تدور حول ورش العمل.

وقف شي زيكانغ - وهو رجل يبلغ من العمر واحداً وخمسين عاماً - في الصف الأمامي مرتدياً معطفه العسكري ويواجهه مباشرة الشق بين درفتي البوابة الفولاذية. هبت الرياح الجليدية عبر الفجوة الضيقة على وجهه، فشعر كما لو أن أنفه تقلّص.

وقف إلى جانبه البوّاب العجوز، الذي لفح البرد رأسه الأصلع. كان يرتدي بزّةً باهتة فوق سترة سميكة مبطّنة، إذ برز نهاية مفتاح كبير من جيبها. صرخ الناس عليه كي يفتح البوابة، غير أنه ربما كان أصمَّ. نظر من جهة إلى أخرى، وفي كل مرة يوجه فيها أحدهم تعليقاً كي يتعجّله، كان يدير رأسه

وينظر في الاتجاه الآخر إلى أن رنّ الجرس، سحب الرجل العجوز المفتاح أخيراً من جيبه، في حين أخذ الأشخاص في الصف الأمامي خطوة إلى الوراء لمنحه مساحة. ولما تقدّم إلى الأمام، حرص على دفع مرفقيه خلفه ولم يضع المفتاح في القفل حتى وثق أن ذراعيه لا تواجهان أي مقاومة.

كان شي زيكانغ أول من نجح في الخروج من البوابة. انطلق مسرعاً يميناً على طول الطريق، ومخططاً الوصول إلى المحطة قبل عمّال المصنع وركوب الباص منها؛ لتفادي الحشد الجامح خارج البوابة، إذ سيحاول ما لا يقل عن أربعين عاملاً الدفع وشق طريقهم إلى الباص، على الرغم من أنه سيكون بالفعل ممتلئاً بالركاب في وقت وصوله إلى المصنع.

في أثناء سيره، فكّر شي زيكانغ في هؤلاء الأربعين من زملائه في العمل، متخيلاً كيف سيتجمّعون حول موقف الحافلة تماماً كما كانوا محشورين أمام البوابة، وسيكون عشرات من الشبّان الضخام وما لا يقل عن اثنتي عشرة امرأة، ثلاث منهن بدأن العمل في العام نفسه الذي عمل فيه. وتعاني الثلاث من حالات مرضية في الوقت الحالي، إحداهن تعاني قلباً ضعيفاً والأُخريان تعانيان مشكلات في الكلى.

حينما فكر في ذلك لاحت له محطة الحافلات، وفي الوقت نفسه رأى الحافلة وهي في طريقها إليها فأخرج يديه من جيوبه وركض، ووصل إلى المحطة فور توقف الحافلة.

كان الناس ينتظرون هناك بالفعل في ثلاث مجموعات، ومع تباطؤ الحافلة تحركت المجموعات في مواجهة أبواب الحافلة الثلاثة. أصبحت التجمعات ثابتة.

حينما توقفت الحافلة. فُتِحت الأبواب وخرج الركاب إلى الخارج متلاصقين في دفق محكم ومتين يشبه خروج معجون أسنان من عبوته، وبعد ذلك في حشد كثيف من الأطراف تكدّس الناس أمامها.

في الوقت الذي اقتربت فيه الحافلة من مدخل مصنع شي زيكانغ كان قد شق طريقه بالفعل إلى منتصف الحافلة، وحشر ذراعيه على نحو عمودي في الفجوات التي أفسحتها الأجساد المضغوطة. لم تتوقف الحافلة خارج المصنع لكنها سارت متقدمة. من بين الأربعين عاملاً الذين كانوا ينتظرون هناك، لم يتبق سوى خمسة أو ستة أشخاص إلى جانب سبعة أو ثمانية أشخاص لم أتعرّفهم، لذلك لا بدّ أن حافلة أو اثنتين أُخريين قد جاءت. من الواضح أن النساء الثلاث لم يستطعن حشر أنفسهن في متن الحافلة، لأنهن ما زلن ينتظرن في المحطة، المرأة ذات القلب الضعيف في المنتصف، والمصابتان بمرض في الكلى إلى كلا جانبيها. وقفن في تجمّع ضيق يرتدين معاطفهن المبطنة الباهتة مع وشاح من الصوف الأسود حول رقبتهن.

هبت الريح الباردة على شعرهن في كل اتجاه، وطمس الظلام القاتم ملامحهن، كما لو أن وجوههن كانت متفحمة بالنار، حينما مرت عربته جانبهن، لاحظ شي زيكانغ كيف استدارت رؤوسهن لتتبعها، وشاهدن الحافلة تتقدم بعيداً عنهن.

بعد تسع محطات، نزل شي زيكانغ من الحافلة، وعاد إلى الوراء ثلاثين ياردة إلى محطة أخرى، حيث كان يستقل حافلة أخرى. في ذلك الوقت كانت السماء مظلمة تماماً، ولم يلقِ ضوء مصابيح الشوارع سوى وهجٍ باهتٍ، غير أن الأضواء السّاطعة في المحلات إلى جانبي الشارع هي التي

أضاءت الرصيف والمنطقة المحيطة بمحطة الحافلات. انتظر كثير من الناس بالفعل، ووقف الأقرب مباشرة إلى الأمام في منتصف الشارع في حين كان شي زيكانغ يشق طريقه إلى الحشد، جاءت حافلة صغيرة وحينما فُتح الباب خرج رأس شاب منها يحمل حقيبة قماشية معلقة من رقبته وصرخ: "اثنان إلى يوان، اثنان إلى يوان..."

صعد رجلان وامرأة إلى الحافلة الصغيرة، في حين واصل المرافق (الجابي) الصراخ، "يوانان..."

في لحظة دوران الحافلة إلى الزاوية ذاهبة إلى وجهتها، توارى الجابي بسرعة إلى الداخل وسارعت الحافلة الصغيرة مبتعدةً عن حشد المنتظرين، الذي مرّت إلى جانبهم.

شقّ شي زيكانغ طريقه بسرعة إلى الأمام وبسط ذراعيه قليلاً، وضغط إلى الخلف مع اقتراب حافلة، ودافعاً الناس خلفه إلى الرصيف، حينما انفتح الباب الأمامي للحافلة، راقب سرعة الحافلة، واعتقد أنه يجب أن يكون تماماً في طابور الباب الأوسط، لكن ما حدث هو أن الحافلة توقفت على نحو مفاجئ وأبعدته ياردة أو اثنتين عن الباب المستهدف، لقد فقد مكانه في الصف الأمامي ووجد نفسه الآن في الحافة الخارجية للحشد.

حينما فتح الباب نزل ثلاثة أشخاص فقط، اتخذ شي زيكانغ بضع خطوات في الحشد، ودفع ذراعيه في فجوة صغيرة أفسحها الناس في المقدمة، وحين مضى في طريقه إلى الأمام، استفاد جيداً من قوة الجزء العلوي من جسمه التي اكتسبها في سنواته الطويلة في عمله كفنّي. وَسَّعَ الفجوة بثبات، ثم ضغط نفسه في المساحة التي أُحدِثت، وبدأ في العمل على فتح فجوة إلى الأمام.

شق شي زيكانغ طريقه عبر الطابور ودفع نفسه إلى مكان مجاور للباب، مستغلاً قوة دفع الناس من الخلف. حين وضع قدماً واحدة مباشرةً على درج الحافلة أمسك أحدهم بياقة معطفه وسحبه إلى الخلف، لقد وقع بشدة على الأرض وضرب رأسه في ساق فردّته الساق بركلة، ونظر إلى الأعلى ليجد امرأة شابة تحدق إليه.

بحلول الوقت الذي وقف فيه شي زيكانغ على قدميه أُغلِقت الأبواب وبدأت الحافلة في التحرك. كانت حقيبة يد امرأة عالقة في الباب، إذ كان جزءٌ من الحقيبة وحزامها علقا خارجاً، وتتأرجح ذهاباً وإياباً مع حركة الحافلة. استدار عازماً على معرفة من سحبه إلى الوراء. رأى شابيّن في عمر ابنه كانا يراقبانه ببريق بارد في عينيهما. نظر إليهما وإلى الآخرين الذين فشلوا في الصعود إلى الحافلة. غضّ بعضهم بصره، وبعضهم الآخر لم يفعل. كان يفكر أن يشتم شتيمة أو اثنتين، لكنه فكر في التخلي عن ذلك.

في وقت لاحق، وصلت حافلتان في الوقت نفسه، واستقل شي زيكانغ الثانية. اليوم لم ينزل في المحطة الأقرب إلى منزله، لكن توقف قبل ذلك بمحطتين، حيث يبيع رجل في عربة مسطحة جبنة فول الصويا، التي طعمها أفضل ما يمكنك شراؤه في المتاجر. لقد طلبت زوجة شي زيكانغ، التي تعمل في مصنع نسيج، أن يشتري رطلين في طريقه إلى المنزل حين عودته من العمل، لأن اليوم هو يوم السبت موعد عودة ابنهما، طالب سنة ثانية في الكلية، إلى المنزل لقضاء عطلة نهاية الأسبوع.

بعد شراء جبنة فول الصويا لم يحاول شي زيكانغ ركوب حافلة أخرى، ومشى ببساطة بقية الطريق إلى المنزل. كانت الساعة نحو السابعة

تقريباً، لكن لا علامات على وجود زوجته وهذا ما أزعجه. كان من المفترض أن تكون زوجته قد أنهت عملها في الرابعة والنصف، إذ ليس لديها مثل هذه الرحلة الطويلة، عادة ما تكون زوجته قد تناولت العشاء غالباً بحلول هذا الوقت، ولكن اليوم كان عليه أن يجلس بمعدة فارغة، ويغسل الخضار ويقطع اللحم إلى شرائح.

دخلت زوجته لي شيولان من الباب ومعها كيس من السمك. "هل غسلت يديك؟" كان أول ما قالته.

لم يكن شي زيكانغ في مزاج جيد، لذلك أجاب باقتضاب: "ألا ترين يديَّ مبتلَّتين؟"

"هل استخدمت الصابون؟" سألت. "ثمة إنفلونزا منتشرة والتهاب رئوي أيضاً. تحتاج إلى غسل يديك بالصابون ما إن تصل إلى المنزل".

نخر شي زيكانغ باستخفاف: "إذاً ألا يجب أن تعودي إلى المنزل باكراً؟"

ألقت لي شيولان السمكتين في الحوض، وأخبرت شي زيكانغ أنها كلفتها ثلاثة يوانات فقط. "كانتا الأخيرتين. لقد أراد خمسة يوانات، لكنني لن أُعطيه أكثر من ثلاثة".

"هل يستغرق شراء سمكتين ميتتين وقتاً طويلاً؟"

"اصطيدتا حديثاً." أرته الخياشيم: "انظر إلى الخدين ما زالا أحمرين."

"هذه أنت! ما أتحدث عنه." رفع صوته وهو يشير إلى ساعته: "إن الوقت بعد السابعة بالفعل!"

ارتفعت نبرتها أيضاً: "وماذا في ذلك؟ ما مشكلة عودتي إلى المنزل في وقت متأخر؟ كل يوم تعود متأخراً أكثر مني، هل أشتكي؟"

"هل أنتهي من العمل قبل أن تنتهي؟ هل مصنعي أقرب إلى المنزل من مصنعك؟"

قالت لي شيولان: "لقد وقعت".

رمت السمكة مرة أخرى في الحوض ودخلت إلى غرفة المعيشة. قالت: "لقد سقطت من الحافلة، ومرّ وقت طويل قبل أن أتمكن من الوقوف مرة أخرى. اضطررت للجلوس إلى جانب الطريق مدة ثلاثين أو أربعين دقيقة. لقد تجمدت عملياً حتى الموت".

وضع شي زيكانغ الساطور الذي كان يستخدمه لتقطيع اللحم ومشى نحوها: "لقد سقطت؟ وكذلك فعلت أنا، قام أحدهم بسحب ياقتي".

لم يكتفِ من القصة، لقد رفعت الآن ساق سروالها، واستطاع أن يرى كدمة بحجم بيضة على ركبتها. انحنى للمسها قائلاً: "كيف حدث هذا؟"

"حينما نزلت من الحافلة، كان هناك كثير من الناس ورائي. لقد ضغطوا علي بقوة إلى درجة أنني فقدت توازني".

حينئذٍ، وصل ابنهما إلى المنزل مرتدياً سترة حمراء، وحينما رأى والدته قد تعرضت للسقوط، انحنى كما فعل والده. "هل تألمت؟" سأل بقلق. ثم خلع سترته. وتابع: "يجب أن تتناولي متممات غذائية من الكالسيوم. ليس الأطفال فحسب هم من يحتاجون إلى الكالسيوم، وكبار السن يحتاجون إليه أيضاً. كل يوم تفقد عظامك الكالسيوم، وهذا يجعلك عرضة

للإصابة... إذا دُفِعت من الحافلة، فلا بدّ أن ينتهي بك المطاف إلى مثل هذه الكدمة الكبيرة".

فتح ابنهما التلفاز وأراح نفسه على الأريكة، ثم وضع سماعات الأذن الخاصة بجهازه "ووكمان"، وبدأ في الاستماع إلى بعض الموسيقا.

"هل تشاهد التلفاز؟" سأل شي زيكانغ. "أو تستمع إلى الراديو؟"

نظر إليه ابنه، لكنه استدار على الفور تقريباً مرة أخرى دون أن يفهم السؤال. "هل غسلت يديك؟" سألت والدته.

أدار رأسه ونزع سماعة أذن من إحدى أذنيه. "ماذا قلت؟"

قالت لي شيولان: "اذهب واغسل يديك. ثمة إنفلونزا منتشرة الآن ومن السهل التقاط الجراثيم في الحافلة. اذهب واغسل يديك وتأكد من استخدام الصابون".

"لست في حاجة إلى غسل يدي." استبدل ابنهما سماعة الأذن. "أستقليت سيارة أجرة."

لم يكن بإمكان شي زيكانغ النوم في تلك الليلة. منذ خمسة أشهر حتى الآن كانت زوجته تحصل على ما يزيد قليلاً على مئة يوان. وهو في أفضل وضع يحصل على أربعمئة يوان - لكن دخلهما الشهري المشترك كان أقل من ستمئة. ارتفعت تكلفة الأرز الآن إلى يوان واحد وثلاثين باوناً، وبلغت تكلفة لحم الخنزير اثني عشر يواناً للرطل - حتى الفلفل الحار صار سعره ثلاثة يوانات للرطل، وما زالا يعطيان ابنهما ثلاثمئة يوان شهرياً لتغطية نفقات المعيشة، تاركين ما يزيد قليلاً على مئتي يوان لأنفسهما. لكن هذا لم يمنع ابنهما من ركوب سيارة أجرة حينما عاد إلى المنزل يوم السبت.

لم تنم لي شيولان أيضاً، لاحظت أن زوجها كان يتقلب ويتقلب: "لا يمكنك النوم؟".

"لا".

استدارت بمواجهته: "كم تعتقد أن ابننا دفع مقابل العودة إلى المنزل في سيارة أجرة؟".

"لا أعلم. لم أركب سيارة أجرة من قبل". توّقف: "أعتقد أنه سيكلف ما لا يقل عن ثلاثين يواناً."

"ثلاثون يواناً؟" أجابت متذمرة.

تنهد قائلاً: "لقد عرقنا دماً من أجل هذا المال".

لم يقولا شيئاً أكثر من ذلك. فسرعان ما نام وكذلك هي أيضاً.

في صباح اليوم التالي، وضع ابنهما سماعات أذنيه مرة أخرى وشاهد التلفاز وهو يستمع إلى الموسيقا. قرر شي زيكانغ ولي شيولان إجراء محادثة ودّية معه، فجلست إلى جانبه، في حين أحضر زوجها كرسياً وجلس أمامهما. قال شي زيكانغ: "نود أنا وأمك أن نتحدث معك".

"عن ماذا؟" بسبب السماعات، تحدّث ابنهما بصوت عالٍ.

"شؤون أُسريّة."

"تابع." كان عملياً يصرخ.

انحنى شي زيكانغ، وأزال السماعة من أذن ابنه اليمنى. "في الأشهر القليلة الماضية، واجهتنا بعض المشكلات، ولم نرغب في إخبارك، خوفاً من إلهائك عن دراستك..."

"ماذا حدث؟" نزع ابنهما السماعة الأخرى.

قال شي زيكانغ: "لا شيء كثير بداية من هذا الشهر، لن يكون ثمة مناوبة ليلية في مصنعنا، ومن بين الثلاثمئة من القوة العاملة سيتسرح نصفهم. فيما يخصني، إنها ليست مشكلة كبيرة فلدي المهارات، وما زال المصنع في حاجة إلي... فالأهم ما يحدث مع والدتك في الوقت الحالي، تدر في المنزل ما يزيد قليلاً على مئة يوان شهرياً. من المقرر أن تتقاعد في غضون أربع سنوات، وإذا كانت ستتقاعد مبكراً، فيمكنها الحصول على ثلاثمئة يوان شهرياً، وسيستمر ذلك مدة ثلاث سنوات..."

"أتحصل على رواتب أكثر إذا تقاعدت مبكراً؟"

أومأ بنعم. "في هذه الحالة، لماذا لا تتقاعد؟" سأل ابنهما.

أجاب شي زيكانغ: "أنا وأمك نفكر في ذلك أيضاً".

"نعم، تقاعدي". لدى قوله هذا، استعدّ ابنهما لإعادة تشغيل سماعات الأذن. ألقى شي زيكانغ نظرة إلى زوجته. قالت: "يا بني، لم تعد موارد أسرتنا المالية كما كانت عليه من قبل، وقد تكون في حالة أسوأ في المستقبل..."

كان ابنهما يضع بالفعل سماعة في أذن واحدة. "ماذا قلتِ؟" سأل.

أجاب شي زيكانغ: "كانت والدتك تقول إن موارد الأسرة ليست كما كانت في السابق".

"ناهيك عن ذلك." لوح ابنهما بيده. "حتى مالية الدولة ليست كما كانت عليه من قبل."

تبادل والداه النظرات. قال شي زيكانغ: "أخبرني لماذا عدت إلى المنزل أمس في سيارة أجرة؟"

نظر إليهما ابنهما مرتبكاً. "لماذا لم تستقل الحافلة؟" تابع شي زيكانغ.

"الحافلة مزدحمة للغاية".

"مزدحمة جداً؟".

أشار شي زيكانغ إلى لي شيولان: "أمك وأنا نحشر أنفسنا في حافلات كل يوم من أيام الأسبوع. كيف يمكن لشاب مثلك أن يخاف من الحافلات المزدحمة؟".

"ليس التدافع هو المشكلة، بل الرائحة." عبس ابنهما. "أنا حقا أكره شم رائحة أجساد الآخرين في الحافلات، الجميع يلتصقون بك، مما يجبرك على شم الرائحة الكريهة، إنها معبأة للغاية وخانقة حتى رائحة العطر كريهة. بالإضافة إلى ذلك ثمة أشخاص يطلقون الغازات أيضاً..." واختتم حديثه قائلاً: "أشعر برغبة في التقيؤ في كل مرة أستقل فيها الحافلة".

"تتقيأ؟" صُدمت لي شيولان. "بني، هل أنت مريض؟".

"لا بالطبع لا."

نظرت إلى شي زيكانغ. "هل يمكن أن يكون لديك مشكلة في المعدة؟".

أومأ زوجها برأسه. "هل لديك وجع بطن؟" سأل.

"لا يوجد شيء بي." بدأ صبر ابنهما ينفد.

"كيف هي شهيتك هذه الأيام؟" سألت لي شيولان.

"ليس لدي أي مشكلة في المعدة!" صرخ ابنهما.

"هل تنام جيداً؟" سأل شي زيكانغ. التفت إلى لي شيولان: "إذا لم تحصل على قسط كافٍ من النوم، فسوف تشعر بالغثيان."

مدَّ ابنهما أصابعه العشرة: "أنام عشر ساعات في اليوم".

كانت لي شيولان لا تزال قلقة: "بني، من الأفضل أن تذهب إلى المستشفى لإجراء فحص."

"قلت لك، لا مشكلة لدي." قفز ابنهما واقفاً: "هذا كله يتعلق بأنني ركبت سيارة أجرة مرة واحدة، أليس كذلك؟" صرخ. "حسناً، لن أستقل سيارات أجرة ثانية..."

قال شي زيكانغ: "يا بني، نحن لسنا قلقين بشأن أجرة التاكسي، نحن نفكر فيك. ستبدأ بالعمل في وظيفة قريباً، وحينما تعتمد على راتبك الخاص ستدرك أن الأموال لا تأتي بسهولة، وعليك أن تضع ميزانية وفقاً لذلك..."

"صحيح." أجابت لي شيولان. "لم نقل قطّ إنه لا يمكنك ركوب سيارة أجرة."

"في المستقبل لن أركب سيارات الأجرة." جلس ابنهما على الأريكة. وأوضح لهما: "في المستقبل سأقود سيارتي بنفسي". وضع السماعات فوق أذنيه. "زملائي يستقلون سيارات الأجرة طوال الوقت".

كررت لي شيولان، وهي تنظر إلى زوجها: "يركب زملاؤه سيارات الأجرة طوال الوقت". وتابعت لدى رؤيتها إيماءته: "إذا كان أبناء الآخرين

قادرين على ركوب سيارات الأجرة، فلماذا لا ينبغي لابننا أن يستقل سيارات الأجرة؟".

قال شي زيكانغ: "لم أقل إنه لا يستطيع".

ربما كان ابنهما الآن يستمع إلى إحدى أغانيه المفضلة، لأنه كان يهز رأسه ذهاباً وإياباً ويغني شيئاً منها. نظر أحدهما إلى الآخر وابتسما وهما يتفحصان مظهره الهادئ. ربما يجلب المستقبل مزيداً ومزيداً من الصعوبات، لكن هذا لن يزعجهما جداً، لأنهما رأيا أن ابنهما أصبح الآن رجلهما.

لعبة القفز والخطوة

داخل كشك البيع في زاوية الشارع، الذي يبيع البقالة والفواكه، يقضي شخص ذو وجه متعب ومتهدل وقته عاماً بعد عام بصحبة البسكويت والمعكرونة سريعة التحضير والحلويات والتبغ وعلب الصودا، مثل تقويم قديم معلّقٍ على الجدار. ويرافق تعب هذا الوجه تعب الجسم والأطراف، ويصاحبه اسم لين ديشون.

جلس لين ديشون على كرسي متحرك، ينظر إلى الشارع عبر النافذة الصغيرة أمامه، إذ يقف زوجان شابان على الرصيف المقابل بينهما طفل صغير بدا أنه في السادسة أو السابعة من عمره. كان الصبي يرتدي سترة سميكة وقبعة حمراء، ووشاحاً لونه أحمر ملفوفاً حول رقبته. على الرغم من أنه الآن موسم انتعاش الربيع وتفتح براعم الأزهار، كان الصبي يرتدي ملابس الشتاء الباردة.

وقفوا خارج المستشفى معاً بهدوء وسط جلبة دخول وخروج الناس. يضع الأب يديه في جيبيه، ويحدق باهتمام نحو المدخل، وتمسك زوجته بيدها اليمنى يدَ الصبي اليسرى، تراقب بالتركيز نفسه. غير أن الصبي تحولت عيناه نحو الشارع. بما أن والدته تمسك يده، فينبغي له أن يلتف حول نفسه لينظر، لكنَّ عينيه كانتا تستقران بشغف في المشهد أمامه. حرَّك رأسه باستمرار، وغالباً، رفع يده الحرة ليشير إلى شيء ما. من الواضح أنه لا توجد نهاية للأشياء التي يريد إخبار والديه عنها، لكنهما وقفا مكانهما كتمثالين.

بعد مدّة قصيرة، قاد الوالدان الصبي على بعد خطوات قليلة من المدخل، ورأى لين ديشون ممرضة ممتلئة الجسم تقترب منهم. وقفوا وبدؤوا في الكلام، لكن الصبي حافظ على موقفه الجانبي، وعيناه ملتصقتان بالشارع.

أنهت الممرضة حديثها، وعادت إلى المستشفى. استدار والدا الصبي، وأخذا الصبي من يديه، وعبروا الشارع بحذر، ووصلوا إلى أمام كشك لين ديشون. رفع الأب قبضته عن يد ابنه، مشى إلى النافذة، وألقى نظرة داخل الكشك. رأى لين ديشون وجهاً مغطّى بالجذامة(اللحية الخفيفة)، وعينين منتفختين من قلة النوم، وياقة قميصه الأبيض متسخة. "أيمكنني مساعدتك؟" سأل.

نظر الرجل إلى فاكهة اليوسفي المعروض أمامه مباشرة. قال: "أعطني حبة يوسفي".

"حبة يوسفي واحدة؟" اعتقد لين ديشون أنه لم يسمعه جيداً.

مدّ الأب يده وأخذ حبة يوسفي: "كم ثمنها؟"

فكر لين ديشون للحظة: "النقل عشرين فيناً."

حينما وضعت يد الرجل عشرين فيناً على المنضدة، لاحظ لين ديشون عدّة خيوط من سترته تبرز من كمه.

بعد شراء اليوسفي، استدار الأب ليجد أن الأم والابن يمسك أحدهما بيدي الآخر ويلعبان لعبة على الرصيف. كان الصبي يحاول أن يطأ قدم والدته وهي تواصل القفز بعيداً عنه. كانت تقول له: "لا يمكنك الوصول إلي، لا يمكنك الوصول إلي...".

صرخ الولد: "سأصل إليك، سأصل إليك...".

وقف الأب جانباً، وحبة اليوسفي في يده، يشاهد لعبتهما الصاخبة، حتى وَطِئَ الابن أخيراً قدم والدته وصرخ منتصراً: "لقد نلت منك!"

كان ذلك حينما قال الأب: "تعال وخذ حبة اليوسفي".

استطاع الآن لين ديشون رؤية وجه الصبي بوضوح. حين رفع رأسه لأخذ الفاكهة، رأى لين ديشون عينين داكنتين مضيئتين، لكن وجه الصبي كان شاحباً على نحو مخيف، حتى شفتاه كانتا بيضاوين مثل الطباشير فعلياً. الآن، رأى أسرة هادئة تماماً كما كانت حين وقوفها في الجانب الآخر من الشارع. قشر الصبي حبة اليوسفي، وبدأ يأكلها وهو يبتعد، ووالداه إلى جانبيه.

عرف لين ديشون لا بدّ أنهما جاءا لتسجيل طفلهما مريضاً داخلياً، لكن اليوم لم يكن ثمة سرير متاح، لذا فقد عادوا الآن إلى المنزل.

رآهم لين ديشون مرة أخرى في صباح اليوم التالي، وهم يقفون خارج المستشفى تماماً مثل اليوم السابق. الأمر المختلف هو أن الأب فقط هذه المرة كان يحدق في اتجاه المستشفى، في حين كانت الأم والابن، يداً بيد، يلعبان بسعادة لعبة القفز والخطوة. من جانبه من الشارع، سمعهما لين ديشون يناديان:

"لا يمكنك الوصول إلي، لا يمكنك الوصول إلي..."

"سأصل إليك، سأصل إليك..."

كانت صرخاتهما ممتلئة بالبهجة، كما لو كانا في حديقة، وليس أمام بوابة المستشفى. رنّ صوت الصبي واضحاً، ويمكن تعرُّفه عليه على الفور وسط صخب المدخل وصخب السيارات في الشارع.

"سأصل إليك، سأصل إليك..."

ثم ظهرت الممرضة نفسها ممتلئة الجسم كما في اليوم السابق، وانتهت لعبة القفز والخطوة. وتبع الوالدان والابن الممرضة إلى المستشفى.

جاء صباح آخر، بعد نحو أسبوع، رأى لين ديشون الزوجين الشابين يخرجان من المستشفى. كانا يمشيان ببطء، وتحوط يد الزوج زوجته ورأسها على كتفه. ببطء، وبهدوء، عبرا الشارع وتوجها نحو كشك لين ديشون، ثم توقفا. سحب الزوج ذراعه ومشى. قرَّب وجهه غير الحليق من النافذة ونظر إلى الداخل. "هل تريد اليوسفي؟" سأل لين ديشون.

قال الرجل: "أعطني كعكة".

أعطاه لين ديشون كعكة، وبعد أخذ المال منه سأل: "هل الصبي بخير؟"

استدار الرجل ليغادر، ولكن حينما سمع ذلك استدار ونظر إلى لين ديشون. "الصبي؟"

استقرت عيناه على وجه لين ديشون للحظة. قال بصوت منخفض: "مات".

عاد إلى زوجته وأعطاها كعكة: "خذي بعضاً منها".

كان رأس زوجته منحنياً كأنها تنظر إلى قدميها. أخفى شعرها السائب وجهها وهزت رأسها بالنفي: "أنا لا أريد ذلك."

أصرّ زوجها على ذلك قائلاً: "تناولي القليل منها في الأقل".

"أنا لا أريد ذلك." هزّت رأسها مرة أخرى: "تناولها أنت".

بعد لحظة من التردد، قضم قطعة من الكعكة على نحو أخرق. مدّ ذراعه نحو زوجته، ووضعت رأسها على كتفه بإذعان. وأحاطها بذراعه، وببطء وهدوء سارا غرباً.

لم يعد بإمكان لين ديشون رؤيتهما، لأن البضائع حجبت رؤيته، لذلك استمر في النظر عبر الشارع إلى مدخل المستشفى. لاحظ أن السماء قد أظلمت، فنظر إلى أعلى وهو يعلم أنها توشك أن تمطر. لم يكن يحب المطر. في إحدى الأمسيات قبل سنوات عدّة، حينما كان الجو عاصفاً، اندفع وصعد الدرج لإغلاق النوافذ، ممسكاً بمعطفه؛ في منتصف الطريق، فقد إحساسه بقدمه فجأة، ومنذ ذلك الحين أصيب بالشلل. وهو الآن يجلس على كرسي متحرك.

لماذا ينبغي لي أن أتزوج؟

حينما قررت زيارة أصدقائي هؤلاء، كنت مع والدتي، أُرَتِّبُ الأغراض في مطبخ الشقة الجديدة، وكان والدي يناديني باستمرار من غرفة مكتبه، ويريدني أن أساعده في تنظيم كومة ضخمة من الكتب العتيقة. أنا ابنهما الوحيد. المطبخ يحتاجني، وغرفة المكتب تحتاجني، فوالداي في حاجة إليّ كلاهما، لكن لا يوجد سوى واحد مني. قلت: "من الأفضل أن تقطعاني إلى نصفين بالساطور".

قالت والدتي: "خذ هذا الصندوق من أدوات المطبخ الذي لا نستخدمه، وضعه بعيداً عن الطريق".

نادى والدي من غرفة المكتب: "تعال وساعدني في تحريك خزانة الكتب هذه.

"من الأفضل أن تقطعوني بالساطور إلى نصفين"، ظللت أكرر ذلك، في حين أضع صندوق أدوات المطبخ بعيداً عن أمي، وساعدت والدي في نقل خزانة الكتب. بعد أن انتهيت من إعادة ترتيب الأثاث، أصبحت ملكاً لأبي. لقد أمسك بي من ذراعي، وأرادني أن آخذ الكتب التي رتبها وأضعها في صف واحد في خزانة الكتب. نادتني والدتي من المطبخ، وتريدني أن أنزل علبة أدوات المطبخ غير المستخدمة التي كنت قد وضعتها للتو، لأنها لم تتمكن من العثور على الملعقة التي تحتاج إليها، وتساءلت عما إذا كانت

موجودة في الصندوق. في هذه اللحظة بالذات سلمني والدي كومة أخرى من الكتب. قلت: "من الأفضل أن تقطعاني بالساطور إلى نصفين".

حينئذٍ، أدركت أن أيّاً منهما لم يكن يستمع إلى ما كنت أقوله. لقد أدليت بهذه الملاحظة مرات عدة، لكنني كنت الشخص الوحيد الذي يبدو أنه سمع بها. قررت المغادرة، لأنني شعرت أنني لا أستطيع الاستمرار في هذه الفوضى على هذا النحو. مرّ أسبوع منذ أن انتقلنا من منزلنا الأصلي إلى هذه الشقة الجديدة، وكل يوم كنت أقضي وقتي كله في ترتيب الأغراض، وكان المكان كله يفوح برائحة الطلاء والغبار يخرّش أنفي. أبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً فقط، لكنني أبقى في البيت مشغولاً طوال الأسبوع مثل شخص في منتصف العمر. لا يمكنني أن أفترق طويلاً عن حياة الشباب، لذلك اتخذت موقعاً في منتصف الطريق بين المطبخ وغرفة المكتب وأعلنت لوالدي: "لا يمكنني مساعدتكما أكثر من ذلك. يجب أن أخرج وأنجز بعض الأعمال".

لقد سمعوا هذا بالتأكيد. جاء والدي إلى باب المكتب. "أي عمل؟" سأل.

"شيء مهم بالطبع."

في الوقت الحالي، لم أتمكن من العثور على مبرر مقنع للمغادرة، لذلك لم أتمكن إلا من القيام بهذا الرد المراوغ. خرج والدي من مكتبه وأصر على سؤاله: "ما المهم جداً؟"

لوحت بيدي واستمررت بعذر غامض: "مهما كان الأمر، فهو مهم".

في هذه اللحظة، تدخلت والدتي: "هل تحاول الهروب من المساعدة؟"

قالت لوالدي: "إنه يحاول التهرّب منّا. لقد كان دائما هكذا. بعد العشاء يريد الذهاب إلى الحمام، وسوف يستغرق الأمر ساعتين قبل أن يخرج. لماذا؟ لتجنب غسل الأطباق".

أجبت: "هذه المرة لا علاقة لهذا بالذهاب إلى الحمام".

ابتسم والدي: "قل لي، ماذا ستفعل؟ من سترى؟"

في تلك اللحظة لم أكن أعرف حقاً كيف أرد. لحسن الحظ، فعلت أمي شيئاً سخيفاً. لقد نسيت ما كانت تقوله للتو. "من يمكن أن يكون غير هؤلاء؟" بادرت بالقول. "بصرف النظر عن هؤلاء الرجال شين تيانشيانغ، وانغ فاي، وتشين ليكينغ، ولين مينج، من غيرهم يمكن أن يراه؟"

لقد استفدت من الاحتمالات المقدمة، وأجبت: "لين منغ هو بالتحديد الشخص الذي أحتاج أن أذهب إليه وأراه."

"لماذا تريد رؤيته؟" لم يكن والدي يوشك أن يفعل أي شيء سخيف. كان سيستمر في استجوابي.

بدأت في تدوير خط له: "لين منغ تزوج. اسم زوجته بينغبينغ..."

قال والدي: "لقد تزوجا منذ ثلاث سنوات".

أجبت: "هذا صحيح. الشيء هو أنهم كانوا سعداء معاً طوال هذا الوقت، ولكن الآن ثمة مشكلة..."

"أي نوع من المشكلات؟"

"أي نوع من المشكلات؟" فكرت مدة دقيقة. "كما تعلمان، نوع المشكلات نفسها التي تحدث في الزواج..."

"أي نوع من مشكلات الزواج؟" ما زال والدي لا يسمح لي بالخروج من هذا المأزق.

كانت والدتي هي التي تحدثت حينها: "لا بدّ أنهما تشاجرا بشأن شيء ما".

قلت: "هذا صحيح، إنهما يتشاجران".

"إذا كان الاثنان يتشاجران، فما هو عملك؟" أمسكني والدي من كمّيّ وحاول جرّي إلى المكتب.

قاومت. قلت: "لقد بدأا القتال".

خفف والدي من قبضته، ونظر إلي هو وأمي. في هذه اللحظة، شعرت فجأة بالإلهام، وبدأت في شرح الأمور بطلاقة سهلة:

"كان لين مينغ أول من صفع بينغبينغ على وجهها، ثم انقضت عليه وعضته عضّة كبيرة في ذراعه. لقد أحدثت ثقباً كبيراً في قميصه، ولا بد أنها أحدثت كثيراً من الضرر تحته، لأن لديها أسنان الكلاب وهي أكثر حِدَّةً من الحِراب. لا بدّ أنها أمضت ثلاث دقائق كاملة في عضه، وكان لين منغ يعاني الألم إلى درجة أنه يصرخ بطريقة مرعبة طوال الوقت. حينما انتهت تلك الدقائق الثلاث، استخدم لين منغ قبضته وقدمه، فلكمها على وجهها وركلها على ساقها، وكانت بينغبينغ تعاني الألم إلى درجة أنها سقطت على الأريكة ولم تستطع النطق بكلمة واحدة مدة عشر دقائق. بعد ذلك، فقدت عقلها حقاً، والتقطت كل شيء يمكن أن تصل يديها إليه وألقته على لي مينغ. لقد كانت مجنونة للغاية، والآن حان دوره ليشعر بالخوف. حينما حطمت

كرسياً على حجابه الحاجز، لم يؤلمه ذلك كثيراً في الواقع، لكن لين منغ تظاهر بشدّة الألم، وانهار على الأريكة وأمسك بطنه. كان يعتقد أن بينغبينغ ستغير سلوكها حينما تراه في هذه الحالة، وأنها ستتوقف عن ضربه، وستجري إليه وتعانقه وتنفجر في البكاء. لكن ما حدث هو أن بينغبينغ، حينما رأت عينيه مغلقتين، التقطت منفضة سجائر ورمتها على رأسه. الآن لين منغ أغمي عليه حقاً..."

أخيراً، قلت لوالديَّ المخدرين: "بصفتي صديقاً للين مينغ، يجب أن أذهب وأراه، ألا تعتقدان ذلك؟"

ثم سرت على طول الشارع، وأنا في طريقي لرؤية هذين الصديقين القديمين لي. لقد تعرّفت أحدهما حينما كنت في الخامسة من عمري، والآخر حين كنت في السابعة. كلاهما كانا أكبر مني بأربع سنوات. حين تزوجا قبل ثلاث سنوات، أهديتهما بطانية، وهما ينامان تحت هذه البطانية في الربيع _وفي الخريف أيضاً_ لذا، في بعض الأحيان قبل أن يناما، يفكران بي فجأة ويقولان: "يكاد يكون شهر منذ آخر مرة رأينا فيها كذا وكذا..."

لم أرهما منذ شهر، والآن وأنا أسير نحوهما بدأت أفتقدهما. بادئ ذي بدء، فكرت في منزلهما الصغير بزخارفه الجميلة، وتذكرت دزينة أو نحو ذلك من البالونات التي ربطوها بالنوافذ والسقف وإلى جانب الخزانة ذات الأدراج. لم يكن لدي أدنى فكرة لماذا كان هذان المجنونان مغرمين جداً بالبالونات - والبالونات الوردية حصراً. تذكرت ذات مرة، حينما كنت جالساً على الأريكة، لاحظت وجود ثلاثة سراويل داخلية وردية معلقة على الحبل في الشرفة، تقريباً بلون البالونات نفسه، واعتقدت أن هذه السراويل

لا بدّ أنها سراويل بينغبينغ. كان انطباعي الأول أنهم كانوا ثلاثة بالونات، وكنت أوشك أن أقول إن ثمة بالونات معلقة على الشرفة أيضاً. لحسن الحظ لم أقل ذلك، لأنني أدركت عند الفحص الدقيق أنها لم تكن بالونات على الإطلاق.

أَحببت كليهما. لين منغ شخص من النوع الذي يتحدث ويضحك بصوت عالٍ جداً. يرتدي سترة بنية تسعة أشهر في السنة، والأشهر الثلاثة الأخرى، يرتدي شيئاً آخر لأن الجوّ يكون حارّاً جداً. ثم تبرز عظامه وتتدلى ذراعاه بشكل غير محكم في أثناء سيره على طول الشارع، لذلك يبدو دائماً كما لو أن ثمة مساحة فارغة داخل ملابسه.

إنه من النوع الذي لا يعرف نقاط ضعفه. لديه ميل للتلعثم، في سبيل المثال، لكنه هو نفسه لا يدرك ذلك، أو أقله لم يعترف بذلك قطّ. إن زوجته، بينغبينغ، امرأة حسنة المظهر. لديها شعر طويل، لكنها ترفعه في معظم الأحيان. تدرك أن رقبتها نحيلة وجميلة، وترتدي أحياناً ملابس ذات أطواق عالية، وما إن أخفت رقبتها تصبح أكثر جمالاً، لأن الياقة العالية تبدو مثل بتلة زهرة.

قبل أربع سنوات، لم يكن أي شيء يدور بينهما، كانت علاقتهما مجرد معرفة. لم يكن لدى أي منا أي فكرة عن كيفية تقاربهما. أنا من قام بهذا الاكتشاف.

في ذلك المساء بالذات شعرت بالملل حقاً. ذهبت أولاً لرؤية شين تيانشيانغ، لكن والدته قالت إنه خرج وقت الغداء ولم يعد بعد. ثم ذهبت لرؤية وانغ فاي، ووجدته مستلقياً في السرير متورداً، ومحموماً بسبب درجات الحرارة المرتفعة. أخيراً، ذهبت إلى منزل تشين لي تشنغ، وكان يضرب الطاولة ويواجه شجاراً كبيراً مع والده. لم تتجاوز قدمي أبداً عتبته،

لأنني لم أرغب في الانخراط في مشاجرات الآخرين، ولا سيما مشاجرات بين أب وابنه.

عدت إلى الشارع مرة أخرى، وفي حين تساءلت إلى أين أذهب بعد ذلك، رأيت لين منغ. كان يمشي تحت الأشجار ويحمل لحافاً تحت ذراعه. على الرغم من أن الأوراق حجبت ضوء مصابيح الشوارع، إلا أنني تعرفت عليه على الفور وناديت باسمه. لقد سررت للغاية بلقاءنا مصادفةً إلى درجة أن صوتي بدا عالياً علوّاً غير عادي. قلت: "لين منغ، كنت أوشك أن أذهب لرؤيتك".

استدار رأس لين منغ في اتجاهي، ثم استدار بعيداً. لقد سرعت من وتيرتي لألحق به. "لين منغ، أنا أناديك"، ناديته مرة أخرى.

هذه المرة ظل رأسه ينظر إلى الأمام مباشرة، واضطررت إلى الركض إلى الأمام والتربيت على كتفه. نظر إلي وأبدى انزعاجاً سيئاً. حينئذٍ فقط أدركت أن بينغبينغ كانت تسير إلى جانبه، وزجاجة ماء في يديها. ابتسمت لي ابتسامة صغيرة.

في وقت لاحق تزوجا. كانت حياتهما الزوجية سعيدة، بقدر ما أستطيع أن أقول. في الأيام الأولى كنا نلتقي في كثير من الأحيان على درجات السينما، أو في أحيان أخرى عند مدخل المتجر، حينما كنت أعبر من هناك وهما يخرجان.

في العامين الأولين من زواجهما، زُرتُ منزلهما مرات عدة، وفي كل مرة كنت أقابل شين تيانشيانغ أو وانغ فاي أو تشن لي تشينغ، أو الثلاثة جميعهم في الوقت نفسه. لقد شعرنا كثيراً أننا في بيتنا في منزل لين منغ. يمكننا الجلوس على الأريكة، أو على سريرهم ولحافهم المطوي خلفنا للشعور بالراحة.

غالباً ما كان وانغ فاي يذهب ويفتح باب ثلاجتها ليرى ما بداخلها؛ ليس، كما قال، لأنه كان جائعاً، إنما لإلقاء نظرة فحسب.

لين منغ رجل مرح. يستخدم وعاءً زجاجياً كبيراً، من النوع المصمم لاحتواء القهوة سريعة التحضير ككوب للشاي، ويحب أن يضع كرسياً إلى جانب الباب ويجلس هناك وظهره على الباب، ممسكاً ذلك الوعاء الكبير في يديه ويضحك بأعلى صوته وهو يتحدث. وقد يبدأ في قول الهراء في أي وقت من الأوقات تقريباً. في كثير من الأحيان كان يفشي بتفاصيل سرية حول حياته الخاصة وحياته مع بينغبينغ، وقد نجح في إثارتنا في هذا الأمر. كان يضحك كثيراً إلى درجة أنه يطرق رأسه في الباب طرقة مدوية.

في مثل هذه اللحظات، كانت بينغبينغ تعبس في وجهه وتقول: "لا تتحدث عن ذلك".

في وجود كثير من الناس في الغرفة، كانت بينغبينغ تجلس على كرسي دائري صغير، ويداها على ركبتيها، تراقب حديثنا بابتسامة على شفتيها. حينما نشعر أننا ربما أهملناها نسألها: "بينغبينغ، لماذا لا تقولي أي شيء؟" فتجيب: "أنا أستمتع بالاستماع إلى حديثكم يا رفاق."

أحبّت بينغبينغ الاستماع إليّ وأنا ألخص حبكة بعض الأفلام الحديثة، وإلى شين تيانشيانغ وهو يروي قصصاً عن الصيد، وإلى وانغ فاي وهو يقارن العلامات التجارية المختلفة للثلاجات، أو تشن لي تشينغ وهو يغني إحدى أحدث الأغاني الناجحة، وما لم تستمتع به هو حديث لين منغ. لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى يقول زوجها: "بينغبينغ تريد أن تنام بين ذراعي كل ليلة".

تتقوس حواجب بينغبينغ عابسة. كنا ننفجر من الضحك، ويشير لين منغ إلى زوجته ويقول: "إذا لم أحملها بين ذراعي، فلن تتمكن من النوم. لكن ما إن آخذها بين ذراعي،" يواصل لين منغ، "تبدأ في التنفس في رقبتي. وهذا يدغدغني..."

في هذه المرحلة، قد تقول بينغبينغ: "لا تتحدث عن ذلك."

"إذاً، أنا من أكون غير قادر على النوم." كان لين منغ يضحك بشدة وينهي ما يريد قوله.

كانت المشكلة أن تعليقات لين مينغ بشأن هذا الموضوع ستستمر ولن تتوقف طالما كنا هناك. إنه من النوع الذي يحب أن نجتمع حوله، ويضحكنا كثيراً، ولن يتوقف عند أي شيء لتحقيق هذا النوع من التأثير. كان يقرأ القائمة الكاملة للأسماء المستعارة التي تسمّيه بها بينغبينغ حينما يكونان في السرير، ما جعلنا نضحك.

بدأت القائمة بكلمة "حبيبي"، ثم "كنزي"، ثم "أميري"، ثم "فارسي"، أو "حصاني". كانت تلك الأسماء الأكثر تهذيباً. ثم تلك الكلمات المستوحاة من المواد الغذائية، مثل "الملفوف" و "التوفو" و "السجق" و"البطاطا"، وكذلك بعض الأسماء التي وجدناها غريبة، مثل "مرح" و "رخو".

"هل تعرفون لماذا تدعوني مفعماً بالنشاط والحيوية؟"

كان يعلم أننا لم نفهم، لذلك وقف حينما سألناه هذا، مزهوّاً بنفسه. ووقفت بينغبينغ على قدميها أيضاً. بدت غاضبة وشحبت تماماً. "لين منغ!" صرخت.

كنا نتوقع منها أن تنسحب حقاً، لكن كل ما قالته: "هذا يكفي".

جلس لين منغ وضحك ضحكة طويلة ونظر في عينيها. ردّت له نظرته، ثم استدارت واختفت في غرفة أخرى. شعرنا جميعاً بعدم الارتياح الشديد، لكن لين منغ تصرف كما لو لم يحدث شيء، وهو يلوح بيده باستخفاف. قال "لا تهتموا بها".

ثم عاد إلى سؤاله: "هل تعرفون ما تعنيه بكلمة (نشيط)؟"

لم ينتظر منا هزّ رؤوسنا، أشار إلى تحت حزامه: "أنها تعني هذا الذي هنا".

بدأنا نضحك. (ورخو)؟" سأل.

هذه المرة ثبتنا أعيننا تلقائياً إلى منفرجه المفتوح، وأشار إلى المكان مرة أخرى. "الشيء نفسه."

ما يقولونه صحيح، عليك فقط أن تكون مستعداً لإجراء تسويات حينما تكون متزوجاً. بعد أن عاشت بينغبينغ مع لين مينغ مدة عامين، واعتادت هراء زوجها، فحينما يحرّك لسانه، لم تعد تقول له "هذا يكفي"، لكنها تنظر إلى الأسفل وتلعب بأصابعها، لقد استسلمت بالفعل، على ما يبدو، بسبب طيش لين منغ.

ليس هذا فقط، إنما في بعض الأحيان كانت تدلي ببعض التعليقات المماثلة بنفسها - من النوع الأكثر تحفظاً، وغنيّة عن القول. أتذكر يوماً ما حينما كنا نجلس في منزلهما وقال الجميع كيف يبدو لين منغ ساحراً حينما يضحك، تدخلت بينغبينغ قائلة: "حينما يكون سعيداً في الليل يبدو في أفضل حالاته."

لم نلتقط على الفور ما تعنيه، ونظرنا إلى لين مينغ ثم إلى بينغبينغ، غير متأكدين ما إذا كنا سنضحك أم لا. وأضافت للتوضيح "عندما يحتاجني".

ضحكنا كثيراً على ذلك، وبينغبينغ، التي أدركت أنها قد قالت شيئاً لا ينبغي لها أن تقوله، تورد خدّاها باللون الأحمر الفاتح. الآن وقد أصبح موضوعاً للتسلية، ضحك لين منغ ضحكة خافتة ضعيفة ومحرجة، ولم يطرق رأسه في الباب كالمعتاد. التزم الصمت كلما قام أحدهم بمزحة تخصّه.

لذلك عرفنا شيئاً أو شيئين عن حياتهما الجنسية، وأكثر من ذلك عن جوانب أخرى من زواجهما. كان لين منغ رجلاً محظوظاً، من وجهة نظرنا. اتفق الجميع على أن بينغبينغ كانت امرأة جذابة، وكان من الواضح مدى تفهمها وقدرتها، ولم نرها قطّ تدخل في جدال مع لين مينغ بشأن أي شيء. حينما قمنا بزيارتهما، كانت دائماً تسكب الماء في فناجين الشاي المقدمة لنا وسرعان ما ترسل علبة أعواد الثقاب إلى أي زوج من الأيدي التي كانت تستعد لإشعال سيجارة. بعد زواج لين مينغ، أصبح حذاؤه الجلدي لامعاً دائماً، وازداد ذوقاً في لباسه، وذلك كله بفضل بينغبينغ. في الماضي، كان العضو الأكثر قذارة في مجموعتنا.

هاأنذا، وأذكر هذه الصور لهما كزوجين، وحينما وصلت إلى شقتهما في هذا الصباح بالذات، بدا لي أنه قد مر وقت طويل منذ آخر زيارة لي. لما فتحت بينغبينغ الباب، وجدت أنها قد تغيرت. يبدو أنها اكتسبت بعض الوزن، أو ربما فقدت بعضه.

أول ما رأيت يد بينغبينغ، يداً رفيعة تمسك بالإطار، ثم انفتح الباب. حينما رأتني بينغبينغ بدا أنها تحركت بسرعة مفاجئة -افترضتُ لأنها لم ترَني

منذ مدّة طويلة. دخلت مع ابتسامة في وجهي، فقط لأكتشف أنه ليس ثمة علامة على وجود شين تيانشيانغ أو وانغ فاي أو تشن ليكينغ - ولا حتى على لين منغ. "أين لين منغ؟" سألت.

لم يكن لين منغ في المنزل. كان قد غادر إلى المصنع في السابعة والنصف صباحاً. سيكون شين تيانشيانغ ووانغ فاي وتشن لي تشينغ في العمل أيضاً في هذه الساعة. لم يكن هناك سوى أنا وبينغبينغ... "هل نحن الاثنان فقط؟" قلت لها.

في الشقة، كان ما قصدته. لقد لاحظت كيف ضاق وجه بينغبينغ حينما قلت هذا وقلت لنفسي، هل هذه ابتسامة؟ "ماذا جرى؟" سألت.

نظرت بينغبينغ إلي بشكل غير مفهوم، "هل كنت تبتسمين لي الآن؟" قلت.

أومأت بينغبينغ: "نعم."

شُد جلدها مرة أخرى. كنت أنا من ابتسم حينئذٍ. "لماذا تبتسمين بهذه الطريقة الغريبة؟" قلت.

كل هذا الوقت، كانت بينغبينغ تقف في المدخل، ولم تغلق الباب قطُّ وكانت يدها لا تزال تمسك بإطار الباب. بدا أن وقفتها تشير إلى أنها تنتظر فقط مغادرتي. "هل تريدين أن اذهب؟" قلت.

في ذلك الوقت، فصلت نفسها عن إطار الباب واستدارت في وجهي، وكانت يداها تتحركان في هذا الاتجاه وكأنها لم تستطع إيجاد مكان مناسب لوضعهما. لم أر بينغبينغ في هذه الحالة من قبل، وهي تقف جامدة تماماً،

وابتسامتها لا يمكن تعرُّفها كابتسامة. "ماذا بك اليوم؟" قلت. "هل أنت توشكين أن تخرجي أو تفعلين شيئاً ما؟"

هزت رأسها بلا حول ولا قوة. قلت: "إذا لم تكن في عجلة من أمرك، فسوف أجلس." جلست على الأريكة لكنها ظلت واقفة هناك. ضحكتُ. "ماذا تفعلين؟" سألتُ.

جلست على كرسي ووجهها بعيداً عني. كانت تتنفس بصعوبة، على ما يبدو، وكانت ساقاها تتحركان بقلق، إذ لم تستطع العثور على وضع مريح كما كانت يداها قبل دقيقة واحدة فقط. "بينغبينغ، ما خطبك؟" قلت. "اليوم أتيت لزيارتكم، وأنت لا تصبّين لي كوباً من الماء ولا تقشرين لي تفاحة - هل سئمت مني، أم ماذا؟"

هزّت بينغبينغ رأسها بقوة: "لا، على الإطلاق. لماذا سأسأم منك؟"

ابتسمت وأحضرت لي كوباً من الماء. هذه المرة بدت ابتسامتها كأنها ابتسامة. قالت وهي تعطيني الكوب: "ليس لدينا تفاح اليوم. هل ترغب في تناول الخوخ؟"

قلت: "لا آكل الخوخ. هذا شيء تحبه النساء. فقط الماء جيد."

جلست بينغبينغ على الكرسي مرة أخرى، وبينما كنت أشرب الماء قلت: "في الماضي، في كل مرة أتيت فيها إلى منزلك، كنت دائماً أجد شين تيانشيانغ والآخرين هنا، أو إذا لم يكونوا الثلاثة هنا، كان لا بد أن يكون واحد منهم في الأقل. اليوم، لم يأت أحد منهم، وحتى لين منغ ليس في المنزل، لذلك نحن فقط اثنان، وأنت لست متحدثةً رائعةً..."

أدركت فجأة أن بينغبينغ كانت متوترة، وتدير رأسها في اتجاه الباب، وتستمع إلى شيء ما، على ما يبدو، إلى خُطا شخص يصعد الدرج. سار بخطوة بطيئة للغاية. يبدو أنه ليس في عجلة من أمره. وصل إلى العتبة في الخارج مباشرة، ثم واصل صعود الدرج التالي. زفرت بينغبينغ، ثم استدارت لتنظر إلي. كان وجهها شاحباً إلى درجة أنها صدمتني. ابتسمت مرة أخرى، من الطريقة التي شدّت بها بشرتها. لم أستطع الوقوف للنظر إلى ابتسامتها، لذا نظرت في أرجاء الغرفة بدلاً من ذلك. لقد اختفت البالونات. لا توجد ألوان وردية في أي مكان، بقدر ما استطعت أن أرى، ولم يسعني إلا إلقاء نظرة سريعة على الشرفة، لكن بينغبينغ لم يكن لديها سراويل داخلية معلقة هناك، لذلك لم يكن أي لون وردي أيضاً. "ألم تعودي تحبين البالونات بعد الآن؟" سألت.

كانت عيني بينغبينغ تراقبني بطريقة أعطتني إحساساً أنها سمعت صوتي لكنها لم تسمع ما كنت أقوله. قلت: "اختفت البالونات".

"بالونات؟" بدت حائرة.

قلت: "هذا صحيح، بالونات. ألم يكن لديك كثيرٌ من البالونات معلقة في شقتك؟"

"أوه..." تذكرت.

قلت: "لدي شعور أنك اليوم تتصرفين قليلاً على نحو... كيف أصفه؟ غريب نوعاً ما."

"لا أنا لست كذلك." هزت رأسها.

إنكارها لا يبدو متقناً جداً. "لم أكن أخطط أصلاً للحضور ورؤيتك، هل تعلمين ذلك؟" قلت. "لقد انتقلنا إلى مكان جديد، وكنت أساعد والدتي في ترتيب الأغراض في المطبخ، وأساعد والدي في ترتيب الكتب في المكتب، وقادني كلاهما إلى الجنون بالطريقة التي كانا يعطيان بها الأوامر، لذلك خرجت من هناك. في البداية كانت لدي فكرة أن أذهب لرؤية شين تيانشيانغ، لكننا كنا معاً منذ يومين فقط، وغالباً ما أتسكع مع وانغ فاي وتشين لي تشينغ، لذلك كنتما الشخصين الوحيدين اللذين لم أرهما منذ مدّة طويلة. لهذا السبب أتيت إلى شقتك، دون أن أدرك أن لين منغ لن يكون في المنزل. لقد نسيت أنه سيكون في العمل اليوم".

لم أكشف أنني اختلقت قصة عن شجار بينها وبين لين منغ. كانت بينغبينغ شخصاً جاداً. "لم يخطر ببالي أنك ستكونين في المنزل بمفردك..."

كانت بينغبينغ وحيدة ومنشغلة جداً، اعتقدت أنني حقا يجب أن أغادر. وقفت، وقلت: "سأخرج من المنزل الآن".

وقفت بينغبينغ في الحال: "لماذا لا تبقى مدّة أطول قليلاً؟"

"لا، يجب أن أذهب."

لم تقل شيئاً أكثر وببساطة وقفت مكانها تنتظر. بدا الأمر على نحو متزايد كأنها أرادتني أن أخرج من المنزل على الفور، وسرت بضع خطوات نحو الباب. ثم خطرت لي فكرة: "سأستخدم حمامك فقط، لا يوجد مراحيض عمومية في طريقكم". أضفت، وأغلقت الباب خلفي.

في الأصل كنت سأبول فقط، لكن بعد أن انتهيت من التبول شعرت كأنني أحتاج إلى التبرز، لذلك سيستغرق الأمر مني بعض الوقت. بعد أن

جلست القرفصاء مباشرة، سمعت صوت طقطقة في الخارج كما لو كان شخص ما يجري في الطابق العلوي بسرعة عالية. سمعت صرخة "بينغبينغ، بينغبينغ!" حينما وصل إلى باب الشقة.

إنه لين منغ. سمعت بينغبينغ تقول بصوت مرتعش: "كيف عدت؟"

لا بدّ أن الباب فُتِح، ودخل لين منغ. "اليوم أُرسلت لأخذ شحنة،" سمعته يقول. "كنت في حاجة ماسة إلى التبول، لكن لم أجد مرحاضاً في أي مكان على الطريق، لذلك اضطررت إلى العودة إلى المنزل بسرعة."

بدا أن لين منغ يهجم مثل الخنزير البري نحو الحمام. وحين سحب باب الحمام، توقف فجأة. لا بدّ أنه صُدم حينما وجد الباب مغلقاً، وسمعته يسأل بينغبينغ بصوت مرتبك: "هل ثمة شخص ما في الداخل؟"

لا بد أن بينغبينغ أومأت برأسها، لأن الشيء اللاحق الذي سمعته كان لين مينغ وهو يصيح، "من في الداخل؟"

لم يسعني إلا الابتسام داخل الحمام. قبل أن تسنح لي الفرصة للرد، بدأ لين مينغ بركل الباب والصراخ، "أخرج من هناك!"

في هذه اللحظة، كنت قد جلست للتو ولم يكن لدي وقت للقيام بعملي، لكن بالنظر إلى كيف كان الباب يرتجف تحت تأثير ركلاته، لم يكن لدي خيار سوى رفع سروالي، وربط حزامي، وفتح باب الحمام. حينما رأى لين مينغ أنه أنا، أصيب بالذهول. قلت: "لين منغ، لم أنتهِ بعد، لكنك كنت تركل الباب بصخب. كنت أوشك أن أتخلّص من حمولتي، لكن مع ركلتك بهذه الطريقة، عادت مرة أخرى".

حدق إلي لين منغ، واتسعت عيناه مثل صحنين. "لم أتوقع قطّ أن تكون أنت!" قال وهو يكز على أسنانه.

جعلني تعبيره أضحك بصوت عالٍ. قلت: "لا تنظر إلي بهذه الطريقة".

لكن لين مينغ استمر في التحديق، وأشار إلي أيضاً. أبقيت على مسافة من سبابته الممتدة. قلت: "إنك تجعلني أرتجف".

"أنت من تصيبني بالقشعريرة!" صرخ لين مينغ.

صراخه أزعجني إلى درجة أنني بدأت آخذ سخطه على محمل الجد. "ماذا جرى؟" سألت.

قال: "لم يكن لدي أي فكرة أنك تتواصل مع زوجتي".

"أتواصل؟" قلت. "ماذا تقصد بـ أتواصل؟"

أجاب: "دعك من التصنّع".

ألقيت نظرة إلى بينغبينغ، على أمل الحصول على فكرة عما كان يدور بخلد لين مينغ، لكنني وجدت وجهها قد أصبح أبيض تماماً، مثل ورقة، مع وجود أثر رمادي حول شفتيها. الطريقة التي بدت بها جعلتني أكثر قلقاً. الآن فهمت ما كان يدور في خلد لين مينغ، فهو يعتقد أنني نمت مع بينغبينغ. قلت: "لين مينغ، أنت ترتكب خطأً فادحاً. لا يوجد شيء على الإطلاق بيني وبينها".

رأيت أنها كانت تومئ برأسها، لكن يبدو أن لين مينغ لم يكن لديه أدنى اهتمام بكلامي أو إيماءاتها. أشار إلي قائلاً: "يمكنك أن تتخلى عن

محاولة إنكار ذلك. ما إن دخلت الباب، رأيت أنها تتصرف على نحو غريب. على الفور عرفت أن ثمة شيئاً مريباً يحدث".

"لا". قلت. "ما تعتقد أنه حدث لم يحدث على الإطلاق."

"لم يحدث ذلك؟" قال وخطا خطوة إلى الأمام. "لماذا كنت تختبئ في لحمام؟"

قلت: "لم أكن أختبئ في الحمام".

أشار إلى الحمام: "ما هذا _المطبخ؟!"

قلت: "إنه ليس المطبخ، إنه الحمام، لكنني لم أكن مختبئاً هناك، كنت أريد التبرز."

"هراء!" وبهذا، ركض إلى المرحاض ونظر إلى أسفل، ثم وقف منتصراً إلى جانب الباب. "لماذا لا أرى أي براز؟" قال.

قلت له: "لم يكن لدي الوقت للقيام بذلك. بسبب الطريقة التي ضربت بها على الباب، لم يخرج شيء."

"من الذي تحاول أن تضحك عليه؟" لوح بيده بازدراء، ثم لف على كعبه وغطس في الحمام، وأغلق الباب، وسمعته يقول في الداخل: "كلاكما جعلني غاضباً إلى درجة أنني أفقد حواسي. لقد نسيت عملياً أنني كنت أموت من أجل التبول".

كنت أسمع بوله يتناثر على المرحاض. ألقيت نظرة على بينغبينغ. إنها الآن جالسة على كرسي، وتدفن وجهها بين يديها وكتفيها يرتجفان. ذهبت إليها. "ماذا يحدث هنا؟" سألت. "ما زلت لا أفهم ما يحدث."

رفعت بينغبينغ رأسها ونظرت إلي. كانت ثمة دموع في وجهها الآن، لكن ما أدهشني حقاً هو مظهر ذعرها المطلق. بدا الأمر لها كما لو أنه لم يكن واضحاً ما حدث حقاً أيضاً. في هذه اللحظة فُتِح باب الحمام. حينما خرج لين مينغ، كان الأمر كما لو أنه شخصاً مختلفاً، هدأ بعد التبول. قال لي: "اجلس".

بقيت واقفاً. ابتسم ابتسامة لم أكن أتوقعها. كرر قوله: "اجلس. لم لا تجلس؟"

لقد تحدث بنبرة تجعلك تعتقد أن شيئاً لم يحدث على الإطلاق. جلست في جلبة أفكاري، إلى جانب بينغبينغ. ما حدث تالياً، جاء لين مينغ ومعه قلم وورقة في يده وجلس أيضاً. قال لبينغبينغ: "لقد خذلتيني".

رفعت بصرها: "لا، لم أفعل".

تجاهلها لين مينغ، وتابع: "لقد خذلتيني، لكنني لن أضربك، ولن أشتمك بأسماء بذيئة."

كررت بينغبينغ: "لم أفعل. أنا لم أخذلك."

كان صبر لين مينغ ينفد. لوح بيده في الهواء: "بغض النظر عما تقوليه، أنا متأكد من أنك خذلتيني، لذا توقفي عن كل هذا الهراء! فقط التزمي الصمت واستمعي إلى ما سأخبرك به. لا يمكننا الاستمرار في العيش معاً، هل تفهمين؟"

نظرت بينغبينغ إليه، والحيرة في وجهها. نظر إليّ وأكمل: "هل هذا واضح؟ أنا وأنتِ يجب أن نطلّق، لا يوجد مخرج آخر".

انهمرت الدموع على وجه بينغبينغ. "لماذا يجب أن نطلّق؟" قالت.

أشار لين مينغ إلي: "لقد ذهبت إلى الفراش معه. بالطبع يجب أن أطلقك".

قالت: "لم أفعل".

في هذه اللحظة، كانت بينغبينغ لا تزال تقدم دفوعها بأضعف صوت. لم أكن سعيداً بذلك على الإطلاق. قلت لها: "عليك أن تقوليها بقوة أكبر. قوليها له بصوت عالٍ وواضح، لا يوجد شيء يدور بيني وبينك. اضربي الطاولة إذا أردتِ".

ضحك لين مينغ: "إنه عديم الفائدة، ليست المشكلة أنها لم تتحدث بصوت عالٍ. بل كيف جرى الأمر؟ إذا كنت على حق، يمكنك الوصول إلى أي مكان؛ وإن لم تكن فلن تصل إلى أي مكان".

قلت له: "في هذه الحالة، نحن على حق، وأنت على خطأ."

أطلق لين مينغ ضحكة أخرى. "هل سمعتي هذا؟" قال لبينغبينغ. "إنه يقول (نحن) أنت وهو. بعد أن أطلّقك، يمكنكما أن تتزوجا كلاكما".

رفعت بينغبينغ رأسها ونظرت إلي. بدت نظرتها وكأنها امرأة اكتشفت للتو شريكاً جديداً. لوحت بيدي. قلت: "بينغبينغ، لا تستمعي إلى هرائه".

نظرت بينغبينغ إلى زوجها. لقد بدأ في وضع علامات على الورقة بقلمه، وقال لها: "لقد جمعت كل شيء. مجموع مدخراتنا والنقود المتوفرة لدينا تبلغ اثنا عشرة ألف وأربعمئة يوان، فيحصل كل منا على ستة آلاف ومئتين يوان. يمكنك الاختيار بين التلفاز أو جهاز الفيديو، ويمكنك الاختيار بين الثلاجة والغسالة..."

نظراً لأنهما كانا يتناقشان الآن في تقسيم الممتلكات، اعتقدت أنه لا ينبغي لي البقاء. قلت: "سأنسحب، أنا خارج."

حينما توجهت إلى الباب، أمسك بي لين مينغ من ذراعي. قال: "لا يمكنك المغادرة الآن. لقد أفسدت زواجنا، والآن عليك أن تتحمل مسؤولياتك".

قلت لم أفسد زواجك: "أنا لم أفسد زواج أي شخص. ما هي المسؤوليات التي تريد مني أن أواجهها؟"

نهض لين مينغ ودفعني مرة أخرى إلى الكرسي حيث كنت أجلس للتو. ثم واصل مناقشة تقسيم الملكية مع بينغبينغ: "ملابسنا الخاصة، نأخذها معنا. والأثاث نقسمه أيضاً بالتساوي. بالطبع، نحتاج إلى تقسيمه على نحو معقول - لا يمكننا تقسيم السرير والطاولة إلى نصفين... هذه الشقة لا يمكن نقسمها - كانت لك قبل أن نتزوج، لذا عليك الاحتفاظ بها".

ثم التفت إلي وأصدر التعليمات التالية: "بعد أن أطلق بينغبينغ، عليك أن تتزوجها في غضون شهر".

قلت: "ليس لك الحق في أن تقول ذلك لي. سواء تطلقت أنت وبينغبينغ أم لا، فليس لي علاقة بذلك".

"لقد أغوِها، وأفسدتها، وحرضتها على ارتكاب الزنا، وأنت تخبرني أن الأمر لا يتعلق بك؟"

قلت: "أنا لم أغويها. اسأل بينغبينغ، هل أنا أغويتك أو لا؟"

نظرنا إليها. هزت رأسها ذهاباً وإياباً. قلت: "بينغبينغ، تكلمي. هل فعلت هذا أو لم أفعل؟"

قالت: "لم تفعل".

لكنها قالت هذا بأضعف صوت. قلت لها: "بينغبينغ، حين تقولين هذا النوع من الأشياء، عليك أن تكوني حازمة. يجب ألا تكوني ضعيفة جداً. حينما يهينك لين منغ أمامنا، كل ما تفعلينه هو همهمة (هذا يكفي) يجب أن تقفي وتوبخيه توبيخاً لاذعاً".

في هذه المرحلة، ربت لين منغ على ظهري. قال: "كصديق، أريد أن أقدم لك بعض النصائح. لا تحاول تحويل بينغبينغ إلى زوجة ناشز، لأنك ستصبح زوجها في المستقبل".

"لا أنا لست كذلك." قلت.

"عليك أن تكون كذلك."

قال لين مينغ هذا بتأكيد حازم، لقد أزعجني تماماً. مرة أخرى التفت إلى بينغبينغ: "ما الذي يجري هنا؟ عندما غادرت منزلي، لم يكن لدي أي فكرة على الإطلاق أن أعود ومعي زوجة - امرأة، والأكثر من ذلك، هي زوجة صديقي. سيكون ذلك سيئاً بما فيه الكفاية ، لكن الأسوأ من ذلك هو أن المرأة كانت متزوجة سابقاً وأكبر مني بأربع سنوات. سيجنّ جنون والدايّ..."

قال لين مينغ: "هذا ليس صحيحاً. والداك أناس متعلمون. لن يكونا مهتمين في مثل هذه الأشياء".

"أنت مخطئ في هذا - المتعلمون هم الأكثر تحفظاً." أشرت إلى بينغبينغ. "لا يمكن أن يقبلها والداي."

قال لين مينغ: "عليهما قبول بينغبينغ فحسب".

"ما الذي يجري هنا؟" التفت إليها مرة أخرى. "عقلي مشتت، وهذا يقودني إلى الجنون."

لم تعد بينغبينغ تصرخ. قالت لي: "ما كان يجب أن تأتي إلى هنا اليوم. وبعد أن أتيت، كان يجب أن تغادر على الفور."

أشارت إلى لين منغ، وتابعت قائلة: "على الرغم من أنكم أصدقاؤه، فأنتم لا تعرفونه حقاً على الإطلاق."

كان هذا كل ما قالته، لكنه كان كافياً لجعل الأمور واضحة تماماً. الآن فهمت لماذا، ما أن وصلت إلى الباب، أصبحت بينغبينغ في حيرة فيما يجب فعله - كان ذلك لأن لين مينغ لم يكن في المنزل. كانت بينغبينغ متوترة الأعصاب لأنني - رجل ليس زوجها - كنت وحدي معها. في الوقت نفسه، أدركت أي نوع من الأشخاص كان لين مينغ. قلت له: "كنت أعتقد أنك شخص واسع الأفق وكريم. لكنك ضيق الأفق وغيور حقاً."

قال: "لقد نمتَ مع زوجتي، وتتوقع مني أن أكون واسع الأفق وكريماً؟"

قلت، مشيراً إلى أنفه: "أريدك أن تعرف، لقد سئمت منك تماماً. بغض النظر عن نوع القمامة التي تنفثها، لا يمكنني أن أزعج نفسي بالتجادل معك. بينغبينغ هي الشخص الوحيد الذي أقلق بشأنه. أشعر أنني أوقعتها في مشكلة. ما كان يجب أن آتي إلى هنا اليوم..."

بعد أن قلت هذا، بدأت أشعر بالحماس ولوحت بيدي في الهواء: "لا، لقد فعلت الشيء الصحيح بقدومي اليوم! بينغبينغ، من الجيد أن تنفصلا. إنها مجرد كارثة أن تعيشي مع هذا النوع من الرجال. بقدومي اليوم، لقد أنقذتك. لو كنت أنا زوجك: أولاً، كنت سأحترمك ولن أقول أبداً أشياء من شأنها أن تجعلك غير مرتاحة؛ ثانياً، سأفهم وسأبذل قصارى جهدي للنظر في احتياجاتك؛ ثالثاً، سأكون واسع الأفق وسخياً حقاً، ولن أستعرض نفسي؛ رابعاً، سأشترك في تحمل مسؤولية الأعمال المنزلية ولن أتجول مثل اللورد لدى وصولي إلى المنزل، بالطريقة التي يفعلها؛ خامساً، لن أخبر أي شخص آخر باللقب التي تناديني به؛ سادساً، حينما تنامين بين ذراعي كل ليلة، لن تزعجني أنفاسك على رقبتي؛ سابعاً، أنا أقوى منه بكثير، فهو مجرد جلد وعظام..."

تابعت حتى بلغت الخامسة عشرة. بعد ذلك نفدت الأشياء التي أقولها واضطررت للتوقف. حينما ألقيت نظرة إلى بينغبينغ، وجدتها تحدق في وجهي والدموع في عينيها، متأثرة بكلماتي بوضوح. ثم نظرت إلى لين مينغ. كان يضحك. قال: "هذا جيد. صغتها ببلاغة. يمكنني الاسترخاء الآن. أعلم أنك ستكون جيداً مع زوجتي السابقة".

أجبته: "لدى قولي هذه الأشياء، ليس لدي أي مخططات خاصة. هذا لا يعني أنني بالتأكيد أرغب في الزواج من بينغبينغ. إذا كنت سأتزوجها ليس أمراً يعود قراره لي فقط. هل هذا ما هي تريده؟ لا أعلم. كل ما قصدته هو، لو كنت زوجها".

نظرت إليها: "بينغبينغ، أليس كذلك؟"

كانت المشكلة، أنها أخطأت في معنى كلماتي. قالت والدموع في عينيها: "سأكون زوجتك. بعد سماع ما قلته الآن، يسعدني أن أكون زوجتك".

استغلق عليّ الكلام. يا لي من أحمق، فكرت. لقد نصبت لنفسي فخاً وقفزت فيه مباشرة. حينما رأيت ارتياحاً مبهجاً في وجه بينغبينغ، أدركت أن فرصي في الخروج من هذا أصبحت بعيدة أكثر فأكثر. كان جمالها الآن معروضاً بالكامل، وعيناها الجميلتان تلمعان وهي تحدق إلى وجهي، ولا تزال الدموع تتدفق. قلت: "بينغ، لا تبكي".

رفعت يدها ومسحت دموعها. كان رأسي يوشك أن ينفجر، لقد اندفعت كثيراً، وفقدت عقلي الآن. وجدت نفسي أقول لـ لين مينغ، بنبرة زوج بينغبينغ: "لقد حان وقت رحيلك".

أومأ بالموافقة: "صحيح، يجب أن أذهب."

راقبته وهو يهرب بابتهاج، وخطر ببالي فكرة. لقد شعرت أن هذا الرجل كان على الأرجح يتطلع إلى هذه اللحظة بالذات منذ زمن طويل -لم يكن يتوقع أن أكون أنا من سيتولى المسؤولية منه. بعد أن غادر لين مينغ، جلست أنا وبينغبينغ معاً مدّة طويلة، ولم ينبس أحد منا بكلمة واحدة، بل كنا نفكر فقط. لاحقاً، سألتني إذا كنت جائعاً وما إذا كان عليها أن تذهب إلى المطبخ وتحضر شيئاً. هززت رأسي بالنفي. أردتها أن تبقى جالسة. جلسنا معاً بصمت مدّةً من الوقت، ثم سألتني بينغبينغ إذا كنت قد ندمت على الزواج منها. قلت لا. سألتني عما كنت أفكر فيه. قلت لها: "أشعر كأنني شخص روحانيّ".

لم تفهم بينغبينغ، لذلك شرحت: "حينما غادرت المنزل، ألّفت قصة لوالدي حول كيف أنت ولين مينغ في شجار، وكيف ضربت لين مينغ حتى

أصبح أسودَ وأزرقَ، وكيف أطاحك لين مينغ أرضاً حتى أصبحتما باللونين الأسود والأزرق... والآن أنتما الاثنان مطلقان حقاً. ألا تقولين إنني روحانيّاً؟"

لم تصدر بينغبينغ أي رد. كنت أعلم أنها لم تفهم بعد، لذلك شرحت لها أكثر، وأعطيتها تفاصيل القصة كلها التي أعددتها لأمي وأبي، بما في ذلك القصة التي تتحدث عن كيف حطمت منفضة سجائر على رأس لين مينغ. حينما سمعت هذا، لوحت بينغبينغ بيدها احتجاجاً، قائلة إنها لن تفعل شيئاً كهذا أبداً. قلت إنني أعرف ذلك، كنت أعرف أنها لن تفعل ذلك، وأعلم أنها لم تكن معركة. كنت أخبرها بهذه الأشياء فقط حتى تدرك أنني كنت روحانياً. الآن، فهمت. أومأت برأسها وابتسمت. لكن حين أومأت برأسها كنت أهز رأسي. قلت: "في الواقع، أنا لست روحانياً حقاً. على الرغم من أنني توقعت الخلاف بينك وبين لين مينغ، إلا أنني لم أتوقع أن ينتهي بي الأمر كزوج لك."

نظرتُ إلى بينغبينغ بشكل مثير للشفقة: "ليس لدي أدنى فكرة لماذا ينبغي لي أتزوج."

أصحاب

غادر كونشان منزله وفي إحدى يديه عود أسنان وساطور المطبخ المصقول في اليد الأخرى، إذ كان يهدد بذبح شي غانغ. قال: "حتى لو قررت أن أعفي عن حياته، لا زلت أرغب في أن أحتفظ بقطعة من جسده كتذكار". أما بالنظر إلى المكان الذي ستأتي منه قطعة اللحم هذه، فقد اعتقد كونشان أن هذا سيعتمد على مدى كرم المحتال شي غانغ.

إنه وقت الغداء حين سار كونشان على طول الجادة، وهو يمضغ عود أسنان، وعيناه محتقنتان بالدماء، وخيوط من التبغ عالقة على شاربه. مشى وشفتاه ملتويتان قليلاً، وبان من سترته المفتوحة حزام العمل الذي يرتديه. يمكن للناس أن يعتقدوا لوهلة أنه كان في طريقه إلى خوض معركة أخرى. لقد مشوا خلفه، وأمطروه بالأسئلة. "من هو؟" "كونشان، من تلاحق؟" "من هو هذه المرة؟"

بدا كونشان ذو شخصية مهيبة وهو يسير إلى الأمام، وازداد عدد حاشيته باطراد. لقد توقف حينما وصل إلى الجسر، وبصق عود الأسنان بصوت عالٍ في النهر أسفل الجسر، ثم وضع الساطور على الحاجز الخرساني، وسحب علبة سجائر ماركة (فرونت غيت) من جيبه. هزّ العلبة مرتين، فخرج طرفي سيجارتيْن. سحب واحدة بفمه، ثم أشعل عود ثقاب وأشعلها. لم يكن متأكداً بعد في أي اتجاه عليه أن يسير. كان يعلم أنه من أجل الذهاب إلى منزل شي غانغ سيحتاج إلى الانعطاف غرباً بعد عبور

الجسر، وللذهاب إلى المصفاة حيث يعمل، سيحتاج إلى السير جنوباً. غير أن المشكلة أنه لم يكن يعرف أين سيكون شي غانغ في ذلك الوقت.

لمّا أخذ كونشان نفساً، انتفخ أنفه. بدأ الآن بفحص حشد الناس المتجمعين حوله. حينما نظر بتجهّم إلى ملامحهم المبتهجة، لاحظ وجهاً رقيقاً مرتدياً نظارة طبية. سأله: "مرحباً، أنت تعمل في المصفاة، أليس كذلك؟". اقترب ذو الوجه النحيف منه. "هل تعرف شي غانغ؟"

أومأ الرجل برأسه: "نحن في المعمل نفسه."

سرعان ما تأكد كونشان أن شي غانغ لا يزال في العمل. نظر إلى ساعته، فوجدها أصبحت للتو الساعة الواحدة، ما يعني أن نوبة شي غانغ قد انتهت الآن، وأنه سيكون في طريقه إلى الحمام. ابتسم كونشان برفق، واستمر في الاتكاء على الحاجز. سحب بضع نفثات أخرى من سيجارته. في هذه الأثناء، أدلى بتعليقاته إلى المتفرجين بشأن ذبح شي غانغ أو في الأقل قطع جزءٍ منه.

كنت في الحادية عشرة من عمري حينئذٍ، وأنا في طريقي إلى المصفاة. بعد الغداء، ألقيت كتبي المدرسية على سريري، وحشوت بعض الملابس النظيفة في حقيبتي مع منشفة وصابونة، وطلبت إلى والدتي أن تعطيني عشر فينات(عملة صينية). وقلت لها: "سأستحم".

توجهت وأنا أحمل الحقيبة على ظهري، لكن ليس باتجاه الحمام العام في المدينة. إذ كان على المرء أن يدفع مقابل الدخول إليه، لكنني أردت الاحتفاظ بالعشرة قروش هذه لنفسي، لذلك توجهت إلى حمام المصفاة بدلاً من ذلك. كان ذلك في شهر نيسان، إذ كانت أشجار المظلة زاخرة بأوراق عريضة.

أشرقت الشمس براقة، ملتقطة الغبار المتراكم المنبعث من الشارع. غادرت المنزل في الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة، بعد أن حسبت الوقت بعناية. كنت أعلم أنه يجب أن أصل إلى المدخل الرئيسي للمصفاة في الساعة الثانية عشرةَ ظهراً تماماً، لأنه في ذلك الوقت يجلس الحارس العجوز في مكتب الاستقبال يتناول غداءه، مرتدياً نظارة بعدستين طبيتين سميكتين، وكنت واثقاً من أن البخار المتصاعد من وعائه سيحجب رؤيته تماماً. إلى جانب ذلك، كان يحب دفن رأسه في طعامه. كنت أتسلل بانتظام في هذا الوقت، أمرّ منحنياً جداً تحت نافذته. في الثانية عشرة والنصف، أنقع نفسي عارياً في الحمام الصغير المريح في المصفاة. ويكون لدي مكان لنفسي بعد ذلك، ويكون الماء ساخناً جداً إلى درجة أنه سيحرق مؤخرتي عملياً، وسيكون البخار كثيفاً كأنه معلّقٌ دون أن يتحرك، كما لو كان مرسوماً على الحائط. وينبغي لي الخروج من هناك بحلول الساعة الواحدة، وشطف الصابون قبل أن يدخل هؤلاء العمال المتسخون بالشحوم في الماء: حينما كانوا يسيرون ومناشفهم فوق أكتافهم، أكون قد جففت نفسي بالفعل، مع العلم أنه لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى يملؤوا الماء بفقاعات بيضاء رغوية وتصبح كحليب الفاصولياء.

لكن، في وقت الغداء في هذا اليوم نفسه، توقفت حينما وصلت إلى الجسر، وفقدت كل إحساس بالوقت، ونسيت أن حارس البوابة العجوز في المصفاة سينهي غداءَه قريباً ثم يبدأ في التحرك ذهاباً وإياباً أمام البوابة ويداه خلف ظهره، وسوف يمر وقت طويل قبل أن يعود إلى غرفته ويجلس، وفي هذه الفترة سيصبح الماء في الحمام بارداً.

وقفت على الجسر، محشوراً بين بطون للبالغين، أشاهد كونشان وهو يتكئ على الحاجز، ويدخّن ويبصق كتلاً كبيرة من البلغم. لقد فتنني طريقة نمو شاربه فوق فمه الثخين، وطريقة اهتزاز عضلات وجهه مثل علم في مهب الريح حينما يتكلم. وأدهشتني عضلات هذا الرجل في وجنتيه، وبعد أن تفقدت صدره الضخم الذي لن تتمكن أي حربة من اختراقه، وفحصت ذراعيه وساقيه، قلت لنفسي إن شي غانغ هالك لا محالة.

لم أكن أعرف اسم عائلة كونشان - ولا يعرفها كثير من السكان المحليين - لكننا جميعاً نعرف جيداً من هو. إنه الرجل الذي يقترض المال من الناس ولا يكلف نفسه عناء سداده. لما تنفد علبة سجائره، يوقف المارة في الشارع ويضرب جيوبهم بمرح براحة يده العريضة، وما إن يجد علبة السجائر، يضع يده في جيوبهم ويستخرجها، ويعطي سيجارة لهم؛ أي لصاحبها ويُودع الباقي في جيبه. ليس ثمة شخص في بلدتنا لا يعرف من هو كونشان، حتى الأطفال يمكن أن يشعروا بوخز من الخوف الذي يثيره ذكر اسمه. لكننا أعجبنا به أيضاً، وحين نلتقيه في الشارع ننادي باسمه في أعلى أصواتنا. كنت أفعل ذلك بالفعل حين كنت في الخامسة من عمري، وظلّت هذه العادة عالقة معي منذ ذلك الحين. هل لهذا السبب، حين يسير كونشان في الشارع، يبقى دائماً مبتهجاً راضياً؟ لقد أحب ما يفعله الناس حين يستقبلونه، ودائماً يردّ عليهم برضا. وجد أنه من دواعي سروره أن يُظهر له كل شخص في المدينة الاحترام اللائق.

ألقى كونشان، الآن، عقب سيجارته في النهر وهزّ رأسه بأسف: "شي غانغ لا يظهر لي الاحترام المناسب."

"لماذا تقول هذا؟"

ركز كونشان نظرته على الرجل نحيف الوجه ذي النظارة. ارتفعت يده ببطء إلى مستوى رأس الرجل ومثَّل حركة لكم (بوكس) على الأذن. "لقد صفع زوجتي".

سمعت شهيقاً جماعياً، وتساءلت دهشاً كيف يمكن لشخص ما أن يجرؤ على فعل ذلك. ثم سأل أحدهم السؤال الأهم في ذهني: "أكان لديه الشجاعة لصفع زوجتك؟ من يعتقد شي غانغ نفسه؟"

"أنا لا أعرفه." طعنت أصبع كونشان الهواء. "ولكن الآن أنا حريص على مقابلته".

قال الرجل نحيل الوجه: "ربما لم يعرف أنها زوجتك حين ضربها".

هزّ كونشان رأسه: "هذا مستحيل".

تحدث شخص آخر: "سواء كان يعرف أم لا، إذا ضربها، فإن كونشان سيجعله يدفع ثمن ذلك. كيف يمكنك حتى أن تجرؤ على ضرب زوجة كونشان؟"

قال كونشان: "أنت مخطئ هنا. زوجتي تستحق الضرب".

نظر إلى جمهوره المذهول. "قد لا يعرف الآخرون زوجتي، لكنني بالتأكيد أعرفها. إنها حقاً تستحق الضرب كثيراً. بسبب لسانها الشرير، تسير في الجوار دائماً وتسبب إزعاجاً لنفسها. لو لم تكن متزوجة مني، فلا أعرف كم مرة كانت ستُلكم على أذنيها..."

توقف كونشان للحظة: "لكن على الرغم من كل ذلك، فهي لا تزال زوجتي. إذا ارتكبت شيئاً خطأ أو تحدثت عن غيرك، فيمكنك القدوم لرؤيتي بشأن ذلك، وإذا احتاجت إلى لكم على أذنها، فسأفعل ذلك بنفسي. لم ينطق شي غانغ بأي كلمة عن ذلك أبداً لي، لكنه مضى قدماً ولكم زوجتي على أذنها".

التقط كونشان الساطور من الحاجز وابتسم بخفة: "إذا لم يظهر لي الاحترام المناسب، فلن يتفاجأ كثيراً إذا لم أعامله بلطف."

اتخذ كونشان خطوة في اتجاهنا. أفسحنا له طريقاً، وحينما بدأ جسمه الضخم يتحرك في الشارع، بدا الأمر كما لو أن ثمة سفينة قوية تسير فوق النهر، والناس المحيطون به أشبه بالأمواج التي ألقت طاقم السفينة. تقدمنا معاً إلى الأمام، وأنا في موقع ممتاز إلى يمين كونشان. كان ساطوره اللامع يتأرجح ذهاباً وإياباً إلى جانب كتفي مثل الأرجوحة. هذا يؤكد أننا في استراحة غداء مبهجة، وهذه المرة الأولى التي أمشي فيها بين العديد من البالغين. عبر مرافقتهم كونشان، أصبحوا مرافقيَّ أيضاً. لقد أحدثنا قدْراً كبيراً من الضوضاء في أثناء تقدمنا وتوقف المشاة، وهم يراقبوننا بفضول ويستجوبوننا. في كل مرة كنت أتأكد من أنني أول من أجيب عن استفساراتهم، وأخبرهم أن كونشان سيجبر شي غانغ أن يدفع ثمن هذا دماً. خرجت كلمة (دماً) بصوت عالٍ وطويلٍ على نحو خاص، ولا أهتم إذا أصبح صوتي أجش في هذه العملية. جذب هذا انتباه كونشان، وكان ينظر إلي من حين لآخر، وعيناه متوهجتان. كان أملي الخالص في هذه اللحظة أن يطول الشارع المؤدي إلى المصفاة طوال الليل، لأننا مع تقدمنا التقيت

زملائي في الصف الذين امتلأت عيونهم بالحسد. أدركت أنني أصنع اسماً لنفسي. سطع ضوء الشمس مباشرة على وجوهنا، ما جعل عينيّ تضيق حتى أصبحت شقاً، وحينما نظرت إلى كونشان، كانت عيناه قد ضاقتا أيضاً.

كنا نقترب الآن من المدخل الرئيسي للمصفاة، وبإمكاني رؤية الرجل العجوز خارج مكتب الاستقبال من مسافة بعيدة. هذه المرة لم يكن يسير جيئةً وذهاباً ويداه خلف ظهره، بل كان يرفع رأسه اتجاهنا مثل طائر. مشينا إليه مباشرة، والآن، بعد أن أصبح واضحاً أنه رآني، شعرت بالخوف فجأة، ظننت أنه من المحتمل جداً أن يأتي ويمسك بي من الخلف، تماماً مثل والدي ومعلمي وكبار السن، وكذلك يفعل أخي في كثير من الأحيان. سرت قشعريرة أسفل عمودي الفقري. ونظرت إلى كونشان، رأيت وجهه أحمر بسبب الشمس، وصرخت بخجل إلى الرجل العجوز: "إنه كونشان!"

سمعت صوتي خافتاً ورقيقاً في أذني، ويبدو أنه يرتعش مثل ورقة الشجر. لكن الرجل العجوز قد تنحّى بالفعل جانباً، حيث شاهدنا بفضول المارة الآخرين نفسه. بسبب تبجحنا هذا، لم يبذل الرجل العجوز أدنى جهد للوقوف في طريقنا. كم سهل فعل ذلك! قلت لنفسي.

سرنا على طول الطريق الخرساني، محوطين بأبواب ورشة العمل المفتوحة والواسعة حتى إنها أوسع من البوابة الرئيسة التي مررنا بها للتو. وقف رجال ملطخون بالزيت يراقبوننا وسأل أحدهم، "هل شي غانغ في الحمام؟"

"نعم". سمعت.

قال أحدهم: "إنه في الحمام".

قال كونشان: "حسناً، إذاً".

تجاوزنا الورش وانعطفنا عند زاوية وكان أمامنا المقصف، وخارج أحد الجوانب يوجد المدخنة الطويلة لغرفة المرجل، تنفث دخاناً كثيفاً يلتف على نحو سحب متصاعدة قبل أن يتفرق في السماء الصافية. وقف اثنان من عمال الغلايات يراقبوننا، متكئين على مجرفيهما الحديدين كما لو كانا يمشيان على العصي. مشينا إلى الأمام اتجاه الحمام. كان بعض الناس قد خرجوا للتو من المبنى وهم يرتدون نعالاً بلاستيكية ويمسكون بملابس العمل، وشعرهم لا يزال يقطر ماءً، ولون وجوههم وأقدامهم وردية كما لو كانت مطبوخة. توقف كونشان، فتوقفنا جميعاً. قال كونشان للوجه النحيف ذي النظارات: "اذهب وتحقق إذا كان شي غانغ داخلاً."

دخل الرجل في حين كنا ننتظر. احتشد مزيد من الناس حولنا وجاء عاملا الغلاية يجرّان مجرافيهما خلفهما. "كونشان، من الذي تبحث عنه؟" سأل أحدهما. "من أساء إليك؟"

لم يقل كونشان شيئاً، لذلك أجاب أحدهم: "شي غانغ".

"ماذا فعل شي غانغ؟"

هذه المرة رد كونشان بنفسه: "لم يظهر لي الاحترام المناسب."

انزلقت يده في جيبه، استشعرها قليلاً، ثم أخرج سيجارة وعلبة أعواد الثقاب. وضع السيجارة في فمه، ووضع الساطور تحت إبطه، وأشعل السيجارة. ظهر الرجل نحيل الوجه. قال: "شي غانغ في الداخل. إنه يغتسل".

قال كونشان: "أخبره أن كونشان قد جاء من أجله".

قال الرجل النحيل الوجه: "لقد أخبرته بذلك بالفعل، وقال إنه سيخرج قريباً."

قال أحدهم: "شي غانغ يجب أن يكون خائفاً بلا شك".

هزّ الرجل نحيل الوجه رأسه: "لا، إنه يغتسل فحسب".

ظهرت نظرة ندم على وجه كونشان. لقد رأيت تلك النظرة من قبل، على الجسر، حينما قال إنه لم يُظهر الاحترام المناسب. هذه المرة أصيب بخيبة أمل لأن شي غانغ لم يكن مذعوراً كما توقع. قال أحدهم: "كونشان، ادخل وقطّعه. سيكون مثل الدجاجة منتوفة الريش، وهو غير مرتدٍ ملابسه."

هزّ كونشان رأسه: "أخبره أنني سأمنحه خمس دقائق، لأنني بعد ذلك سأدخل وأحضره".

دخل الرجل نحيل الوجه مرة أخرى. كان ثمة ضجيج من الحديث حولي، لكن كونشان ظل صامتاً. كانت سيجارته مضمومة بإحكام بين شفتيه، ودخانها جعل عينه اليمنى تغمض نصف إغماضة.

خرج الرجل نحيل الوجه: "شي غانغ يقول لا داعيَ للقلق، وخمس دقائق كافية".

ابتسم الناس، وتتطلعوا إلى اللحظة التي يخرج فيها شي غانغ ويضرب خصمه. قتم وجه كونشان وشدت عضلات خده، وأومأ برأسه: "حسناً سأنتظر".

حينئذٍ تركته، وتخليت عن مكاني المميز الذي كنت أدافع عنه بثبات مدّة طويلة. في كثير من الأحيان حاول شخص ما أو غيره إبعادي عن

مكاني المجاور لكونشان، وقد تمكنت ببذل قصارى جهدي من الاحتفاظ بمكاني. لكن شي غانغ أثار اهتمامي إلى درجة أنني اضطررت إلى إلقاء نظرة إلى الحمام. هناك، وسط البخار الساخن، رأيت عشرات الأشخاص أو نحو ذلك يستحمون، وقليلاً من الآخرين يقفون حول الحافة بملابسهم. كان بإمكاني سماعهم يتحدثون عن المواجهة الوشيكة. لقد تفحصتهم بعناية، غير متأكد من هو شي غانغ. تذكرت أن الرجل نحيف الوجه قال إنه كان يغسل نفسه بالصابون، لذلك ألقيت نظرة على الرجل النحيل العريض الكتفين الذي كان يقف في منتصف الحمام، ويمسح الصابون عن شعره بمنشفة. بعد تنظيف الصابون، جلس على حافة الحمام وفرك وجهه. كان الصابون قد وصل إلى عينيه ففركهما قليلاً، ثم لَف المنشفة لتجفيفها وفركهما برفق مرة أخرى. سمعت شخصاً ينادي اسم شي غانغ ويسأله: "هل تريد منا مساعدتك؟"

"لا حاجة لذلك".

كان الرجل الذي يفرك عينيه هو من أجاب، لذلك علمت أنني قد تعرَّفته على نحو صحيح. راقبته بإثارة وهو ينهض ويسير نحوي وهو لا يزال ينشف شعره. لم أبذل أي جهد للتنحي، وحينما اصطدم بي، مدّ يده، وكأنه قلق من أنني قد أسقط. ثم ذهب إلى غرفة تغيير الملابس. تبعته وكذلك الأشخاص الذين ارتدوا ملابسهم بالفعل. شاهدت شي غانغ وهو يجفف نفسه ويرتدي قميصاً وبنطالاً على عجل. ثم جلس على مقعد، وانتعل حذاءه، وبدأ في ربط رباط حذائه. "هل حقا لا تريد منا مساعدتك؟" سأل أحدهم.

"لا حاجة." هز رأسه.

وقف على قدميه، وأنزل بزَّة عامل قماشية معلقة عن الحائط. لفَّها مراراً حول ذراعه اليسرى كما لو كانت ضمادة، وبيده اليسرى تمسك بإحكام بالطرفين الفضفاضين. بعد ذلك، التقط المنشفة، وذهب إلى الصنبور، وفتح الماء، وبلل المنشفة جيداً.

كان الوقت قد حل في فترة ما بعد الظهر، وامتدت الظلال، لذا كانت البقعة التي وقف فيها كونشان والآخرون الآن هي الظل. لقد شاهدوا شي غانغ يظهر في ضوء الشمس الساطع. مع بدلة العامل الملفوفة حول مرفقه بدت كأنها كرة سلة مدسوسة تحت ذراعه. أمسك المنشفة المبللة بيده اليمنى، التي كانت تقطر الماء مثل صنبور متسرب وأحدثت رقعة رطبة على الأرض.

كنت أقف إلى جانب شي غانغ، وحينما لحظت أن الأشخاص المجاورين لكونشان بدؤُوا في الانسحاب، تراجعت بضع خطوات وأخذت مأوى تحت شجرة. تقدم كونشان خطوتين إلى الأمام، تاركاً الظلال لأشعة الشمس. حدّق في شي غانغ، ونظرت إليه أيضاً. أضاءته أشعة الشمس من الخلف، ما جعل شعره يلمع. لكن لم يسقط ضوء على وجهه ولم يحدق، لكنه نظر إلى كونشان عابساً.

أخرج كونشان السيجارة من فمه وألقاها على الأرض. قال: "إذاً أنت شي غانغ". أومأ الرجل الآخر برأسه. "هل شي لان هي أختك؟"

أومأ شي غانغ مرة أخرى: "صحيح."

ابتسم كونشان، ونقل الساطور من يده اليمنى إلى اليسرى وخطا خطوة أخرى إلى الأمام. قال: "أنت ولد كبير الآن. وعصبي قليلاً أيضاً".

حين قال هذا، لوّح بقبضة يده على شي غانغ، الذي تفادى الضربة. نظر إليه كونشان متفاجأ وقال: "تمثل دور الرجل صعب المنال، أليس كذلك؟"

لقد صوب ركلة على ركبة شي غانغ بقدمه اليمنى، لكن شي غانغ قفز بعيداً عن طريقها، مرة أخرى تحيّد التهديد. ظهرت نظرة دهشة على وجه كونشان. ضحك، ثم نظر إلينا نحن المتفرجين قائلاً: "إنه جيد."

حينما أدار رأسه، بدأ شي غانغ في العمل. وجلد وجه كونشان بمنشفته الرطبة، وسمعنا صفعة ضخمة مدوية، بصوت أعلى بكثير من صوت يد تضرب وجهاً. صرخ كونشان، وسقط الساطور على الأرض. أمسك وجهه بيده اليمنى ووقف على الفور. رجع شي غانغ خطوتين إلى الوراء ولفّ المنشفة بإحكام مرة أخرى، ثم وضع عينيه على خصمه. حينما نشر كونشان ذراعيه، رأينا أن قطرات الماء تبقع وجهه الآن، وعينه اليسرى وخده كانا حمراوين زاهيين. انحنى ليلتقط الساطور، وأمسكه بيده اليمنى بينما كان يمسك وجهه بيساره. لوَّح الساطور في اتجاه شي غانغ، ولمّا تهرّب شي غانغ مرة أخرى، ركله كونشان في ساقه، وأجبره على الهزيمة ومثل هذا التراجع السريع إلى درجة أنه كاد ينزلق ويسقط. ما إن استعاد موطئ قدمه حتى انحنى الساطور تجاهه مرة أخرى. مع عدم وجود وقت للخروج من الطريق، رفع شي غانغ الذراع المغطاة ببدلة العمل. ارتطم ساطور كونشان بذراعه، وفي اللحظة نفسها صدمت منشفة شي غانغ وجه كونشان.

لم أر قط مثل هذه المعركة الشرسة. ضرب الساطور في ذراع شي غانغ كثيراً، ومرة تلو الأخرى ضربت المنشفة وجه كونشان. كانت بدلة العمل المصنوعة من القماش بمنزلة درع شي غانغ؛ حينما لا يستطيع المراوغة يمكنه

في الأقل رفع ذراعه. استخدم كونشان يده اليسرى لدرء سلاح شي غانغ، حينما ضربت المنشفة المبللة بالماء اتجاه وجهه، كانت تضرب يده في كثير من الأحيان. قفز الرجلان ذهاباً وإياباً بين ضوء الشمس والظل، وتقاتلا قتالاً مميتاً مثل قتال الصراصير. سمعنا مراراً وتكراراً صيحات الألم، وأصبحت سراويلهما الخشنة أثقل وأثقل، لكنهما لم يظهرا أي علامات على التوقف، ويبدو أنهما يريدان القتال حتى النهاية المريرة.

في أثناء المعركة، انتفخت مثانتي إلى درجة أنني اضطررت إلى التبول. لم أتمكن من العثور على مرحاض في المصفاة، لذلك اندفعت إلى الشارع واضطررت إلى الركض مباشرة على طول الطريق إلى رصيف العبّارات قبل أن أجد حماماً. حين عودتي نسيت أمر واجب الحراسة للرجل العجوز عند المدخل، ولمّا دخلت بسرعة عبر البوابة ظننت أنني سمعته يصرخ ويشتم خلفي، لكني لم أكترث كثيراً. حينما عدت أخيراً إلى الحمام، كانا لا يزالان منشغلين في كفاحهما المتواصل، الحمد لله.

لم أر قط مثل هذه المعركة التي طال أمدها أو مثل هذين البطلين الدؤوبين. الطريقة التي قفزا بها ذهاباً وإياباً، لا بدّ أن يكونا قد شاركا في الماراثون. شعر البعض أنهم لا يستطيعون تحمل انتظار النتيجة النهائية وغادروا، فقط ليحلوا محلهم آخرين في طريقهم إلى وردية الليل، الذين استولوا بصبر نافد على مواقع مهمّة، إذ كان لديهم رؤية جيدة للمعركة. لاحظت مرتين أن منشفة شي غانغ كانت جافة جداً إلى درجة أنها أصبحت سلاحاً ناعماً وضعيفاً. في كل مرة يسلمه أصدقاؤه على الفور منشفة بديلةً مبللة حديثاً. سيضرب شي غانغ بعد ذلك وجه كونشان المنتفخ لينتفخ أكثر،

بينما قطع ساطور كونشان بدلة العمل على ذراع شي غانغ إلى شرائط من القماش، مثل شرائط نهاية الممسحة. حينئذٍ سمعنا أصوات القلي من المقصف المجاور، ولاحظت أن الناس يحملون علب الطعام.

ضربت منشفة شي غانغ المبللة يد كونشان اليمنى، ما أدى إلى سقوط الساطور على الأرض. هذه المرة وقف بلا حراك، ينظر إلى شي غانغ كما لو كان في حالة ذهول. كانت عيناه ووجهه حمراوين ومتورمين، وبدا أنه لم يستطع رؤية شي غانغ بوضوح، لأنه عندما خطا شي غانغ خطوتين إلى يمينه، استمر كونشان في النظر إلى المكان الذي كان يقف فيه. بعد لحظة أو اثنتين، أخذ زاوية من سترته وفرك بحذر عينيه المتألمتين. وقف شي غانغ إلى أحد الجوانب، وذراعاه معلقتان، وفمه نصف مفتوح، وهو يلهث ويراقب. بعد دقيقة، سقطت المنشفة من يده، وبعد أن نظر إلى كونشان فترة أطول، رفع شي غانغ يده اليمنى وأزال بحذر بدلة العمل من ذراعه اليسرى. كانت تلك البدلة السميكة المصنوعة من القماش الآن عبارة عن حزمة من الخرق. خلعها شي غانغ وألقاها على الأرض. ثم رأينا أن ذراعه اليسرى مجروحة بشدة. أمسك ذراعه اليسرى بيده اليمنى، ثم استدار وغادر، وانتظم العديد من أصدقائه في الخلف. لم يعد كونشان يفرك عينيه - لقد كان ببساطة يرمش كأنه يختبر بصره. حينئذ رأيت السماء قد احمرت مع وهج غروب الشمس.

لقد شاهدت شخصياً تغلب المنشفة على النصل، والآن عرفت أن المنشفة الرطبة يمكن أن تكون سلاحاً كبيراً. في الأيام التي تلت ذلك، كنت دائماً أغادر الحمام بمنشفة مبللة في يدي، وفي مسيرتي الطويلة إلى المنزل اعتقدت أنني جريء وقوي. حتى إنني أخذت منشفتي المبللة إلى المدرسة

وتنقلّت بها ذهاباً وإياباً في الملعب، بحثاً عن مثيري الشغب، وكان زملائي في الفصل يتجمعون حولي تماماً كما كنا نتجمع حول كونشان. استمرت هذه الأيام السعيدة بعض الوقت، حتى فقدت منشفتي. لم أفهم قطّ كيف حدث هذا وهي كانت لا تزال مبللة، وأعتقد أنني علقتها فوق غصن شجرة. كل ما أتذكره هو أننا كنا نركض خلف الكرة وبعد ذلك عدنا إلى المنزل – لم أر المنشفة مرة أخرى. جلدتني والدتي، المفتقرة دائماً للمال، بكلامها الغاضب، وصفعني والدي المتشدد أيضاً بضع صفعات على وجهي، ما جعلني أتألم من أسناني مدة أسبوع كامل بعد ذلك.

في وقت لاحق، غادرت المنزل حزيناً وذهبت في نزهة إلى ضفاف النهر، وأنا أدحرج إحدى يدي على طول الحاجز. طفت الغيوم الوردية على وجه الماء، لكنني كنت كئيباً وبتُّ مثل الرماد بعد اندلاع حريق. ما إن وصلت إلى الجسر، رأيت كونشان. لقد اختفت الكدمات الآن عن وجهه واستعاد حيويته السابقة. لقد جاء متباهياً وكأنه يمتلك المدينة بأكملها. فجأة شعرت بالإثارة، لأنه في اللحظة نفسها رأيت شي غانغ يقترب من الاتجاه الآخر. كانت الذراع المصابة تتأرجح الآن عرضياً إلى جانبه، ويتجه نحو كونشان.

شعرت كما لو أن أنفاسي قد خرجت مني، وخفق قلبي. كان قتالهما المثير يوشك أن يُستأنف بالتأكيد. لكن هذه المرة لا يوجد ساطور ولا منشفة: أسلحتهما الوحيدة كانت قبضتهما وأقدامهما - أحدهما كان ينتعل حذاءً جلدياً، كما لحظت، والآخر حذاءً رياضيّاً. ذهب كونشان مباشرة إلى شي غانغ، وسدَّ طريقه، وسمعته يقول بصوت عالٍ: "مرحباً، هل لديك سيجارة؟"

لم يجب شي غانغ. لقد وقف هناك، يتطلع إلى خصمه. بدأ كونشان يربت على سترة شي غانغ، ثم انزلقت يده داخل جيبه وسحب علبة سجائر. كنت أعلم أنه كان استفزازياً، لكن شي غانغ لم يتحرك بعد. استخرج كونشان سيجارة، واعتقدت أنه سيمررها إلى شي غانغ ويحتفظ بالباقي لنفسه. لكن بدلاً من ذلك، وضع السيجارة في فمه، ونظر إلى شي غانغ، وأعاد العلبة. أخذها شي غانغ، واستخرج سيجارة، ووضعها بين شفتيه. ما حدث بعد ذلك فاجأني تماماً. وضع شي غانغ العلبة في جيب الرجل الآخر. ابتسم كونشان. أخرج أعواد ثقابه، وأشعل سيجارة شي غانغ، ثم أشعل سيجارته.

في ذلك المساء، اتكأ على الجسر ولم يكن ثمة نهاية لمزاحهما، ولا نهاية لضحكهما. شاهدت غروب الشمس يغمرهما في ظلال وردية، وبقيا حتى اكتنفهما الظلام. وضعا أذرعهما على الحاجز، وتوهجت سجائرهما وهما يرفعانها عن وجهيهما. على الرغم من أنني وقفت مستمعاً على بعد أمتار قليلة، لم أفهم شيئاً مما قالاه. ولمدّة طويلة بعد ذلك، ظللت أحاول تذكر نوع السجائر التي دخناها في البداية، ولكن بطريقة ما يتبادر إلى ذهني أربعة أسماء في الوقت نفسه (فرونت غيت، وفلاينغ هورس، وبيبول تشويس، وويست ليك).

فهرس

الصفحة

تقديم ٥
ملاحظة المترجم عن الصينية ٧
لا اسم لي ٩
صبيٌّ في الشفق ٣١
لم لا توجد موسيقا؟ ٤١
انتصار ٥٥
الزائدة الدودية ٧٥
تصادم جوي ٨٥
على الجسر ١٠١
صيف حارٌّ ١١١
جبان كفأر ١٢٧
ابنهما ١٦٥
لعبة القفز والخطوة ١٧٩
لماذا ينبغي لي أن أتزوج؟ ١٨٥
أصحاب ٢١١
الفهرس ٢٢٧

يو هوا

- كاتب صيني؛
- كتب خمس روايات وست مجموعات قصصية وأربع مقالات؛
- تُرجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة؛
- في عام ٢٠٠٢، أصبح أول كاتب صيني يفوز بجائزة جيمس جويس؛
- رُشِحت روايته "الإخوة" إلى القائمة القصيرة لجائزة Man Asian Literary Prize؛
- حصلت على جائزة Prix Courrier International الفرنسية.
- حصلت روايته "To Live" على جائزة Premio Grinzane Cavour الإيطالية، وصُنِفت "To Live and Chronicle of a Blood Merchant" ضمن أكثر عشرة كتب تأثيراً في الصين في التسعينيات من قبل Wen Hui Bao، أكبر صحيفة في شنغهاي. يعيش الكاتب يو هوا في بكين.
- من أعماله المؤلفة:

• الإخوة، صرخات في الرذاذ
• وقائع تاجر الدم

- أن نعيش
- الماضي والعقوبات.
- الصين في عشر كلمات

ألان إتش بار

- مترجم رواية يو هوا الأولى Cries in the Drizzle ومجموعة مقالاته بعنوان الصين في عشر كلمات. يدرّس اللغة الصينية في كلية بومونا في كاليفورنيا.

فاديا جادو العوام

مدرّسة ومترجمة سورية حائزة إجازة في اللغة الإنكليزية وآدابها، جامعة دمشق.

من أعمالها المترجمة:

- حكاياتٌ من بلد العجائب ٢٠١٩.
- الكون ٢٠٢٠ .
- نحتاج أسماء جديدة ٢٠١٩ .
- أيام الثلاثاء مع موري ٢٠٢١ .
- ثلاثون قصة لليافعين قيد الطباعة.
- الحل في الطبيعة، قيد النشر.

٢٠٢٢م